



ISSN:1858-9952

الْقَلَنَمُ لِلدِّرَاسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْجُغَرَايَةِ

مجلة علمية محكمة

تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان
بالتعاون مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك

في هذا العدد :

■ البحر الأحمر وحركة الكشف الجغرافية

د. عزة محمد موسى

■ موانئ وقرى البحر الأحمر في كتب الرحالة (دراسة في النشاط الاقتصادي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) (رحلة العياشي أموذجا)

أ.د. منى بنت حسين بن علي آل سهلان القحطاني

■ الصراع العثماني البرتغالي حول البحر الأحمر والقرن الإفريقي خلال القرن السادس عشر الميلادي

أ.م.د. عبد الحكيم عبد المجيد الهجري

■ المخططات الصليبية للسيطرة على البحر الأحمر في أواخر العصور الوسطى

د. لطيفة بنت خلف العنزي

■ البحر الأحمر في التاريخ الحديث

د. أحمد محمد أحمد مركز - أ.د. ميمونة مرغني حمزة النصري



العدد الثامن خاص ج(2) - ذو القعدة 1442هـ - يونيو 2021م

فهرسة المكتبة الوطنية السودانية-السودان

مجلة القلزم: Alqulzum Journal for:

Historical and cultural Studies

الخرطوم : مركز دول حوض البحر الأحمر 2021

تصدر عن دار آريثيريا للنشر والتوزيع -السوق العربي-

السودان - الخرطوم

ردمك: 1858-9952

مجلة القلزم للدراسات التاريخية و الحضارية

الهيئة العلمية و الإستشارية

- أ.د. حسن أحمد إبراهيم-السودان
أ.د. سارة بنت عبد الله العتيبي- المملكة العربية السعودية
أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين- السودان
أ.د. أبو هريرة عبد الله محمود يعقوب- السودان
أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس - جمهورية مصر العربية
أ.د. السمانى النصري محمد أحمد - السودان
د. أحمد الياس الحسين - السودان
د. داود ساغه محمد عبد الله- السودان
د. سلطان أحمد الغامدي- المملكة العربية السعودية
د. سامي صالح عبد المالك البياضي- مصر
د. محمد أحمد زروق- المغرب
د. سعاد عبد العزيز أحمد السودان
د. أحمد محمد مركز- السودان
د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا- موريتانيا
د. عزة محمد موسى - السودان
د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني- السودان
د. ربيعة أحمد عمران المداح- ليبيا

هيئة التحرير

المشرف العام

الأستاذ د.إبراهيم البيضاني

رئيس هيئة التحرير

د.حاتم الصديق محمد احمد

رئيس التحرير

د. عوض أحمد حسني شبا

سكرتير التحرير

د.سلوى التجاني فضل جبر الله

التدقيق اللغوي

أ.الفتاح يحيى محمد عبد القادر

الإشراف الإلكتروني

د. محمد المأمون

التصميم الداخلي

أ. عادل محمد عبد القادر

تصميم الغلاف

ايلين عبد الرحيم ابنعوف

الآراء والأفكار التي تنشر في المجلة

تحمل وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء المركز

موجهات النشر

تعريف المجلة:

مجلة (القلزم) مجلة علمية مُحكمة تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر. تهتم المجلة بالبحوث والدراسات التي تخص حوض البحر الأحمر والدول المطلة عليه والمواضيع ذات الصلة.

موجهات المجلة:

1. يجب أن يتسم البحث بالجودة والأصالة وألا يكون قد سبق نشره قبل ذلك.
 2. على الباحث أن يقدم بحثه من نسختين. وأن يكون بخط (Traditional Arabic) بحجم 14 على أن تكون الجداول مرقمة وفي نهاية البحث وقبل المراجع على أن يشار إلى رقم الجدول بين قوسين دائريين ().
 3. يجب ترقيم جميع الصفحات تسلسلياً وبالأرقام العربية بما في ذلك الجداول والأشكال التي تلحق بالبحث.
 4. المصادر والمراجع الحديثة يستخدم أسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع، رقم الصفحة.
 5. المصادر الاجنبية يستخدم اسم العائلة (Hill, R.).
 5. يجب ألا يزيد البحث عن 30 صفحة وبالإمكان كتابته باللغة العربية أو الإنجليزية
 6. يجب أن يكون هناك مستخلص لكل بحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد على 200 كلمة بالنسبة للغة الإنجليزية. أما بالنسبة للغة العربية فيجب أن يكون المستخلص وافياً للبحث بما في ذلك طريقة البحث والنتائج والاستنتاجات مما يساعد القارئ العربي على استيعاب موضوع البحث وبما لا يزيد عن 300 كلمة.
 5. لا تلتزم هيئة تحرير المجلة بإعادة الأوراق التي لم يتم قبولها للنشر.
 - * على الباحث إرفاق عنوانه كاملاً مع الورقة المقدمة (الاسم رباعي، مكان العمل، الهاتف، البريد الإلكتروني).
- نأمل قراءة شروط النشر قبل الشروع في إعداد الورقة العلمية

المحتويات

المخططات الصليبية للسيطرة على البحر الأحمر في أواخر العصور الوسطى.....(28-7)

د.لطيفة بنت خلف العنزي

مملكة أكسوم.....(42-29)

د.عبد الله الزبير يوسف الزبير

تاريخ ممالك اليمن القديمة.....(68-43)

د.أسامة عبد الله محمد الأمين

الصراع العثماني البرتغالي حول البحر الأحمر والقرن الإفريقي خلال القرن

السادس عشر الميلادي.....(106-69)

أ.م.د.عبد الحكيم عبد المجيد الهجري

البحر الأحمر وحركة الكشف الجغرافية.....(126-107)

د.عزة محمد موسى

موانئ وقرى البحر الأحمر في كتب الرحالة (دراسة في النشاط الاقتصادي في القرن

الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي) (رحلة العياشي أمودجاً).....(148-127)

أ.د.منى بنت حسين بن علي آل سهلان القحطاني

البحر الأحمر في التاريخ الحديث.....(204-149)

د.أحمد محمد أحمد مركز - أ.د.ميمونة مرغني حمزة النصري

كلمة التحرير



القارئ الكريم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يسرنا في مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر- السودان، وعبر مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية التي تصدر بالتعاون مع الاتحاد الدولي للمؤرخين- الدنمارك. أن نضع بين يديك العدد الثامن من المجلة التاريخية والحضارية، وهو عدد (خاص) تم تخصيص مواضيعه وبحوثه للبحر الأحمر ودوره في التنافس الإقليمي والدولي، والتواصل الحضاري.

القارئ الكريم:

يأتي هذا العدد في إطار مجهودات المركز الرامية للبحث والتنقيب في البحر الأحمر بكل فروع المعرفة فيه. وهذه البحوث ثمرة مجهود بحثي كبير ونواة لموسوعة البحر الأحمر المشروع الذي يعكف المركز على إنجازه بالصورة التي تلي طموحات وتطلعات المختصين والباحثين والمهتمين بالبحر الأحمر. ويتمدد خالص شكرنا وامتناننا لجميع الخبراء والمفكرين الذين أسهموا في أن يرى هذا العدد النور من السودان، والمملكة العربية السعودية واليمن، وفلسطين.

القارئ الكريم:

نأمل أن يكون هذا العدد بداية لانطلاقة علمية لإعداد بحوث ودراسات تهتم بالبحر الأحمر، ونفخر في مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر- السودان بالعمل على هذا المشروع الكبير.

أسرة التحرير

المخططات الصليبية للسيطرة على البحر الأحمر في أواخر العصور الوسطى

باحثة وأكاديمية - المملكة العربية السعودية

د. لطيفة بنت خلف العنزي

مستخلص:

نتيجة للتغير الذي طرأ على أوروبا في أواخر العصور الوسطى أصبحنا لا نرى لدى الأوربيين طاقات جديدة يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، خاصة بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا عام 690هـ / 1291م ، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، ولذلك بدأت تعلو صيحات المعادين للإسلام من فئات النصارى المتشددین لمواجهة هذا القصور الواضح والتراجع عن فكرة الحرب المقدسة، ولجأوا في سبيل تحقيق ذلك إلى إصدار الكتب والرسائل التي وجهوها إلى البابوات وشرحوا فيها خططهم، ومشاريعهم لمواجهة المسلمين، وأدرك واضعي الخطط أن مما ساعد على قوة المسلمين هو موقع بلادهم المميز والفريد بوصفهم واسطة التجارة بين الشرق والغرب، لذا كانت أهم خططهم هو إما تغيير طريق التجارة وصرفه عن البحر الأحمر، أو غلق البحر الأحمر عن طريق وضع سفن صليبية على مضيق عدن الباب الرئيسي للبحر .

Abstract:

As a result of the change that took place in Europe in the late Middle Ages, we did not see the Europeans have new energies that they would direct to serve the Crusader movement, especially after the Muslims retook the city of Acre in 690 AH / 1291 CE, and expelled the Crusaders from the Levant permanently. Therefore, the cries of anti-Islamists among the hard-line Christians began to rise. To face this apparent failure and retreat from the idea of holy war, and to achieve this they resorted to issuing books and letters that they addressed to the popes explaining their plans, and their projects to confront Muslims, and the planners realized that what helped the Muslims' power was the distinctive and unique position of their country as a medium of trade between the East and the West, so their most important plans were to either change the trade route and divert it from the Red Sea or close the Red Sea by placing Crusader ships on the Strait of Aden, the main gate to the Red Sea.

المقدمة:

اتسمت الحركة الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) وحتى الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) بسمات وخصائص معينة، كما كان لها ظواهر خاصة ودوافع وأسباب هيأت أمامها السبيل لتنفيذ سياستها الاستيطانية في بلاد الشام. وقد تضافرت في أوربا في هذه الآونة عوامل عديدة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى خروج الحملات الصليبية وإلى نجاحها خلال هذه الفترة التاريخية. إلا أننا إذا حللنا هذه العوامل في الفترة التاريخية اللاحقة وأعني بذلك من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وحتى الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) نجدها قد تغيرت وتبدلت وتنوعت مما أدى إلى تغير في الفكرة الصليبية وكيفية تناولها والتعامل معها.

لذلك ونتيجة لهذا التغير أصبحنا لا نرى لدى الأوربيين طاقات جديدة يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، رأينا ذلك بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا عام 690هـ/1291م، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، ورغم أن هذا الحدث أثار موجة حزن شديدة في أوربا بجميع فئاتها، إلا أنه لم تكن له ردود فعل تناسب مستوى الحدث، ولم تقم بأي مجهود حربي جديد، سوى محاولات البابوية الراعية الرسمية للحروب الصليبية التي ألمها ذلك وحاولت جاهدة أن تعبر عن أسأها بالعمل وذلك على يد البابا نيقولا الرابع Nicholas 1288 (IV-1292م) الذي أرسل رسله إلى جميع الملوك والأمراء النصارى لدعوتهم إلى تجهيز حملة صليبية جديدة ضد المسلمين⁽¹⁾. وأصدر عدة مراسيم بابوية تشمل عقوبة الحرمان الكنسي على كل من يتاجر مع المسلمين في مصر والشام وعلى كل من ينقل أي نوع من السلع والمتاجر إلى البلدان التابعة للمسلمين. ولم يقتصر هذا القرار فقط ضد المخالفين لأوامره بل اعتبرهم خونة مدى الحياة ويحرمون من حقوقهم المدنية والشخصية ولا يحق لهم كتابة وصية أو الحصول على ميراث⁽²⁾. إلا أنه فشل في ذلك، إذ إن المصالح الدنيوية أصبحت في ذلك الوقت أقوى من السلطة البابوية والكنيسة. فتوفي كمدأ، بعد أن خاب أمله في تحريك الجهود ضد المسلمين⁽³⁾. ولم يكن هذا التغير قاصراً على الامبراطورية والملوك والأمراء، بل امتد ليشمل أوربا عامة.

بدأت تعلقو صيحات المعادين للإسلام من فئات النصارى المتشددین لمواجهة هذا القصور الواضح والتراجع عن فكرة الحرب المقدسة، ولجأوا في سبيل تحقيق ذلك إلى إصدار الكتب والرسائل التي وجهوها إلى البابوات وشرحوا فيها خطتهم، ومشاريعهم لمواجهة المسلمين، وشملت إلى جانب ذلك

أفكاراً وآراء تعمل على إصلاح الخلل الذي أصاب أوروبا عامة وأدى إلى تقاعسها عن أداء الدور الذي اضطلعت به منذ عدة قرون، وكان يحدها الأمل في أن تؤدي هذه الرسائل والخطط إلى إثارة الحماسة الصليبية وعودة الروح إلى الحركة الصليبية التي أصابها الموت، وقامت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بمحاولات يائسة لإحياء الروح الصليبية من جديد لتحقيق نفس الأطماع القديمة⁽⁴⁾.

أدرك الغرب الأوربي أن مما ساعد على قوة المسلمين هو موقع بلادهم المميز والفريد بوصفهم واسطة التجارة بين الشرق والغرب، وسوقاً مهماً للتبادل التجاري بين إفريقية وآسيا وبلاد البحر المتوسط، وكان طريق البحر الأحمر أهم الطرق التجارية التي تدفقت من خلاله سلع ومتاجر اليمن والشرق الأقصى إلى موانئ الغرب الأوربي، ولهذا أصبح المسلمون يعتمدون على قوة وثروة هائلة مكنتهم من الوقوف في وجه الغزو الصليبي، ولهذا رأى واضعو الخطط الصليبية أن السبيل الوحيد الذي بقي أمامهم لإضعاف قوة المسلمين في مصر والشام هو فرض حصار اقتصادي عليهم مادام أن الجيوش الصليبية قد فشلت في جميع محاولاتها لاحتلال بلادهم، لذا كانت أهم خططهم هو إما تغيير طريق التجارة وصرفه عن البحر الأحمر، أو غلق البحر الأحمر عن طريق وضع سفن صليبية على مضيق عدن الباب الرئيسي للبحر الأحمر. لذا لا بد لنا في هذا البحث أن نذكر وبصورة سريعة موقع وأهمية البحر الأحمر لنتعرف على سبب تركيز دعاة الحروب الصليبية على هذا البحر في خططهم الصليبية.

البحر الأحمر مسطح مائي ضيق يفصل شمال شرق إفريقيا عن شبه الجزيرة العربية، وهو يرتبط بالمحيط الهندي في الجنوب، وتبلغ مساحة البحر الأحمر 450,000 كيلومتر تقريباً، ومتوسط عمقه 491 متراً مقارنة مع متوسط عمق المحيطات وهو 3700 متر. والبحر الأحمر أخدود محيطي ضيق يمتد لمسافة 2037 كم طولاً، وهو يبدأ عند مضيق باب المندب الذي يصل بين المحيط الهندي والبحر الأحمر عبر خليج عدن. وفي جزئه الشمالي يمتد منه ذراعان هما خليج السويس وخليج العقبة. ويصل عرض البحر الأحمر في الشمال إلى 180 كم ويتسع نحو الجنوب حتى يصل إلى أقصى اتساع له عند جازان إذ يصل عرضه إلى 350 كم، ثم يضيق مرة أخرى حتى لا يتعدى عرضه 30 كم عند مضيق باب المندب وتعزى تسمية هذا البحر إلى وجود نوع من الطحالب يتكون بلون أحمر ويتكاثر بسرعة كبيرة مغطياً مساحات واسعة من الماء⁽⁵⁾.

قلما تجتمع لمنطقة ما من العالم المميزات الجغرافية والحضارية والسياسية مثلما اجتمع لمنطقة البحر الأحمر بموقعها الوسط كشریان حيوي

للمواصلات العالمية، حقيقة وجدت طرق أخرى سلكتها تجارة الشرق إلى الغرب، مثل طريق المحيط الهندي إلى الخليج العربي والعراق ثم الشام أو آسيا الصغرى، وكذلك طريق الصين فبلاد وسط آسيا ثم موانئ البحر الأسود، ولكن مهما تعددت الطرق فإن التاريخ أثبت أن طريق البحر الأحمر هو أفضلها وأيسرها وأقصرها، وأقلها نفقات وأكثرها أمناً. وكانت الأطماع في تجارة البحر الأحمر والسيطرة على مضيق باب المندب ظلت هدفاً عمل الصليبيون جاهدين من أجل تحقيقه منذ بداية الحروب الصليبية⁽⁶⁾، لذلك سنسلط الضوء على أهم خطط دعاة الحروب الصليبية الذين تناولوا في خططهم البحر الأحمر، وسنختصر خططهم في هذا البحث على ما ذكره فقط حول البحر الأحمر تاركين بقية مشروعاتهم لعدم الإطالة التي ستخرجنا عن موضوع البحث.

أول هؤلاء الدعاة هو المستشار البابوي والراهب الفرنسي سكاني⁽⁷⁾ فيدنزيو اف بادوا Fidenzio of Badua، تذكر السجلات الحولية للمنظمة الفرنسية سكانية أن فيدنزيو تلقى تدريباً عسكرياً قبل أن يقرر الدخول في أخوية الرهبان الفرنسيين ونظراً لجهوده تم تعيينه عام 1266م ممثلاً لهذه المنظمة في الأراضي المقدسة في بلاد الشام⁽⁸⁾. وانتقل إلى هناك حيث عاش إلى أن تم طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام على يد المسلمين، ويعتبر فيدنزيو شاهد عيان لتداعي الإمارات الصليبية الواحدة تلو الأخرى. فقد عاصرها منذ البداية إذ شاهد أنشطة السلطان الظاهر بيبرس في استعادة البلدان الإسلامية من قبضة الصليبيين، فقد كان شاهداً على استعادة صفد على أيدي جنود السلطان بيبرس عام 665هـ / 1266م، وبعد عامين شاهد استعادة المسلمين لمدينة اللاذقية، وفي هذه المدينة المهمة كان لـ فيدنزيو أف بادوا موقفاً جريئاً فبعد استعادتها وأسر العديد من الجنود الصليبيين خاطر بنفسه وعبر معسكر الجيش الإسلامي واتجه إلى الأسرى الصليبيين لتشجيعهم، ثم توجه إلى مخيم السلطان الظاهر بيبرس حيث قدم له التماساً بإنهاء الحرب وعقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين، وطلب منه أيضاً منح امتيازات المرور بأمان لأفراد طائفة الرهبان، ولكن ومن خلال الأحداث اللاحقة يبدو أن مهمة فيدنزيو لم تؤت ثمارها⁽⁹⁾.

في عام 1274م غادر فيدنزيو الشرق متوجهاً إلى أوروبا لحضور اجتماع مجمع ليون برئاسة البابا جريجوري العاشر (1271 - 1276م) ومن الواضح أنه خلال الاجتماع عرض الأوضاع السيئة التي يعيشها الصليبيون في بلاد الشام وسقوط الإمارات الواحدة تلو الأخرى في يد المسلمين، وطلب المساعدة

من المجمع، وذلك لأن البابا جريجوري العاشر طلب منه إعداد تقرير لإعداد خطة لحملة صليبية توجه ضد المسلمين⁽¹⁰⁾.

وفعلًا بدأ فيدنزيو في إعداد الخطة الصليبية إلا أنه قرر قبل الانتهاء من الخطة العودة إلى الشرق فزار مصر، وأرمينيا، وقبرص بالإضافة إلى جميع مدن الشام، ثم توجه إلى القسطنطينية وتركيا وبلاد فارس، وذلك من أجل الحصول على معلومات عن الأوضاع هناك لتدوينها في خطته الصليبية⁽¹¹⁾. وبعد انتهاء فيدنزيو من خطته قدمها إلى البابا نيقولا الرابع باللاتيني (Nicolaus PP. IV) بعد سقوط عكا عام 1291م⁽¹²⁾.

قبل البدء في عرض خطة فيدنزيو الصليبية يجب أن نوضح أنه كان ملماً باللغة العربية بحكم إقامته الطويلة في بلاد الشام. وهذا ما سيجعل لخطة أهمية كبيرة. وضع فيدنزيو خطته في كتاب عنوانه: «استعادة الأرض المقدسة» Recuperationis Terre Sanote وقسمه إلى جزأين كبيرين، يتألف الجزء الأول من تاريخ عام لمدينة القدس منذ أقدم العصور حتى استعادة المسلمين لها من أيدي الصليبيين عام 1187م حيث أوضح الأسباب التي أدت إلى ذلك وإصراره على استعادتها مرة أخرى⁽¹³⁾. ولن ندخل في تفاصيل هذا الجزء لأنه لا يخص موضوع البحث.

أما الجزء الثاني من الكتاب فيتناول الجوانب العملية لحملة صليبية ناجحة من أجل الاستيلاء على الأماكن المقدسة بالشام وأيضاً كيفية الحفاظ عليها تحت سيطرة الصليبيين⁽¹⁴⁾. تحتوي خطة فيدنزيو على تفاصيل عسكرية دقيقة أهمها تجهيز قوة عسكرية بحرية لفرض حصار اقتصادي على المسلمين، وحدد عدد الأسطول حيث يقترح أن يتكون من أربعين أو خمسين سفينة عسكرية، ولا تقل عن ثلاثين لضمان نجاح الحصار، وتزويد هذه السفن بالرجال والعتاد، وأهم مهام هذه السفن هو اعتراض السفن التجارية للمسيحيين - الذين اسماهم - «العصاة» لتاجرتهم مع المسلمين ولا يلتزمون بالأوامر الصادرة من البابا بمنع المتاجرة مع المسلمين ولا يخافون من العقوبات التي فرضتها الكنيسة ولا يزالون يواصلون تعاملهم التجاري مع المسلمين وبحرية تامة. واقترح أن يوضع جزء من هذه السفن في البحر الأحمر لاعتراض السفن الإسلامية القادمة من الهند، واقترح تحويل طريق التجارة الهندية من البحر الأحمر إلى طريق آخر بري يمر عبر بلاد فارس ثم أرمينيا، ويرى أن هذا سيحقق فوائد كبيرة منها زيادة اقتصاد أرمينيا النصرانية وبالتالي زيادة قوتها لتقف في وجه المسلمين وهجماتهم⁽¹⁵⁾. ويؤكد فيدنزيو على وسيلة أخرى أهم وهي إقامة العراقيل والسدود

في مجرى نهر النيل لأنه هو الشريان الرئيسي الذي يربط المدن الداخلية في مصر بالبحر المتوسط والبحر الأحمر، حيث تصل السفن التجارية إلى ميناء عيذاب في البحر الأحمر وتنقل السلع منها عن طريق الجمال إلى النيل، فيرى فيدنزيو أنه على الصليبيين أن يقوموا بسد مصبه ومحاصرته بسفنهم مما يؤدي إلى إلحاق الضرر والخسائر بجميع موانئ العالم الإسلامي ويعود ويؤكد على ضرورة تشديد الحصار الاقتصادي على المسلمين إلى أقصى حد ممكن⁽¹⁶⁾.

تلك هي خطة فيدنزيو أف بادوا وقد ذكرنا منها ما يهم موضوع البحث، وتنم خطته عن شخص له خبرة بالبلاد الإسلامية وهو أول من نادى بالحصار الاقتصادي على المسلمين قبل البدء بمعركة عسكرية ضدهم، وأيضاً هو أول من نادى بتحويل طريق التجارة من البحر الأحمر إلى الطريق البري الذي يمر ببلاد فارس إلى ميناء أرمينيا على البحر المتوسط.

ومن الدعاة الصليبيين فولك دي فيلاريه Foulques De Villaret المقدم الخامس والعشرون لمنظمة الإسبتارية، وقد صممت المصادر عن ذكر حياته الأولى قبل أن يصبح رئيساً لطائفة الاسبتارية، وذكرت المصادر أن حياته الأولى مجهولة ويكتنفها الغموض، ولم يعرف عنه سوى أنه من عائلة بروفانسية نبيلة⁽¹⁷⁾. تولى فولك فيلاريه منصب رئيس الطائفة عام 1305م بعد وفاة عمه وليم دي فيلاريه Guillaume De Villaret في قبرص⁽¹⁸⁾. وتوفي عام 1327م في فرنسا بعد أن تم خلعه من منصبه عام 1325م⁽¹⁹⁾.

قام فولك دي فيلاريه بجولة في أنحاء أوروبا بعد توليه منصبه⁽²⁰⁾ قابل خلالها البابا كليمنت الخامس (1305 - 1314م)⁽²¹⁾ في شهر أغسطس من عام 1307م ومعه الملك الفرنسي فيليب الرابع، عرض عليهما خطته الصليبية في الاستيلاء على البلاد الإسلامية، وتناقش معهما حولها⁽²²⁾.

كتب فولك دي فيلاريه مذكرتين لخطته الصليبية ضد المسلمين، الأولى كتبها عام 1306م والتي ناقشها مع البابا كليمنت الخامس وملك فرنسا فيليب الرابع، والأخرى كتبها عام 1311-1312م وأرسلها فولك دي فيلاريه للملك الفرنسي فيليب الرابع أثناء انعقاد مجمع فيينا سنة 1311-1312م⁽²³⁾.

احتوت خطته الصليبية على تفاصيل كثيرة للاستيلاء على الأراضي الإسلامية بدءاً من الدعوة للحملة، وانتهاءً بالاحتفاظ بالأماكن التي يتم الاستيلاء عليها. وما يهمنا في هذا البحث هو أنه رأى ضرورة تحويل طريق التجارة من البحر الأحمر إلى الطريق البري من الصين والهند مروراً ببلاد فارس إلى بلاد أرمينيا على ساحل البحر المتوسط، وشدد على ذلك إذ اعتبر أن قوة المسلمين تركز في اعتمادهم على طريق البحر الأحمر الذي مكنهم من احتكار السلع

الشرقية وبيعها بأسعار باهظة إلى الأوربيين مما رفع اقتصادهم وأصبحوا قوة لا يستطيع الغرب مواجهتها، ويؤكد عمل هذا الحصار الاقتصادي على المسلمين قبل قيام الغرب بأي محاولة عسكرية للاستيلاء على أراضيهم⁽²⁴⁾. ولتحقيق ذلك أعطى فولك تفاصيل عن نوع السفن التي ستقوم بالحصار وتوضع في البحر، وكذلك تفاصيل عن التمويل المالي لتلك السفن التي ستقوم بالحصار حتى تستطيع تنفيذه على الوجه المطلوب⁽²⁵⁾.

وللخطة الصليبية التي أعدها وليم آدم Guillaume Adam أهمية خاصة، لأنه أول داع صليبي وطئت قدماه أرض الحبشة وعبر مضيق باب المندب. وليم آدم هو داع صليبي ومنصر جاب الشرق الأقصى من أجل الدعوة للنصرانية، ولد في إقليم لانجدوك Languedoc في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا فيما بين عامي 1270-1280م، درس اللاهوت في دير كوندوم Condom ثم رشح للعمل محاضراً به في عام 1302م، وقد أنهى دراسته الجامعية في جامعة تولوز Toulouse في نفس السنة عام 1302م⁽²⁶⁾، ثم سلك وليم آدم طريق الرهبنة وانضم إلى طائفة الدومينيكان⁽²⁷⁾.

في عام 1305م، انتدبه البابا كليمنت الخامس للقيام بأعمال تنصيرية في الشرق. فسار عبر الطريق البري من ناحية أوروبا الشرقية حتى وصل عام 1307م إلى آسيا الصغرى، فظل موجوداً في القسطنطينية في تلك السنة، ثم أبحر عن طريق بحر إيجه ثم البحر الأسود، ثم انتقل عن طريق البر إلى بلاد أرمينيا الصغرى، ومنها إلى بلاد فارس وهناك أخذ يدعو للنصرانية فترة ليست بالقصيرة ثم سافر إلى بلاد الهند ووعظ هناك عن العهد الجديد (الإنجيل)⁽²⁸⁾. ثم توجه مع أحد رفاقه إلى المحيط الهندي وعن طريقه زار عدن في بلاد اليمن وجال في تلك الأنحاء حتى وصل إلى إثيوبيا⁽²⁹⁾.

يعتبر وليم آدم من أول الدعاة الذين أعدوا خطط صليبية يستطيع أن يصل بها بنفسه إلى بلاد الحبشة ويزور تلك الأماكن ويشاهد مضيق باب المندب الذي تصل من خلاله البضائع الهندية إلى بلاد المسلمين في مصر والشام، وهي في الواقع نقطة في غاية الأهمية بالنسبة للأفكار التي دونها في خطته من أجل إعداد حملة صليبية للاستيلاء على الأراضي الإسلامية. كما تجول في بعض المناطق المختلفة في المحيط الهندي وتعرف على سواحله، واستمرت رحلته في المحيط الهندي حوالي عشرين شهراً عاد بعدها على نفس خط سيره إلى فرنسا ومنها إلى أفنيون مقر البابوية الجديد وذلك عام 1316-1317م⁽³⁰⁾، ولذلك تميز وليم آدم بإلمامه بأمور الشرق وأخباره.

وفي تلك الفترة ألف كتابه الذي ضمن فيه خطته الصليبية والذي حوى

العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التي جمعها خلال رحلته تلك ودعا فيها أوربا لإعداد حملة عسكرية كبرى للاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام والقضاء على المسلمين والكتاب هو Demode Saracenos Extirpandi « كيفية سحق المسلمين »⁽³¹⁾ « وقدّم هذا الكتاب إلى البابا حنا الثاني والعشرين 1316 (John XXII-1334م) »⁽³²⁾.

احتوى كتابه وصفاً دقيقاً لكل الأماكن التي زارها، واصفاً سواحلها ومنتجاتها الزراعية وموادها المختلفة، ولكن ما يهمننا في كتابه هو خطته الصليبية.

عرض وليم آدم بكل جرأة في بداية خطته أسباب قوة المسلمين وعدم تمكن الغرب الأوروبي من القضاء عليهم والاستيلاء على القبر المقدس، فأهم سبب في نظره هو مصادر ثروتهم التي تعتمد على التجارة مع الأمم المجاورة لهم. فامبراطور القسطنطينية يصدر القمح إلى مصر وملك التتار يصدر إليهم الرقيق، والهند تمدهم بتجارها من التوابل والحرير ومصنوعاتها المتميزة، وعدن تجمع ما تحتاج إليه مصر من جنوب بلاد العرب وإفريقية الشرقية، وترسله إليها عبر البحر الأحمر⁽³³⁾. ولهذا يرى وليم آدم أنه من أكثر الأسلحة فاعلية لإضعاف المسلمين في مصر والشام ولتوجيه ضربة قاتلة إليهم هو محاولة عزلهم، ولا يتحقق ذلك إلا بإغلاق مضيق باب المندب عن طريق إنشاء أسطول قوي في المحيط الهندي تكون مهمته الحيلولة دون وصول متاجر الهند إلى عدن⁽³⁴⁾، وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ تلك الخطة، لذلك نراه يقدم بعض المقترحات التي استند عليها لتنفيذ هذه الفكرة، يرى أن الخطة ليست مستحيلة إذا تدخلت الكنيسة في روما وأمرت ببناء ثلاث أو أربع سفن في المحيط الهندي لمنع مرور السفن التجارية إلى عدن، ثم يحاول إقناع البابا بأن الجنوبية (يقصد مدينة جنوا) حاولوا تنفيذ هذا المشروع من قبل لأسباب تجارية، وبفضل مساعدة خان مغول فارس أرغون (1284-1291م) قام الجنوبية بإعداد سفينتين في بغداد وكانوا يودون تسيير هذه السفن في نهر الفرات ومنه تتوجه إلى المحيط الهندي عبر الخليج العربي من أجل حماية مضيق عدن، إلا أنه أوضح أن هذا المشروع لم يكتمل فقط بسبب بعض الخلافات بين الجنوبية أنفسهم⁽³⁵⁾. وقدم وليم حلاً للبابا وهو أن يتم بناء سفن في جزيرة هرمز في الخليج العربي، ولعله يقصد جزيرة قشم الحالية وكانت من ضمن أملاك مغول فارس في ذلك الوقت - أو في مدينة بومباي في الهند، أو في مدينة تانا Tannah⁽³⁶⁾ أو مدينة كولوم Colom وتسمى كولومبو حالياً وتقع في جزيرة سيلان، ويضيف أنه يجب أن يتم إعداد السفن في تلك

البلاد بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينة عدن الذين يتولون أمر الملاحة في البحر الأحمر، ويوضح أن هذا الأمر ممكناً لأن تجار عدن يتاجرون مع الهند ولكنهم ليس لديهم أي علاقة ببلاد فارس وجزر الأرخبيل الهندي لأنهم كما يذكر وليم على عداء دائم مع حكامها⁽³⁷⁾.

ويضيف وليم آدم أن بناء السفن في تلك المناطق سهل للغاية وذلك لتوفر أخشاب البناء بكثافة مثل أشجار التيك والصندل وغيرها⁽³⁸⁾. بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يدعو إلى الخوف من هجوم مباغت للمسلمين لأن تلك المناطق - حسب رأي وليم - لم تعد من المرافئ التجارية لبلادهم. ويضيف أن شعوب تلك المناطق تشجع على القيام بمشروع يستهدف القضاء على ازدهار تجارة التجار المسلمين لأنهم يكرهونهم ويحسدونهم على غناهم ويفضلون التعامل مع السفن النصرانية، ولهذا سيساعدون السفن الصليبية في مهمتها، كما أن خان مغول فارس يتطلع إلى تأسيس قوة بحرية على الخليج العربي، وبهذا يتمكن الصليبيون بالتعاون معه من تحقيق هدفهم وإغلاق مضيق باب المنذب في وجه سفن المسلمين⁽³⁹⁾.

أما تسليح تلك السفن فقد اقترح وليم على البابوية القيام بتلك المهمة، وتجهيز ألف ومائتي بحار في تلك السفن ورأى أن يكونوا من الجنوية باعتبارهم البحارة الوحيدة الذين في استطاعتهم إتمام هذه المهمة على أكمل وجه⁽⁴⁰⁾.

وهكذا، إذا تحققت كل تلك الأمور فلا يتبقى لتنفيذ الخطة سوى ميناء آمن، وقد ضمن وليم الحصول عليه بسهولة في المحيط الهندي الذي يضم كما يقول أكثر من عشرين ألف جزيرة معظمها مهجورة، وخصص وليم جزيرة هرمز (قشم الحالية) في الخليج العربي لتكون ميناءً لتلك السفن المسلحة، لأنها حسب رأيه تتميز بأفضل الشروط المناسبة لرسو تلك السفن. فهناك - على حد رأيه - يمكن للسفن أن تظل بها شتاءً دون خطر ويمكن إصلاح أعطالها أي القيام بصيانة تلك السفن وتخزين تلك البضائع التي يتم الاستيلاء عليها دون خوف من هجوم المسلمين بل على العكس فإن مغول فارس شجعوا هذا المشروع. ويرى وليم أنه من السهل وضع سفن في مواجهة المضيق لسد طريق التجارة إلى مصر⁽⁴¹⁾.

تلك هي خطة وليم آدم لسد طريق البحر الأحمر، ووضح من خطته أن أهم ما يشغل باله هو القضاء على تجارة المسلمين، وقد أدرك مسبقاً صعوبة تنفيذ تلك الخطة، لذلك نراه يحاول جاهداً إقناع البابا بخطته من خلال التسهيلات التي وضعها والتفاصيل الدقيقة التي ذكرها لتنفيذ هذه الخطة وكأنه يقول إن ذلك لا يعد مستحيلاً.

ولدينا داع صليبي آخر وضع خطة صليبية لاحتلال الأماكن المقدسة في بلاد الشام لا تقل خطورة عن خطة من سبقه، هو الداعي الصليبي مارينو سانودو Marino Sanudo، ولد مارينو سانودو في مدينة البندقية عام 1270م، والده ماركو سانودو Marco Sanudo من نبلاء البندقية، وهو ابن أخ الدوج إنريكو داندولو Enrico Dandolo الذي حرك الحملة الصليبية الرابعة عام 1202م، وحتى سقوط القسطنطينية في يد اللاتين عام 1204م⁽⁴²⁾.

اهتم مارينو سانودو منذ صغره بمتابعة أحوال الأراضي المقدسة، ولهذه الغاية عبر البحر المتوسط خمس مرات ليستطلع أحوال المسلمين، فزار عكا والإسكندرية ووصل إلى الحبشة جنوب مصر، كما زار قبرص وأرمينيا ورودوس، هذه الرحلات أكسبته خبرة واسعة في الشرق وشؤون البحر مما جعلته يجرؤ على الكتابة في الأمور البحرية لسعة إطلاعه بها⁽⁴³⁾. وقد استحوذت عليه فكرة القيام بحملة صليبية جديدة إلى الأراضي المقدسة بالشام فكتب رسالة حول أوضاع الأرض المقدسة *Conditiones Terrae Sanctae* وقدمها للبابا كليمنت الخامس Clement V سنة 1309م متأثراً بالأجواء السائدة في أوروبا والداعية للاستيلاء على الأراضي المقدسة بأي ثمن⁽⁴⁴⁾. وبعد عمل مضن استغرق حوالي الست عشرة سنة انتهى سانودو من إعداد كتابه سنة 1321م وقدمه للبابا حنا الثاني والعشرين، واختار له عنواناً هو «أسرار المؤمنين بالصليب لاسترجاع الأرض المقدسة والمحافظة عليها» *Secreta Fidelium Crucis* ونفهم من عرض سانودو لكتابه في مقدمته أنه قدم عدة نسخ من كتابه إلى كل من ملك فرنسا وإنجلترا وصقلية وملك أرمينيا وإلى امبراطور القسطنطينية وإلى الكرادلة وعدد من الأمراء وبارونات أوروبا، وأضاف إلى كتابه بعض الخرائط رسم فيها صورة الأرض المقدسة، ومصر ومدينة القدس، وعكا، وطاف مارينو سانودو بالعديد من الدول الأوربية للترويج لكتابه وحث البابا والملوك والأمراء على اتباع ما جاء فيه حتى يتم - على حد رأيه - الاستيلاء على الأرض المقدسة والاحتفاظ بها⁽⁴⁵⁾، إلى أن توفي عام 1343م في مدينته البندقية⁽⁴⁶⁾.

أما خطته الصليبية فقد قسمها من خلال كتابه إلى ثلاثة أجزاء رئيسية يعتبرها المراحل الطبيعية الثلاث للحملة الصليبية الناجحة، وأولها مرحلة إضعاف قوة المسلمين في مصر والشام الاقتصادية عن طريق فرض حصار بحري كامل حول سواحلهم، وعندما يتحقق ذلك تأتي المرحلة الثانية التي ستكون سهلة عندئذ وهي مرحلة إرسال الحملة الصليبية العامة لاحتلال مصر والشام والتي أطلق عليها اسم «العبور»، أما المرحلة الثالثة والأخيرة هي مرحلة الصمود في الأرض المحتلة، وكيفية الاحتفاظ بها⁽⁴⁷⁾. والواقع أن مارينو

سانودو في كتابه جعل لكل مرحلة من تلك المراحل كتاباً خاصاً بذاته وقسمه إلى عدة أجزاء تحتوي هذه الأجزاء على عدة فصول، عرض فيها مارينو بالتفصيل مشروعه الصليبي متضمناً وصفاً دقيقاً للأماكن المقدسة في الشام ووصفاً لمصر والحبشة وتاريخها، وطرق التجارة الدولية، الأمر الذي جعل كتابه مصدراً بالغ الأهمية في تاريخ وجغرافية الشرق في العصور الوسطى، وقد رأيت تلافياً للإسهاب والخروج عن الموضوع ذكر ما يخص البحر الأحمر في خطته الصليبية، وعدم إدراج المراحل الأخرى من خطته.

بالنسبة للمرحلة الأولى وهي مرحلة إضعاف قوة المسلمين الاقتصادية فقد أدرك سانودو أهمية موقع مصر الجغرافي المتفرد والذي يجب أن يكون الهدف الأول لتحطيم قوتها لأن مصر كانت دائماً مركزاً تجارياً مهماً يربط الشرق بالغرب، وبما أنها استمدت ثروتها من مرور التجارة عبر أراضيها لذلك كان إبعاد التجارة عن موانئها وشل تجارتها هو العامل الفاعل في كسر شوكتها وإضعاف مستواها الاقتصادي، كانت هذه هي خطة سانودو وهي خلق أزمة اقتصادية حادة في مصر تسبق الحملة العسكرية الصليبية، والأزمة لا تكون إلا بعزل مصر عزلاً تاماً عن الأسواق الأوروبية عن طريق منع التجار عنها منعاً باتاً خاصة تجارة الشرق الأقصى والتي تمر بأراضي السلطان عن طريق غلق ميناء عدن على البحر الأحمر والتي كانت تصل إلى البحر الأحمر وتنقل برّاً إلى الإسكندرية، عن طريق إرسال كتيبة عسكرية أوروبية إلى الحبشة النصرانية لتستطيع بمساعدتهم في غلق مضيق باب المندب في وجه السفن التجارية المتجهة إلى السواحل الإسلامية⁽⁴⁸⁾، وهي خطة خطيرة وجديدة لم ترد في خطط الدعاة الصليبيين حيث رأى إرسال كتيبة عسكرية مكونة من أفراد وليس سفناً، أما السفن فتعدها الحبشة لهم ليسهل دخول البحر الأحمر على الصليبيين لأن المسلمين يمنعون دخول السفن الصليبية فيه. وفي نفس الوقت تحويل طريق التجارة عبر آسيا إلى موانئ أرمينيا على البحر المتوسط، أو عن طريق المحيط الهندي ثم الخليج العربي ثم إلى بغداد عن طريق نهر الفرات ثم إلى ميناء إياس في أرمينيا على البحر المتوسط ومنه تنقل إلى أوروبا⁽⁴⁹⁾.

كان هذا ما يهم موضوعنا من خطة مارينو سانودو وهي حصار مصر اقتصادياً لأنه رأى أن البدء بحملة صليبية برية على مصر لا يعني سوى الانتحار، وتعلم مارينو هذا الدرس كما ذكر في كتابه من الحملات الصليبية السابقة وخاصة حملة الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر عام 1248 - 1250 م⁽⁵⁰⁾. قدم الداعي الصليبي جيلبرت دي لا نوي Ghillebert de Lannoy خطة صليبية إلى ملك إنجلترا هنري السادس (1422 - 1461 م)، وهي خطة تحتل مكانة مرموقة بين خطط دعاة الحروب الصليبية.

كان جيلبرت دي لانوي سيداً إقطاعياً لعدد من المقاطعات الصغيرة داخل برجنديا⁽⁵¹⁾، وكان رحالةً ودبلوماسياً، وأستاذاً لعلم الأخلاق. ولد عام 1386م لأسرة من النبلاء، وشارك منذ صغره في معارك كثيرة داخل أوروبا. وقام برحلة إلى الشرق للحج إلى الأراضي المقدسة عام 1401م، وزار فلسطين ودير القديسة كاترين في جبل سيناء، وزار القاهرة وقابل البطريك القبطي لكنيسة الإسكندرية، وزار من بين الدول الأخرى امبراطورية القسطنطينية ورودرس، وقبرص واستمرت الرحلة كلها لمدة عامين⁽⁵²⁾.

كانت مذكرة لانوي حول رحلته الأولى قصيرة جداً ولم تقدم مادة جديدة، لكن يبدو أن رحلته تلك قد تركت انطباعاً قوياً في خياله. وعندما سئلت له الفرصة لرحلة أخرى بأمر من دوق برجنديا وملك إنجلترا وملك فرنسا، شرع في رحلته الثانية وذلك تحت رعاية ونفقة سيده وراعيه دوق برجنديا فيليب لي بون (1419-Phillipe Le Bon 1467م)، حيث بدأ رحلته في عام 1421م⁽⁵³⁾. ونتائج رحلته الاستطلاعية متضمنة في كتابه الذي ألفه عن هذه الرحلة وهو كتاب « رحلة في مهمة » Voyages Et Ambassades ويمكن تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء:-

الجزء الأول، يتتبع سير الرحلة براً وبحراً إلى الأراضي المقدسة، حيث شرعت رحلته في 4 مايو عام 1421م، حيث عبر أوروبا إلى القسطنطينية، ثم أبحر إلى جزيرة رودس وكريت، ومنها إلى الإسكندرية ثم استأنف رحلته براً إلى رشيد ومنها عن طريق فرع النيل إلى القاهرة وقابل البطريك النصراني الذي قدم له معلومات كثيرة، ثم إلى الحبشة، ثم قفل راجعاً إلى دمياط، ثم سافر إلى الأماكن المقدسة بالشام، ثم رجع إلى أوروبا عن طريق البندقية، وفي كل الأماكن الإسلامية التي زارها كان يكتب تقريراً عنها ليقدمه لسيده للإسهام في نجاح الحملة الصليبية المرتقبة⁽⁵⁴⁾.

أما الجزء الثاني من كتابه فإنه مجرد إحصاء للأماكن المقدسة التي زارها في الشرق والقصص والأساطير التي نسجت حولها⁽⁵⁵⁾.

الجزء الثالث من كتابه وهو الأهم فإنه يتضمن - حسب قوله - منفعة للصليبيين وهو يحوي نتائج جولاته في البلاد الإسلامية، وما يهمني في هذا البحث هو تقريره وخطته الصليبية حول البحر الأحمر حيث ذكر جيلبرت دي لانوي، أن ملك الحبشة يعيش في منطقة أعالي النيل أي منطقة منبع النهر وأنه يريد تحويل مجرى نهر النيل عن مصر ولم يحجم عن تحويل مجرى النيل عن مصر إلا من أجل النصارى الكثيرين الذين يعيشون في مصر، ولكنه يريد من نصارى الغرب مساعدته حتى يتمكن من ذلك⁽⁵⁶⁾.

ثم يوضح جيلبرت دي لانوي أن سلطان مصر لا يسمح مطلقاً للنصارى بالوصول إلى الهند عن طريق البحر الأحمر خوفاً من تحالف هؤلاء النصارى الأوربيين مع ملك الحبشة وحثه على تحويل مجرى النهر أو إلى ارتكاب أي عمل يلحق الأذى بالمسلمين. ولهذا يرى جيلبرت دي لانوي مساعدة ملك الحبشة حتى يستطيع نصارى الغرب دخول البحر الأحمر بالتعاون معه وإغلاق مضيق عدن ومنع تجارة الشرق من الوصول إلى مصر⁽⁵⁷⁾.

هذه هي خطة الداعي الصليبي جيلبرت دي لانوي الذي يرى أهمية غلق البحر الأحمر، وتحويل مجرى نهر النيل عن مصر وبالتالي لا يستطيع المسلمون الحصول على متاجر الشرق مما يضعف اقتصادهم وبالتالي قوتهم، وهو في هذا التقرير يحث الغرب الأوربي استغلال الحبشة بما أنها تدين بالنصرانية ليتم التعاون فيما بينهم ويطبقون على المسلمين. وهي خطة خطيرة تنم عن خبرة لانوي بالشرق.

كانت تلك أهم مخططات دعاة الحروب الصليبية حول البحر الأحمر، والتي لم يغفل عنها الأوربيون بل سعوا جاهدين لتنفيذها وكانت بمثابة طريق اهتموا به وخريطة رسمت لهم مشوا على هديها لتحقيق أهدافهم ضد المسلمين. أدرك الأوربيون من خلالها أن غلق البحر الأحمر في وجه السفن التجارية القادمة من الشرق والاستيلاء عليه يستلزم أمرين، الأول: هو البحث عن طريق آخر غير طريق البحر الأحمر ترد منه تجارة الشرق الأقصى إلى أوروبا دون أن تمر بالبلاد التابعة للمسلمين⁽⁵⁸⁾، والثاني: هو التحالف مع إحدى القوى غير الإسلامية الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر من ناحية الجنوب لتساعد الصليبيين في قطع التجارة الواردة إلى المسلمين عن طريق ذلك البحر. أما عن الأمر الأول، فقد بدأت بالفعل المحاولات الأوربية بالبحث عن طريق آخر جديد يوصلها إلى بلاد الشرق الأقصى، وكانت مدينة جنوا الإيطالية أول من قامت بذلك، ونتج عنه كشف بعض أجزاء الساحل الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كناري، ما جعله مقدمة للجهود البرتغالية التي أدت فيما بعد لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح⁽⁵⁹⁾.

أما عن الأمر الثاني وهو التحالف مع إحدى القوى غير الإسلامية قرب البحر الأحمر من ناحية الجنوب لتساعد الصليبيين لقطع التجارة عن المسلمين، فقد وجد الصليبيون في دولة الحبشة النصرانية خير معين لهم⁽⁶⁰⁾، وتذكر لنا المصادر عن مراسلات جرت بين ملوك الحبشة وبين الأوربيين يضيق بنا المقام في تتبعها ولكن ما يهم البحث أن الغرب الأوربي والحبشة لم يستطع أحدهما الاستفادة من الآخر للأطباق على المسلمين قبل اكتشاف

رأس الرجاء الصالح، بسبب اكتشاف سلاطين الماليك لخطط التآمر ضدها بين الأوربيين والأحباش، لذا قاموا بتشديد الرقابة على طرق الاتصال بين أوربا والحبشة وعدم السماح للأوربيين سواء كانوا تجاراً أم رجال دين أم رسلاً بالمرور عبر أراضيها في طريقهم إليها. إلا أن ذلك التعاون فيما بينهما أتى ثماره بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح حيث وقفت الحبشة مع البرتغاليين في معاركهم الحربية ضد المسلمين في البحر الأحمر وكانت خير حليف لهم. كما أن ملوك الحبشة هددوا مصر أكثر من مرة بتحويل مجرى نهر النيل من بلادهم لضرب اقتصاد مصر⁽⁶¹⁾.

كما أدت الاتصالات بين الحبشة والأوربيين إلى زيادة معلومات الأوربيين عن المنطقة العربية الإفريقية جنوب البحر الأحمر، وما حصل عليه الجواسيس من أخبار وخرائط، ومعلومات جغرافية وبحرية أدى إلى نجاح خططهم في ضرب اقتصاد المسلمين⁽⁶²⁾. وقد استمرت الحملات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربي لإفريقيا حتى تمكن بارثولمييو دياز Bartholomew Diaz من الوصول إلى أقصى نقطة في هذا الساحل واكتشاف الطرف الجنوبي لإفريقيا الذي عرفه « برأس العواصف » والذي أطلق عليه ملك البرتغال يوحنا الثاني (Jean II 1495 - 1481م) « رأس الرجاء الصالح » تيمناً بالكشف الجديد وذلك عام 1478م⁽⁶³⁾. ومن ثم تابع بعده الرحالة فاسكو دا جاما Vasco da Gama الذي قام برحلته حول رأس الرجاء الصالح في سنة 1497م وممر بالساحل الشرقي لإفريقية ثم واصل طريقه إلى أن وصل إلى الهند، واستمرت رحلته حوالي ثلاث سنوات 1497 - 1499م عاد بعدها من الهند إلى مدينة لشبونة بالبرتغال، وقد قام أثناء رحلته تلك بمهاجمة إحدى السفن التجارية العربية القادمة من الهند متجهة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر، واستولى على ما بها من بضائع، ثم أمر بإغراقها بمن تحملهم من الركاب⁽⁶⁴⁾.

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي نجح الصليبيون في تنفيذ خططهم الصليبية وأتت خطط ومشاريع الدعاة الصليبيين ثمارها، وحقق البرتغاليون دوراً خطيراً من أدوار الحرب الصليبية ضد المسلمين، ألا وهو حرمانهم من مصدر ثرائهم وقوتهم، ثم انتقلوا إلى توجيه الضربات لهم في البحر الأحمر بمهاجمة السفن التجارية الهندية والعربية المتجهة إلى موانئ البحر الأحمر من ناحيتيه الشرقية والغربية.

بقي أن نقول، أن مخططات الأعداء ضد بلاد المسلمين لم تنتهِ إلى يومنا هذا، وعليه يجب على المسلمين إدراك ذلك، فمثل هذه المخططات للسيطرة على البحر الأحمر تواجه مثلها اليوم بصليبية أخرى هي الصليبية الصهيونية.

قائمة المختصرات : -

A.B.F.	Archive of Biographique Francaises
Bio-Ac.His.	Biographique Acaemic-History
B.E.C.	Bibliothque de L'ecole des charte
Cam.Med.Hist.	Cambridge Medieval History
R.H.C. Hist- Arm	Recueil des historiens des croisades, historiens armeniens

المصادر والمراجع :

- (1) Laurent,(M.), Beantes de L'histoire des Croisades et des orders religieux et militaires qui en sont nés, Limoges, 1859,P.245.
- (2) 2. هايد،(ف)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ج 2، ص 254 255-.
- (3) ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ت السيد الباز العريني، ط3، 1993م، ج 3، ص 722.
- (4) عن هذه المشاريع والخطط الصليبية انظر بالتفصيل: لطيفه خلف العنزي، مشاريع الدعاة الصليبيين ضد العالم الإسلامي في حوض البحر المتوسط من نهاية القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديين(1291-1499م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القصيم، 2004م
- (5) معجم الأماكن الجغرافية في البحر الأحمر، دار الملك عبد العزيز، المجلد الأول، ص 15-23.
- (6) كانت المحاولة الصليبية الخطيرة التي هدفوا من ورائها السيطرة على تجارة البحر الأحمر و إلى ضرب المدينتين المقدستين مكة والمدينة، بقيادة الأمير الصليبي الذي تسميه المصادر الإسلامية « أرناط » حيث تحرك من الكرك إلى ميناء أيلة واستولى عليه وحرقه باتجاه ميناء عيذاب الواقع على الساحل المصري فأحرقوا في البحر 16 مركباً، وفي عيذاب نفسها أخذوا مركباً آتياً بالحجاج من جدة، كما استولوا على قافلة برية قادمة إلى عيذاب من قوص، واستولوا على مركبين لتجار قادمين من اليمن، وقتلوا وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لمكة والمدينة. ثم انتقل متوجهاً إلى المدينة المنورة، علم صلاح الدين فأمر أخاه العادل بمصر بإعداد أسطول لرد الغزاة، وأعد العادل قائده حسام الدين لؤلؤ لهذه المهمة، وفي البحر قسم أسطوله إلى فرقتين فرقة حاصرت المحاصرين لقلعة أيلة في جزيرة فرعون واستولت على مراكب الصليبيين وقتلت أكثر رجالها، وفريق من الأسطول توجه إلى ميناء عيذاب، فاستطاع أن يطلق سراح الأسرى، ورد المسلوبات، وتوجه إلى الساحل الحجازي فوجد بعض

الصليبيين في ساحل الحوراء، وأدرك الباقيين في الطريق إلى المدينة وتم القبض عليهم وحملوا إلى القاهرة، واثنان من أعيانهم حملا إلى «منى» ونحرا هناك كما تنحر «البدن» هدايا للحجاج، وقد أمر صلاح الدين بقتل كل الأسرى ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الحرمين الشريفين. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص152-153، حوادث سنة 577هـ؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص-134 139؛ ابن جبير: الرحلة، ص34.

(7) الرهبنة الفرنسيسكانية: طائفة من الرهبان أسسها فرانسيس الأسيزي عام 1182-1226م، ولهذا سميت باسمه، ومن أهدافها أن تجعل النصرانية إنسانية، روحانية، قائمة على اعتناق الإنسان مبدأ المحبة، وممارستها تجاه البشر، وممارسة الفقر وعدم الاهتمام بالدنيا وملذاتها، وأوجدوا حركة التنصير في آسيا وإفريقيا. عنها انظر: Short: -Heer, Med. World, P.79-89; Short: -er camb. Med. Hist. Vol. II, P.669-671.

- (8) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P.2.
- (9) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P.24-25.
- (10) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P. 4-9. Delaville La Roulx, La France en Orient au XIV siècle, 1886, P.19.
- (11) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P. 5-6.
- (12) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P. 19.
- (13) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P. 9.
- (14) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P. 27.
- (15) Golubovich, (G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Franciscano, Florence, 1906-1927, Vol, II, P. 41-49.

- (16) Golubovich,(G.), Biblioteca bio – Bibliografica della terra Santaedell Oriente Francescano, Florence, 1906-1927,Vol,II,P. 56-58.
- (17) A.B.F.Villaret(Foulques De), Hoefer,J.C.F. Nouvelle Biographie Generale,Etc.46 Vols.1852,P.65.
- (18) A.B.F.Villaret(Foulques De), Dezobry,L.C.ET. Bachelet ,J.L.T. Dictionnaire Generale De Biographie,Etc.2 Vols.1869,P.62.
- (19) A.B.F.Villaret(Foulques De), Hoefer,J.C.F. Nouvelle Biographie Generale,Etc.46 Vols.P.60-16.

(20) بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام توجهت منظمة الاستبatarية إلى قبرص، وهناك أخذت تفكر في الاستيلاء على جزيرة رودس لجعلها مركزاً لشن الحملات الصليبية على المسلمين وقد فكر وليم عم فولك بهذا إلا أنه توفي قبل تنفيذ مخططه، وعندما خلفه فولك في رئاسة الطائفة سعى جاهداً لتحقيق ذلك. والواقع أن فيلاريه جعل همه الأكبر في لقاءه مع البابا محاولة إقناعه وملك فرنسا بتقديم المساعدة له في الاستيلاء على رودس، مبيناً لهم فائدة المشروع وأن الجزيرة ستكون نقطة انطلاق الصليبيين للهجوم على المسلمين، دعا البابا عام 1308م إلى حملة صليبية تحت قيادة فولك دي فيلاريه، وبعيداً عن تفاصيل الحملة التي لم تتم بسبب مشاكل تمويلها، إلا أن فولك دي فيلاريه أصر بالقلعة التي معه الاستيلاء على جزيرة رودس، وفعلاً استولى عليها عام 1310م، وأصبحت منذ ذلك الوقت معقلاً لمناوئة المسلمين وأسهمت في الغارات المتكررة على السواحل الإسلامية في مصر والشام. انظر بالتفصيل: A.B.F.Villaret(Foulques De), Hoefer,J.C.F. Nouvelle Biographie Generale,Etc.13 Vols.P.24; Delaville Le Roulx-.,(J.),Les Hospitaliers En Terre Sainte Et Achypre 1100-1310,P. 280

(21) البابا كليمنت الخامس: اسمه برتراند Bertrand ولد في عام 1260م، في فرنسا من عائلة جاسكونية نبيلة ذات نفوذ، ودرس القانون الكنسي، ثم التحق بالسلك الكنسي وتدرج فيه، اشتهر بالذكاء إلا أنه كان متردداً وضعيفاً ولهذا وقع تحت سيطرة الملك الفرنسي فيليب الرابع، تم انتخاب كليمنت لمنصب البابوية في ليون بفرنسا في 15 نوفمبر عام 1305م، بعد تدخل الملك الفرنسي في انتخاب البابوات وإصراره عدم مغادرة البابا إلى روما وجعل إقامته في أفنيون في فرنسا، ولهذا يعتبر البابا كليمنت الخامس

- أول بابوات أفنيون والتي تسمى في التاريخ فترة الأسر البابلي. انظر: Kel-ly,(J.N.D.),The Oxford Dictionary of Popes, Oxford,1996,P.212-214
- (22) Delaville Le Roulx,(J.),Les Hospitaliers En Terre Sainte Et Achypre 1100-1310,Paris, 1904,P.55.
- (23) Atiya,(A.S.),The Crusade in the later Middle ag- عن ذلك أنظر: es,London,1938,P.57;Kedar&Schein,Un project de passage particulier propose par L'order de Hospital,1306-1307,Bec 137(1979),P.211-225.
- (24) Petit,(J.),Memoire De Foul- عن فولك دي فيلارية ومشروعه انظر : ques DeVillaret sur La Croisade,(Dans.B.E.C.IX,In1899),P.602-610
- (25) Housley,(N.),Documents on the later crusades 1274-1580,London,P.41-42.
- (26) A.B.F. Guillaume Adam, L'academie des sciences d'outre-mer. Hammes et destins,7 Vols.,1975-1986,P.73.
- (27) جماعة الدومنيكان: أسس هذه الطائفة من الرهبان سنة 1215م دومينيكو دي غومسان (1170-1221م) المعروف بالقديس دومنيك، ومنه اشتق اسم الطائفة، وهو راهب أسباني من مدينة قشتالة. وقد ظهرت هذه الجماعة من أجل الوعظ والإرشاد بين الناس، ومكافحة تيار الهرطقة الذي ظهر في الكنيسة وخارجها في أواخر القرن 12 م و القرن 13م، ولهذا اهتم الدومنيكان بالتعليم والدراسات اللاهوتية اهتماماً كبيراً، واعتنوا بتدريب أبنائهم على الجدل والخطابة للرد على الهرطقة ومجادلتهم. فلما ظهرت الجامعات في أوروبا كان الدومنيكان مؤهلين أكثر من غيرهم للتعليم فيها. وعلى هذا كان معظم الأساتذة الجامعيين منهم، كما كانت جامعة الدومنيكان تتمتع بصلات مع المشرق ولهذا نرى وليم آدم أتجه إلى هناك، وهي جماعة دينية لها صبغة دولية وتعتمد كلياً على كنيسة روما. أما شعارهم فهو ممارسة حياة الفقر الشديد والاقتصار على ملابس الصوف، وغير ذلك من ألوان التقشف الشديد والمعيشة الصارمة. عنها انظر: Baldwin,(M.W.), The medieval church, Newyork,1960, P.60-61
- (28) Kohler,(C.H.), Guillelmus Adae,R.H.C. Hist. arm.Vol.II,P.542.
- (29) A.B.F. Guillaume Adam, L'academie des sciences d'outre-mer.

- Hammes et destins,7 Vols.,1975-1986,P.73; R.H.C.Hist. arm.,P.550.
- (30) A.B.F. Guillaume Adam, L'academie des sciences d'outre-mer. Hammes et destins,7 Vols.,1975-1986,P.73; R.H.C.Hist. arm.,P.550.
- (31) R.H.C.,Hst. Arm. Guillaume Adam,P.525.
- (32) البابا حنا الثاني والعشرون، اسمه Jacques Duese، ولد عام 1244م، وينحدر من أسرة برجوازية غنية، درس القانون وأصبح أسقفاً عام 1300م، ثم مستشاراً لملك صقلية شارل الثاني، وعين أسقفاً لأفنيون عام 1310م، ثم كاردينالاً لكنيسة القديس فيتال، وتم انتخابه باباً لأفنيون عام 1316م، ليكون ثاني بابوات أفنيون، ومن أهم أعماله اهتمامه بإرسال البعثات التنصيرية إلى قارة آسيا. انظر: Kelly,(J.N.D.),The Oxford Dictionary of Popes, Oxford,1996,P.214-216
- (33) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.523.
- (34) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.553.
- (35) 35. Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.551.
- (36) 36. تقع على ساحل المحيط الهندي في شمال بلاد الهند حالياً.
- (37) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.554.
- (38) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.550-552.
- (39) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.554.
- (40) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.553.
- (41) Guillaume Adam, Demode Saracenos Extirpandi,In R.H.C.Arm., Vol.II, P.553.
- (42) Delaville La Roulx, La France en Orient au XIV siècle,1886, P.32.
- (43) مارينو سانودو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة الأب سليم رزق الله، دار الريحاني، لبنان،

- ط 1، 1991م، ص 17. Delaville La Roulx, La France en Orient au XIV siècle, 1886, P.32-33.
- (44) مارينو سانودو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ص 45.
- (45) Atiya,(A.S.),The Crusade in the later Middle ages,London,1938,P.119-120.
- (46) Atiya,(A.S.),The Crusade in the later Middle ages,London,1938,P.126.
- (47) Atiya,(A.S.),The Crusade in the later Middle ages,London,1938,P.119-120.
- (48) Delaville La Roulx, La France en Orient au XIV siècle,1886, P.38.
- (49) 49. Delaville La Roulx, La France en Orient au XIV siècle,1886, P.35-36.
- (50) مارينو سانودو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ص 142.
- (51) برجنديا : هي إحدى الإمارات الإقطاعية المهمة التابعة للتاج الفرنسي، تقع في الجنوب الشرقي لفرنسا وكانت محتفظة بكيانها الذاتي، دون أن تخضع بشكل تام للسيطرة الملكية الفرنسية. عنها أنظر: Camb. Med. .H.hist. , Vol.VII,P.431-456
- (52) Ceuvres de Gillebert de Lannoy, Voyageur Diplomate et moraliste, Ed. By ch. Potvin with notes and maps by J.C. Houzeau, Louvain-,1878,P.10-11.
- (53) Ceuvres de Gillebert de Lannoy, Voyageur Diplomate et moraliste, Ed. By ch. Potvin with notes and maps by J.C. Houzeau, Louvain-,1878,P.51.
- (54) Ceuvres de Gillebert de Lannoy, Voyageur Diplomate et moraliste, Ed. By ch. Potvin with notes and maps by J.C. Houzeau, Louvain-,1878,P.65.
- (55) Ceuvres de Gillebert de Lannoy, Voyageur Diplomate et moraliste, Ed. By ch. Potvin with notes and maps by J.C. Houzeau, Louvain-,1878,P.73-97.

- (56) *Ceuvres de Ghillebert de Lannoy, Voyageur Diplomate et moraliste*, Ed. By ch. Potvin with notes and maps by J.C. Houzeau, Louvain-, 1878, P.121-130.
- (57) *Ceuvres de Ghillebert de Lannoy, Voyageur Diplomate et moraliste*, Ed. By ch. Potvin with notes and maps by J.C. Houzeau, Louvain-, 1878, P.121-130.
- (58) تناول دعاة الحروب الصليبية في خططهم عدة طرق لنقل منتجات الشرق الأقصى إلى أوروبا دون المرور بأراضي المسلمين وكان من بينها طريق وسط آسيا مروراً ببلاد فارس حتى يصل إلى نهر الفرات ومنه إلى ميناء إياس الأرمني على البحر المتوسط، وقد أدرك المماليك خطورة ذلك على اقتصاد دولتهم، فبدأوا بشن حرب لا هوادة فيها ضد مملكة أرمينيا ومينائها إياس حتى استطاعوا في عام 776هـ / 1375م القضاء تماماً على مملكة أرمينيا الصغرى وأعادوا أرضها ومينائها المشهور إلى المسلمين. عن ميناء إياس انظر: عبد الله سعيد الغامدي، سياسة سلاطين دولة المماليك إزاء ميناء إياس الأرمني، بحث نشر في مجلة جامعة أم القرى، سنة 1420هـ.
- (59) هايد، (ف)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ج 2، ص 383-384. Serjeant, (R.B.), *The Portuguese off the south Arabian*, Oxford, 1963, P.2.
- (60) انظر: المقرئزي، تقي الدين (766-845هـ)، رسائل المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، دار الحديث، القاهرة، 1998م، ص 231-244.
- (61) عن العلاقات بين مصر والحبشة انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، 1977م، ص 279 - 321.
- (62) Newton, (A.P.), *Travel and travelers of the Middle Ages*, London, 1949, P.202-216.
- (63) Stephens, (H.M.), *Portugal*, London, 1891, P.150-156.
- (64) Stephens, (H.M.), *Portugal*, London, 1891, P. 156.

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز بعض المعالم التاريخية للحضارة الأكسومية القديمة ذات الجذور الإفريقية الضاربة في أعماق التاريخ وذلك من خلال الآثار والنقوش والكتابات القديمة التي تم العثور عليها. واستخدمت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي الوصفي من أجل الوصول إلى نتائج. وتوصلت الدراسة إلى عددٍ من النتائج أهمها أن مملكة أكسوم كان لها نظام سياسي وإداري متميز مما أكسبها القوة والمنعة بين الحضارات القديمة المعاصرة _ وكذلك كان لمملكة أكسوم نشاطاً تجارياً بحرياً منفتحاً على العالم في البحر الأحمر والبحر المتوسط، كما أوصت الدراسة الباحثين والمهتمين بأمر الحضارات القديمة بتخصيص دراسات مستقلة عن النظام الاقتصادي أو السياسي لمملكة أكسوم الإثيوبية.

الكلمات المفتاحية :

أكسوم، آثار، إثيوبيا، عيزانا، تجارة .

Abstract

This study aims to highlight some of the historical features of the ancient Aksumite civilization with African roots deep in history, through the antiquities, inscriptions and ancient writings that were found. The study used the descriptive analytical historical method in order to reach the results. The study reached a number of results, the most important of which is that the Kingdom of Aksum had a distinct political and administrative system, which gave it strength and invincibility among the ancient contemporary civilizations. Independent studies of the economic or political system of the Ethiopian kingdom of Aksum.

key words :

Axum, Antiquities, Ethiopia, Aizana, Trade.

المقدمة :

ظهرت حضارة أكسوم في القرن الأول الميلادي وإن كانت جذورها ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وتوجد عناصرها في الخمسة قرون الأولى السابقة للميلاد، ويسعى علم الآثار إلى تعريف خصائصها المميزة ولكنه لم يتم حتى الآن سوى التحقق من بعض الجوانب القليلة لهذه المملكة، كما أن تصنيف وترتيب المعلومات أبعد ما يكون عن الاكتمال - إذ إن حضارة أكسوم كما هو الحال بالنسبة لجميع الحضارات الأخرى ما هي إلا نتاج لعملية نمو وتطور حدث للإنسان، ساعدتها الأحوال الجغرافية والظروف التاريخية في ذلك، ولا شك أن الإسهام المحلي كان عظيم القدر، إذ إن الحضارة الأكسومية قبل كل شيء ما هي إلا حصيلة جهود لا زالت هويتها العرقية حتى الآن تُكتشف رويداً رويداً من خلال دراسة النقوش واللغة والعادات والتقاليد، ولا زال علم الآثار يزيح النقاب قليلاً عن الطابع الفريد لانجازات أكسوم المادية ولا زال الكثير يتطلب البحث، ولكن ليست هنالك سمة شك في أننا نعلم مسبقاً أن حضارة أكسوم تدين بميزاتها الخاصة لأصولها الإفريقية وبالأخص الحضارة الإثيوبية، لذلك جاءت هذه الدراسة كمحاولة منا لإبراز بعض المعالم عنها باعتبارها من أهم الحضارات الإفريقية القديمة وأغرقها أصالة وعمقاً في جذور التاريخ الإفريقي.

أهمية البحث:

تتمثل في إبراز بعض المعالم التاريخية لحضارة إفريقية قديمة وأصيلة ذات جذور ضاربة في أعماق التاريخ قامت نتيجة لجهود بشري جبار خلد أسس وأنظمة وتراث مجيد يؤكد على أصالة الشعوب الإفريقية وعراقتها بين الأمم القديمة.

أهداف البحث:

1. التعريف بمملكة أكسوم التاريخية.
2. إبراز بعض المعالم الأثرية والتاريخية لمملكة أكسوم.
3. تناول بعض من الجوانب الاقتصادية والسياسية لمملكة أكسوم.
4. شرح كيفية دخول المسيحية لمملكة أكسوم.

مشكلة البحث:

عدم وجود دراسات كثيرة متخصصة في هذا الموضوع - لذلك جاءت الدراسة لتكون إضافة لإثراء المكتبة العربية والإفريقية بمثل هذه الأبحاث لمالك غابرة في التاريخ تستحق الدراسة.

منهجية البحث:

استخدم الباحث منهج البحث التاريخي التحليلي الوصفي من أجل الوصول إلى نتائج وذلك من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التاريخية. مملكة أكسوم

أولاً: فترة ما قبل أكسوم:

نجد أن المناطق الشمالية من إثيوبيا في فترة ما قبل التاريخ حوالي (القرن الخامس قبل الميلاد) لا تبدو مأهولة بالسكان في عصر مبكر من التاريخ ولم يُعرف عنها الكثير، إلا أن المجموعات البشرية تطورت تطوراً مماثلاً لما جرى في بقية القرن الإفريقي - إذ تتشابه الآلات الحجرية التي وجدت في العشرة آلاف سنة الأخيرة قبل الميلاد متمثلة في الأدوات المصنوعة التي ترجع إلى العصر الحجري القديم المتأخر لجنوب إفريقيا، وفي هذه الفترة يبدو أن أقوام من الرعاة عاشوا في هذه المنطقة وقاموا بعمل رسومات لأبقارهم ذات القرون الطويلة ووجدت هذه الرسومات على الصخور الشاهقة الممتدة من شمال إرتريا إلى أرض الحيري⁽¹⁾

بينما يمكن إرجاع تأسيس مدينة أكسوم إلى القرن الثامن قبل الميلاد استناداً إلى أقوال العالم الجغرافي (كلوديوس بطليموس) وبغض النظر عن الحكايات الأسطورية التي كانت تُحكى لا بد من البحث عن المعلومات في سلسلة من الكشوف الأثرية التي أجريت منذ بداية القرن العشرين وهذه المعلومات يمكن أن تساعدنا في بناء تاريخ ما قبل مملكة أكسوم⁽²⁾

ثانياً: حضارة أكسوم من (القرن الأول الميلادي إلى القرن السابع الميلادي):

تقول المصادر الأولية أن تاريخ مملكة أكسوم يمتد من القرن الأول بعد الميلاد إلى فترة تمتد إلى الألف عام وهو يشتمل على حملتين عسكريتين إلى داخل جنوب الجزيرة العربية في القرن الثالث والرابع (حملة مروية) وخلال النصف الأول من ذلك القرن شهدت مملكة أكسوم دخول المسيحية إليها، وتعتمد معرفتنا للحضارة الأكسومية على مصادر متعددة من كتاب الأزمنة القديمة مثل (بلين) الذي يتحدث عن (أودليس عدولي) وإلى المؤرخين العرب كابن هشام وابن حوقل، إلا أن تلك النصوص غامضة في مجملها ويأتي القدر الأكبر من الأدلة في النقوش المحلية والاكتشافات الأثرية المتزايدة، ومن أهم تلك النقوش نقوش الملك (عيزانا) المنحوتة على الصخور ونقوش أخرى للملك (كالب) وواحد من أبنائه يدعى (وازيبا) باللغة الإغريقية، بالإضافة إلى الكثير من الأدلة المماثلة التي جُمعت خلال العشرين سنة الأخرى، والتي تشتمل على نقوش مدونة على جدران الكهوف تم العثور عليها في إرتريا وهذه الكتابات هي أقدم ما عُثر عليه للعهد الأكسومي ولا ريب في أن الملاحظات الأثرية والحفريات هي المصادر الرئيسية الأولى للحضارة الأكسومية والتي يُمكن أن نوجز معالمها في الآتي⁽³⁾:

الموقع:

يُحدد علم الآثار مملكة أكسوم بأنها عبارة عن مستطيل طويل يبلغ حوالي 300 كم وعرضه حوالي 160 كم، وبين خطى عرض 13 و 17 درجة شمالاً وخطى طول 30 و 40 درجة شرقاً وهي تمتد من الإقليم الذي يقع إلى الشمال من كرن وألاقي في الجنوب ومن أودليس على الساحل إلى مشارف نكازي في الغرب.

كانت مدينة أكسوم هي المملكة التي تحمل نفس الاسم تتمتعان بصيت ذائع في القرن الثالث الميلادي طبقاً لنص من تلك الفترة يُعزى إلى (ماني) الذي يصف تلك المملكة بأنها الثالثة في العالم، كما أن المباني الضخمة وبعض الدلائل المادية الأخرى في المدينة نفسها لا زالت تحتفظ بذكرى عهد تاريخي مجيد وتمثل ذلك في حجر طويل منحوت معروف حتى الآن، وهو عبارة عن مائدة حجرية ضخمة مبنية بقواعد من العروش الكبيرة وقطع من الأعمدة وجدت فيها المدافن الملكية ومُخلفات كثيرة عُثر عليها تحت أثر (بازليقا) منذ القرن الثامن عشر الميلادي بالإضافة إلى الأساطير والمأثورات⁽⁴⁾ وفي بداية القرن العشرين أجرت بعثة ألمانية رسوماً وصوراً فوتوغرافية لكل الآثار المعروفة، ففي الجزء الغربي من المدينة اكتشفوا ثلاثة مُجمعات معمارية عرّفوها (بكيف با قصر) وتمكنت بعض أعمال الحفريات الأثرية اللاحقة خاصة تلك التي أجراها (معهد الآثار الإثيوبي) أن تكتشف المزيد من المباني مُضيفة بذلك ثروة من المعلومات عن المدينة الملكية الأكسومية القديمة⁽⁵⁾ وفي غرب المدينة اكتشفت بعثة المعهد الإثيوبي للآثار في العام (1968م) مُجمعاً معمارياً آخر لآثار وجدت بالقرب من (دنقور) إلى الشمال من طريق غندار وهي عبارة عن مُخلفات قلعة ترجع إلى حوالي القرن السابع الميلادي ووفقاً للروايات المحلية فإن مقبرة ملكة سبأ (بلقيس) تربض تحت هذا التل المكون من التراب والأحجار، وتغطي مُخلفات القلعة المدفونة مساحة تبلغ حوالي ثلاثة آلاف متر مربع وتكون الجدران شكلاً رباعياً غير منتظم يبلغ طول أحد جوانبه 57 متراً ويقل طول الجانب الآخر عنه بمقدار نصف متر، ولا زالت الجدران في وسط الأبنية المتهدمة تقف على طول خمسة أمتار وهنالك أربع مجموعات غير منتظمة في شكل مصفوفة تضم أربعين حجرة تُشكل صحناً مربعاً حول الجزء الرئيسي من القلعة ويقف الجزء الرئيسي من القلاع على قاعدة متعددة الطوابق ارتفاعها (1080) متراً يتكون من سبع حجرات يمكن الصعود إليها عن طريق ثلاثة أدراج (سلالم خارجية) وتفصل هذا المبنى عن المباني الخارجية الثانوية ثلاثة صحنون أخرى تتمثل

في جدران على أجزاء بارزة وأخرى غائرة، وعثر أيضاً على دعامات أكتاف صلبة وقوية في مجموعات ثنائية ورباعية مدفونة في عدة حجرات من المبنى الرئيسي وفي المساكن الإضافية الملحقة به - كما تم اكتشاف ثلاثة أفران من الطوب المحروق في الجانب الغربي من ذلك الموقع وفي إحدى حجرات المباني الإضافية الواقعة إلى الجنوب عُثر على مبنى من الطوب وعليه آثار احتراق ويبدو أنه كان يستخدم للتسخين أو الإحماء⁽⁶⁾ وهنالك بعض القبور الأخرى إلى شرق المدينة عند موقع بازن (Basen) تشبه الأفران على الصخور المنحوتة وبعض هذه المقابر لها أعمدة وأقبية في الأسفل على كل جانب وتحتوي أيضاً على مقبرة مزدوجة بسلم ذي سبع عشرة درجة منحوت من الصخر، وكانت المدينة القديمة تغطي المساحة الواقعة ما بين المسلة الضخمة وموقع (دنقور) وتوجد بعض المعالم الأثرية الأخرى متناحرة تحت السطح مثل:

موقع أودليس:

توجد بعض المخلفات فوق سطح هذا الموقع وهو ليس على الساحل، بل على بُعد أربعة كيلومترات إلى الداخل وتغطي الصخور والرمال والأشجار جزءاً كبيراً من مخلفاته، وما يمكن استخلاصه من الدلائل الموجودة فوق هذا السطح هو أنها تقع على مستطيل طوله 500 متر وعرضه 400 متر على وجه التقريب، وفي بعض الأماكن هنالك من الانقراض ما يدل على المواقع التي كانت تباشر فيها بعض البعثات الأثرية عملها، وإلى الشمال والشرق توجد بعض أجزاء الأعمدة المبعثرة وكميات كبيرة من القواقع وفي عام 1968م نقبت حملة عسكرية بريطانية نزلت بالقرب من ذلك المكان في أطلال هذه المباني ولكن ما تحصل عليه من نتائج لا تختلف كثيراً عن النتائج السابقة⁽⁷⁾

موقع مطرا :

يقع على الهضبة الإرترية وعلى بُعد 135 كيلو متراً مربعاً جنوب أسمرأ ويُعتبر من أقدم المواقع الأثرية في إثيوبيا وتنتمي أجزاؤه السفلى إلى بناء كبير تظهر عليه معالم العصر العربي الجنوبي - وقد قام معهد الآثار الإثيوبي بإجراء حفريات منظمة في موقع مطرا بين عامي (1959-1970م) وقد كشف ما يقرب من نفس الطبقة الأكسومية بعد أن تم اكتشاف وجود أربع (فيللات) كبيرة وثلاثة كنائس مسيحية وحي سكني يضم ثلاثين بيتاً على وجه التقريب والفيللات الأربع من النوع المألوف والتي تتكون من مسكن رئيسي مبني فوق قاعدة تحتية مدرجة ومحاطة بمرافق إضافية كما في المواقع الأخرى، وتوجد أكتاف حجرية مدفونة تحت حجرات المبنى الرئيسي كانت تستخدم كأساسات للأعمدة التي تستند عليها الدهاليز ولا بد أن الأدرج

الرئيسية التي تقود إلى المداخل الرئيسية كانت محمية بسقوف إذ إنه توجد مجموعة من الأدراج ربما كانت تحمل أعمدة خشبية⁽⁸⁾
موقع كوهايتو:

يقع شمال مطرا على ارتفاع 2600 متر توجد فيه العديد من الأطلال ذات الأهمية المعمارية وهنالك عشرة تلال منتشرة في مساحة كبيرة تحتوي على بقايا مبان تنتمي إلى نهاية العهد الأكسومي، وهي في أغلب الظن أجزاء متناثرة من أبنية قديمة _ ويتجه الرأي إلى أن معظم تلك المباني تنتمي إلى كنائس تضاهاي في حجمها تلك التي اكتشفت في مطرا وكل الرسومات التي وجدت على الجدران لها سمات المعمار الأكسومي، وإلى الشرق منها يوجد قبر عمودي منحوت على الصخر يتكون من حجرتين للدفن ويزين أحد طرقي القبر صليب منحوت على الطراز الأكسومي وهنالك أخدود بالقرب من الموقع وجدت فيه أحجار ذات رسوم ملونة منحوتة على أشكال تعبر عن ثيران وجمال وبعض الحيوانات الأخرى⁽⁹⁾

ثالثاً: المدن والأسواق في مملكة أكسوم:

علينا أن نشير هنا إلى أن غالبية المساكن والمباني التي يمكن مشاهدتها فوق سطح الأرض أو التي كشفت عنها الحفريات الأثرية أنها تنتمي إلى العهد الأكسومي المتأخر، غير أنه توجد بعض أنقاض مبان تنتمي إلى فترة سابقة بنيت فوقها مباني الفترة اللاحقة، ولم يكن من غير الميسور تحديد عمر تلك المباني على نحو دقيق _ وهذا يدل على أن الفترة التي تنتمي إليها هذه الآثار لم يكن الوضع فيها مختلفاً كثيراً ويقول مؤلف (دليل الملاحه) في القرن الأول كولوي (Koloe)) إنها بلدة تقع إلى الداخل تمثل المركز الرئيسي لإنتاج العاج، ويصفها أودليس بأنها سوق تجلب العاج من مدينة أولئك الناس الذين يُطلق عليهم (الأكسوميين)، حيث إنه يتم جمع العاج ويجب اعتبار المراكز والمدن الحضرية الأخرى كأسواق وأماكن للتجارة مثل: (أراتو، توكندا، إتش ماري، ديقونم، هجرو، إلخ) وليس من المؤكد أن البيع والشراء كانا يتمان داخل المدينة نفسها ولعل الاحتمال الأكبر هو أن الأعمال التجارية كانت تتم في أطراف المدينة، إذ نعلم أن تلك المدن القديمة لم يكن حولها أسوار ولكننا لا نملك حتى الآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا الرأي⁽¹⁰⁾

رابعاً: المعمار الأكسومي :

المميزات الرئيسية للمعمار الأكسومي هي استخدام الحجارة والتخطيط المربع أو المستطيل وتعاقب الأجزاء البارزة والأجزاء الغائرة بانتظام والقواعد السلفية المدرجة التي تقام من فوقها المباني الضخمة، وأسلوب البناء لا يُستخدم فيه أي بلاط غير الطين، وما يلفت النظر حقاً هو أننا نجد هذه السمات في كل مكان تقريباً وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه القواعد المعمارية

مطبقة في جميع المباني سواءاً أن كانت دينية أم غير دينية وهي تقف جميعها فوق قاعدة مدرجة ذات شكل واحد ويمكن الصعود إليها بواسطة سلالم ضخمة تتكون عادة من سبع مدرجات تحيط بها مرافق إضافية تفصلها عنها أقبية صغيرة _ ونكاد نجزم أن القصور والفيلات كانت تشتمل على طابق فوق الطابق الأرضي على الأقل، ويستخدم الأكسوميون الأخشاب والبناء في أطر الأبواب والنوافذ وفي أمكنه معينة في الحائط، خاصة في أركان الغرف وكانت تلج بعض المفصلات في البناء لتقويته، وكانت الروافد التي تستند عليها أرضيات الغرف في الطوابق العليا أو السقوف التي يرجح أنها كانت مسطحة وكلها من الخشب الخشن تعطي المسلات التي نرى فيها أطراف الروافد البارزة فكرة واضحة عن الممارسات المعمارية في ذلك العهد⁽¹¹⁾

خامساً: الفخار في مملكة أكسوم:

استخدمت مملكة أكسوم الأواني الفخارية التي كانت تستعمل غالباً في الأغراض المنزلية وهي مصنوعة من الطين النضج الأسود أو الأحمر وهنالك العديد من الأواني التي يُصقل السطح الخارجي لها بطلاء طافي غير لامع، وفي أحيان كثيرة يتم صقله بالحجر، وبعضها الآخر نجده مطلياً بمادة حمراء وليست هنالك ما يدل على استخدام العجلة (الدولاب) في صناعة الفخار، وتختلف أحجام تلك الأواني الفخارية من نوع إلى آخر من الأكواب الصغيرة والدنان التي يبلغ ارتفاعها ثمانين سنتيمتراً، وقد تكون الجرار والقصاص والأباريق والمقالي والأحواض والأكواب خالية من الزخارف في بعض الأحيان، وعندما تُزخرف فإن الزخرف غالباً ما يتكون من رسوم هندسية سواء أن كانت محفورة أو مطلية أو مصبوبة أو مختومة، وهي في الغالب الأعم تتكون من زخارف في شكل جبال متدلّية أو خطوط متعرجة أو أقراص مضمومة أو مربعات أو خطوط حلزونية أو أشرطة قصيرة وما إلى الآخر، ومن النادر أن تستوحي الرسوم من الطبيعة، فهنالك بعض الأشكال لسنا بل القمح والطيور والثعابين ولبعض الزخارف معان رمزية واضحة كما في أشكال الأذرع المقولية المضافة إلى حواف الأحواض، ويظهر الصليب المسيحي مرات ومرات على جوانب وحواف وقيعان الأوعية الفخارية⁽¹²⁾

سادساً: المسكوكات في مملكة أكسوم:

للعلة الأكسومية أهمية خاصة إذ إنه من خلالها وحدها يمكن التعرف على أسماء ثمانية عشر ملكاً من ملوك أكسوم، حيث تم العثور على بضعة آلاف من هذه النقود، فالحقول التي تحيط بأكسوم تكشف أثناء حراثتها عن العديد منها لا سيما خلال فصل الأمطار حين تجرف المياه التربة، وأغلب تلك القطع مصنوعة من البرونز ويتراوح حجمها من ثمانية إلى اثنين وعشرين ملم ومرسوم عليها صور ملوك كما تحمل العملة رسوماً شتى، فالعملة التي

تنتمي إلى الملوك الأوائل أنديس Endybis وأفيلاس Aphilas وأوسانس الأول Ousanas وأزيبا (وعيزانا) تحمل قرصاً أو هلالاً وكل النقود التي ضربت بعد اعتناق عيزانا المسيحية تحمل علامة الصليب في الوسط أو الجانب والشعارات مكتوبة باللغة الإغريقية أو الإثيوبية ولا تكتب باللغة الجنوبية العربية، وتختلف صيغة الشعار من وقت لآخر مثل (الصحة والسعادة للشعب) (السلام للشعب) (سوف ينتصر الملك بإذن المسيح) وهكذا يكتب اسم الملك مصحوباً بلقب ملك الأكسوميين أو ملك أكسوم ولكن من الملاحظ لا تحمل النقود تاريخاً مما يفسح المجال لكثير من الحدس والتخمين فيما يتعلق بتصنيفها⁽¹³⁾

سابعا: الكتابة واللغة في مملكة أكسوم:

كانت أول الحروف الأبجدية التي استعملت بإثيوبيا والتي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد من أصل جنوبي عربي، وهي لغة تشبه اللهجات السامية بجنوب الجزيرة العربية، وترجع النماذج الأولى للخط الإثيوبي الذي تصح تسميته بهذا الاسم إلى القرن الأول الميلادي وتتألف الأبجدية من حروف ساكنة جامدة تشبه شكل اللغة العربية الجنوبية، لكنها أخذت تطور أشكالها الخاصة رويداً رويداً، فأصبحت اللغة تكتب من اليسار إلى اليمين بعد أن كانت تكتب في اتجاهات متغيرة، وكانت تلك النقوش الأولى تُحفر على ألواح من حجر الشست وهي تتضمن عدداً قليلاً من الكلمات اكتشف أقدمها في (مطرا) بإرتريا، كما عُثر على نقش مدون على جسم معدني يرجع إلى القرن الثالث الميلادي يتحدث عن الملك (قادارا) وهو أول نقش باللغة الإثيوبية معروف لدينا ورد فيه ذكر أكسوم، وترجع نقوش الملك العظيم (عيزانا) إلى القرن الرابع الميلادي، والتي ظهرت فيها المقاطع الهجائية لأول مرة والتي أصبحت بعد ذلك بقليل القاعدة المتبعة في الكتابة الإثيوبية ثم أضيفت علامات حروف العلة (الينة) تكملة للحروف الساكنة (الجامدة) لتعبر عن نبرات الصوت المختلفة للغة المنطوقة⁽¹⁴⁾

ثامناً: النظام السياسي في مملكة أكسوم:

ربما كانت أكسوم في البداية مجرد إمارة صغيرة ثم صارت بمرور الزمن الإقليم الرئيسي في مملكة إقطاعية، وقد نسب التاريخ إلى حكامها إنجازات عديدة كان أكثرها إلحاحاً بسط سيطرتهم على دويلات شمال إثيوبيا المُفككة ودمجها في مملكة واحدة، وكان النجاح في ذلك يعتمد على قوة الحاكم الأكسومي والدرجة التي يتفوق بها على أمراء إثيوبيا القديمة، وكان يحدث أحياناً عندما يأتي حاكم جديد إلى العرش يجد لزاماً عليه أن يفتتح حكمه بحملة عسكرية على كافة أقاليم بلاده لكي يفرض على الأقل سلطانه الأسمى على الإمارات⁽¹⁵⁾

كان تأسيس مملكة أكسوم نواة لتأسيس امبراطورية ومنذ نهاية القرن الثاني وحتى بداية القرن الرابع الميلادي اشتركت أكسوم في الصراعات الحربية والدبلوماسية التي دارت بين دويلات جنوب الجزيرة العربية، وعقب ذلك استولت أكسوم على الأقاليم الواقعة بين هضبة تقري (Tigre) ووادي النيل وفي القرن الرابع الميلادي احتلت مملكة مروحي، وكانت المملكة تُقسم إلى أكسوم الأصلية (العاصمة) والدويلات التي تخضع لها والتي كان حكامها خاضعين للملك أكسوم ويدفعون له الجزية - وكان الإغريق يطلقون على عاهل أكسوم لقب (ملك) وكان الملوك الذين يديرون في فلك أكسوم يطلقون عليهم لقب (حكام) أو طغاة أو زعماء قبائل، أما اللقب الأكسومي لكل أولئك فقد كان (نجاشي Negus)) وكانت هذه المملكة تقسم إلى إمارات ومدن وقبائل ولكل واحدة نجاشيها الخاص بالإضافة إلى قادة الجيوش في وقت الحرب، وكان هؤلاء النجاشيون يقومون بالإشراف على عمليات البناء وكان الملوك التابعون يعيشون في منطقة (هضبة تقري وفي إقليم خليج زولا وأقامي وما وراء نهر تكازي) وبعد انتصار الملك عيزانا امتدت تلك الدويلات إلى أرض النوبة العليا ما بين الشلال الرابع وسنار، وكان لهم بعض الملوك التابعين مثل (ملوك جنوب الجزيرة العربية وأرض النوبة العليا وآخرون) وكان أولئك الحكام الوارثين ذوي مرتبة دنيا - وقد تمّ على ذلك المنوال خلق هيئة هرمية حاکمة للسلطة ابتداءً من ملك أكسوم نزولاً إلى زعماء المجتمعات الصغيرة المتفرقة⁽¹⁶⁾ وقد كانت هنالك طريقتان لجمع الجزية فإما أن يرسل الملوك التابعون مثل أبرهة ملك حمير جزية سنوية إلى ملك أكسوم، أو أن يتجول الملك بنفسه مصحوباً بحاشية كبيرة في أنحاء مملكته ليجمع الجزية والزاد وكذلك حكام المدن والولايات كانوا يجمعون الجزية على ذات المنوال، ولم تشتمل المصادر على أي معلومات عن نظام أكسوم الإداري الذي يبدو أنه كان نظاماً غير متطور وكان أقرباء الملك يلعبون دوراً كبيراً في إدارة دفة الأمور، وكانت قيادة الحملات العسكرية توكل إلى الملك نفسه أو لأخيه أو لأحد أقاربه، وكان حكام أكسوم يضعون القبائل المحاربة على طول حدود دولتهم في جنوب الجزيرة العربية مثل قبائل البجة في إقليم ما تليها، بالإضافة إلى أن الملك كان يُحيط نفسه بحاشية مسلحة تتكون في وقت السلم من بلاطه - إلا أنه في عهد الملك عيزانا حدث شيء من التطور في النظام الإداري فقد وضحت شكل من أشكال المركزية بعد أن انحصر نشاطه في إخضاع وأسر الملوك التابعين والمتمردين الذين كانوا قد ورثوا الحكم في إمارات مختلفة⁽¹⁷⁾

تاسعاً: النظام الاقتصادي في مملكة أكسوم:

خلال العهد الأكسومي كانت الزراعة وتربية الماشية هي عماد الحياة الاقتصادية ولكن يبدو أنه خلال العهد تطور الوضع قليلاً في عصور لاحقة في اتجاهين متميزين:

الأول: تشير كل المصادر القديمة إلى أن التجارة البحرية ازدهرت في البحر الأحمر خلال القرن الأول والثاني وهذا يعزى إلى الانتشار الروماني في المنطقة الذي مهد له تطور الملاحة - وازدياد العلاقات التجارية حيث كانت السفن تجلب البضائع وتجعل من الممكن الاتجار مع بلدان البحر الأبيض والهند وكانت أودليس نقطة الالتقاء للتجارة البحرية وكان ذاك هو الاتجاه الثاني للتقى التجارة الداخلية⁽¹⁸⁾

وفي داخل القارة كانت هنالك تجارة آخذة في النمو هي تجارة العاج حيث كانت أكسوم تُمثل نقطة التجمع الكبيرة للعاج، وقد كانت سلعة لا غناء عنها بالذات للرومان المحبين للبذخ، وكانت الأفيال الإثيوبية ذات قيمة كبيرة منذ عهد البطالمة إذ كانت الجيوش تستخدمها كنوع من الدبابات وعندما تموت تستخدم أنيابها، وكذلك جلد فرس البحر وقرن الكركدن وذيل دروع السلاحف بالإضافة إلى الذهب والرقيق والتوابل⁽¹⁹⁾

كان للدور الذي كانت تلعبه مملكة أكسوم في التجارة الدولية جعل منها أن تكون دولة تجارية من الطراز الأول وتدل على ذلك العملة الذهبية والفضية والنحاسية التي كانت تضرب لذلك الغرض، وعلى الرغم من أن الإنتاج المنزلي كان هو الأغلب فإن هنالك صلة ما بين الأهمية الإنتاجية والتجارية لأكسوم، فكانت السلع التي تصدرها أكسوم بالاطلاع على روايات الكتاب الرومان تشمل النسيج والعاج وقرن الخرتيت وجلود فرس البحر والقرود وكذلك الرقيق (كتاب دليل الملاحة في البحر الأحمر) وكذلك التبر كان أحد الصادرات الأكسومية وأن العطور والذهب والعاج والحيوانات كانت تصدر خارج إثيوبيا وأن الأكسوميين كانوا يحصلون على الزمرد من البليميين (Blemmyen) في صحراء النوبة ويصدرونه إلى شمال الهند لتسويقه هناك⁽²⁰⁾ والبضائع التي تم حصرها باستثناء الذهب والزمرد كلها من الأشياء التي يتم الحصول عليها عن طريق الصيد والقنص - ولم ترد الإشارة إلى المنتجات الزراعية ومنتجات الألبان والأدوات التي يقوم بإنتاجها الصناع والحرفيون وإن وجد ذلك فكان يتم بكميات محدودة، ويبدو أنه بالإمكان معرفة الكثير عن السلع التي تستوردها مملكة أكسوم من خارج حدودها والتي كان يقوم بصناعتها حرفيون أجانب مثل قماش خشن غير ممشط يصنع في مصر للبرابرة وعباءة مقلدة مصبوغة ومنشفة والعديد من الأدوات المصنوعة من الزجاج الشفاف وأواني حجر فاخر وكذلك الفؤوس والأوعية النحاسية المستديرة الضخمة، وبعض الدنانير ومقادير قليلة من النبيذ وزيت الزيتون اللازق، ويجلبون أيضاً أواني فضية وذهبية مصنوعة على الطريقة المحلية لاستعمال خاص بالملك⁽²¹⁾ ولم تؤد هذه المكاسب والسلع في المملكة إلى إثراء طبقة النبلاء فحسب بل امتدت إلى الجماعات المتميزة من المواطنين الذين كانوا يشكلون مجتمع العاصمة، لذلك

استقر التجار الأجانب وأصحاب الجاليات الأجنبية الأخرى في أودليس وأكسوم وغيرها من المدن الإثيوبية، وكانوا يجلبون كميات من البضائع المستوردة وكان النبيذ وزيت الزيتون يجدان رواجاً خاصاً بين كل الجاليات، ومن الجلي أن الأدوات التي عُثر عليها في الحفريات الأثرية مثل الميزان والأوزان والأختام وقطع العملة الكوشية والرومية هي من مخلفات التجار الرومان والهنود الذين كانوا يعيشون في أودليس وأكسوم، وكان الحكام يملكون قطعاً ضخمة من المواشي وتشير نقوش الملك عيزانا إلى الأسلاب التي غنمها الأكسوميون في حملتين في أفانا (Afan) والنوبة التي بلغت في مجموعها أكثر من 32,000 رأس من الأبقار وما يربو على 500 من الضأن بالإضافة لبعض الحيوانات الأخرى، ولكن لا ندري ما إذا كانت تلك الغنائم تشكل نصيب الجيش كله أم نصيب الملك وحده إلا أن الاحتمال الأخير أكثر وروداً⁽²²⁾

عاشراً: النظام الثقافي في مملكة أكسوم :

توجد رموز للشمس والقمر على مسلات أكسوم ومطرا وأنزا، وفي نقوش الملك عيزانا الوثنية فإن الإله أريس (Ares) كان يُعتبر إلهاً للحرب وتبعاً لذلك فإن (صنوه محرم) كان يعتبر إلهاً للحرب هو الآخر وأنه لا يقوى أعداؤه على هزيمته وأنه يحقق النصر وكذلك هو إله الحرب والعرش، وكان يسيطر على الآلهة السماوية والأرضية، كما يسيطر العاهل المعترف به على رعيته وفي ذات الوقت كانت الحرب التي يعتبرها (محرم) تجسيدا لها تطغي على النشاط السلمي، وكان ينظر إليها أنها عمل مقدس وأكثر شرفاً من كل الفلاحين، وما يمكن ملاحظته بجلاء في دين أكسوم السمات المميزة لأيدولوجية الطبقة المبكرة وهي أيدولوجية مجتمع إقطاعي في مرحلة تكوينه الأول، وكان الأكسوميون يُقدّمون القرابين لألهتهم وكانت الحيوانات المستأنسة تمثل غالبية تلك القرابين، وورد في أحد نقوش الملك عيزانا أن اثني عشر ثوراً نحرت للإله محرم في قربان واحد وأن الأبقار والنعاج العقيمة كانت هي القرابين الأكثر انتشاراً، ونجد النصوص الأخرى أشارت إلى ذبح البهائم وكذلك احتلت عبادة الأسلاف مكاناً مهماً في دين الأكسوميين، وكان من المألوف تشييد المسلات لهم ومسألة تعبدتهم هذه شبيهة بشعائر الطواف حول الكعبة، وكانت القرابين تجلب إلى المذابح وإلى قواعد المسلات المنحوتة في شكل مذابح ثم يصب دم القرابين في فجوات تشبه القصاع، وكانت قبور الأكسوميين تعتبر القواعد المقدسة في المدينة وتدل الأوعية والأدوات الأخرى التي عُثر عليها في المدافن أنهم كانوا يعتقدون في حياة ما بعد الممات، ومع أن المعلومات عن دين الأكسوميين لا زالت شحيحة ومقتضبة، ففي الإمكان القول بأنه دين متطور نسبياً ومرتبطة بشعائر معقدة ونظام كهنوتي معقد هو الآخر، ونتيجة للأثر الذي أحدثته المسيحية والأديان التوحيدية الأخرى في إثيوبيا والجزيرة العربية، استحدث أهل

تلك البلاد نظرة تعبدية خاصة بهم وجدت في بعض النصوص باللغة الجعزية (Geez) فعلى سبيل المثال نقوش الملك عيزانا التي تورد أخبار الحملة النوبية، ونتيجة للمؤثرات الثقافية والأجنبية كانت الثقافة الأكسومية ذات صبغة عالمية، فقد كانت اللغة الإغريقية تستعمل جنباً إلى جنب مع اللغة الجعزية كلغة دولة - ويبدو أن الملوك أمثال (زا وهياكلي وعيزانا) كانوا يتكلمون اليونانية⁽²³⁾

11- انتشار المسيحية في مملكة أكسوم:

هنالك اعتراف بأن المسيحية دخلت وانتشرت في إثيوبيا على يد المطران (فرومنتيوس) والملكين الأخوين (أبرهة وأصبحه) وهذا ما تؤكد جميع المصادر المحلية، ومن الحقائق القريبة في الأمر عدم وجود أي أثر في مختلف النصوص التي ترجع لهذه الفترة المكتوبة قبل نهاية القرن التاسع لاسم عيزانا، الذي يبدو أنه كان الاسم الوثني للملك كما أنه لا يوجد أي مسكوك أو مكتوب نقش يحمل اسم أبرهة الذي يفترض أنه اسم التعميد للملك، لذلك فإنه لدينا اسمين مختلفين لنفس الشخص الذي كان شبيهاً بقسنطين الأكبر من حيث كونه نصف وثني ونصف مسيحي خلال توليته العرش، بينما يعتبر البعض أن أبرهة هو اسم التعميد للملك عيزانا، فإن النقش الشهير الذي كتب باللغة الجعزية التي تبين حركات النطق والمسجل تحت الرقم N.11 في سجلات البعثة الأثرية الألمانية (ب. أ. أ. D.A.E) الذي يعتبره جمهور الباحثين الإثيوبيين أنه نقش يعود لأيام انتقال هذا الملك للمسيحية⁽²⁴⁾

حيث كانت مملكة أكسوم يحكمها ثالثوث ثيوقراطي يتكون من (أبرهة، أصبحه، وسلامة) والأخير هو الاسم الذي يطلقه رجال الكنيسة على أفرومنتيوس) وكما يبدو أن أول تبشير بالدين الجديد لقي ترحاباً من بعض السكان الذين تربطهم بالبلاط عوامل إثنية وثقافية مثل السبتيين والأحباش والحمريين ذوي الأصل السامي وهم أسلاف التجري والأمهرين الذين تقبلوا دين ملوكهم بلا صعوبة، وبعد دخول المسيحية وبازدياد عدد مُعتنقيها تكاثرت الرحلات إلى الأراضي المقدسة فكان انتشار المسيحية في مملكة أكسوم خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين نتيجة جهد رجال الكنيسة الذين تصفهم النصوص التقليدية بأنهم صادقون وعادلون⁽²⁵⁾

على أن الفضل الرئيسي في انتشار المسيحية لم يكن راجعاً إلى هؤلاء الرهبان وحدهم من الامبراطورية، فلا ريب أن هنالك مئات الرهبان من الوطنيين والأجانب قد ساعدوا على نشر العقيدة المسيحية تحت إرشاد العديد من المطاعنة مثل الشهير (أبا مطاعي) وإن لم تُحظْ أسماؤهم بالذكر في الحوليات التاريخية مثلما حدث مع القديسين التسعة. فبدأت المسيحية في المناطق الشمالية ثم تغلغت إلى مقاطعات أخرى مثل يجمدو وجوجام وشوا بين جماعات السكان من البجة والأمهرة، وأفادت في انتشارها إلى الدعم المتفاني

من الملوك والملكات والأمراء والحكام وكبار رجال الكنيسة الذين دأبوا على بناء الكثير من الكنائس والأديرة في أماكن ازدهار العقائد المسيحية⁽²⁶⁾

النتائج والتوصيات :

أولاً: النتائج:

1. يرجع تاريخ قيام مملكة أكسوم القديمة إلى عصور ما قبل الميلاد (القرن الثامن قبل الميلاد).
2. يُحدد علم الآثار موقع مملكة أكسوم بأنها شرق إفريقيا وهي عبارة عن مستطيل يبلغ طوله حوالي 300 كم وعرضه حوالي 160 كم بخطوط طول واضحة ومحددة في الشرق والشمال.
3. أهم المواقع الأثرية لحضارة أكسوم هي (أودليس، مطرا، كوهايتو)
4. شهدت مملكة أكسوم قيام الكثير من المدن الحضرية التي تعمل كأسواق للتجارة مثل مدن (أراتو، توكندا، إتش هاري، ديقونم إلخ)
5. عرفت مملكة أكسوم معماراً مميزاً تمثل في البناء بالحجارة والخشب بالإضافة إلى استخدام الفخار وفن الرسم والزخرفة في الصناعات المحلية.
6. تعتبر مملكة أكسوم مملكة مستقلة لها نفوذها وسلطانها ودليلنا على ذلك تم العثور على المسكوكات والنقود التي عليها صور حكامها وملوكها.
7. كان لمملكة أكسوم نظاماً إدارياً وسياسياً محكماً أكسبها القوة والمنعة ووضح ذلك من خلال سعي ملوكها الدائم للبحث عن السيطرة وبسط النفوذ خارج حدودهم، ثم تقسيم المملكة إلى إمارات ومدن.
8. اعتمدت مملكة أكسوم في نشاطها الاقتصادي على التجارة التي ازدهرت في حوض البحر الأحمر، خاصةً بعد أن تطورت ملاحظتها في جلب البضاعة من البحر المتوسط والهند بالإضافة إلى حرفة الزراعة والرعي.
9. يُعتبر الملك (عيزانا) أشهر ملوك مملكة أكسوم إذ شهدت البلاد في عهده العديد من الإنجازات أهمها غزوة لحضارة مروي الكوشية في منتصف القرن (الرابع الميلادي).
10. دخلت المسيحية مملكة أكسوم على يد المطران (فرومنتيوس) والملكين الأخوين (أبرهة وأصبجة) وهذا ما تؤكدُه أغلب المصادر المحلية ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء المملكة ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين بمجهودات بعض الرهبان من الوطنيين والأجانب.

ثانياً: التوصيات:

1. أوصى الباحثون والمهتمون بتخصيص دراسات منفصلة عن النظام الاقتصادي أو السياسي لمملكة أكسوم.
2. تخصيص دراسة خاصة للملك الأكسومي (عيزانا)

المصادر والمراجع

- (1) اليونسكو : تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني (حضارات إفريقيا القديمة) إشراف: د.جما مُختار، ط 1985م، ص 345 .
- (2) نفس المرجع : ص 346.
- (3) Claudius Ptolemy.1932:H.de.Contenson.1960.pp 77.79
- (4) Ibid.p80
- (5) Ibid.p81
- (6) Puny:H.Decontenson.1960.pp77
- (7) Ibid.p79
- (8) اليونسكو : مرجع سابق، ص(370-371)
- (9) نفس المرجع : ص(372-374)
- (10) Puny:H.Decontenson.1960.pp82
- (11) Ibid.p83
- (12) اليونسكو : مرجع سابق، ص(374، 375)
- (13) نفس المرجع : ص 382.
- (14) نفس المرجع : ص 382.
- (15) Corpus in Scrip piton Semitic can rum Academies in
- (16) Scriptionum Pars Guard- Paris is
- (17) Ibid.p387
- (18) Ibid.p388
- (19) E.O.Winstedt- Cambridge 1959 pp 74,77
- (20) Ibid.p83
- (21) اليونسكو : مرجع سابق، ص(401 _____ 402)
- (22) J.p.Migne, Paris 1884-p635
- (23) D.A.E Monumental Adulate of Commas' p77
- (24) D.A.E -226-18-
- (25) Wilfred H. Scoff-New-York, London, Barbary
- (26) and Calcutta 1912 pp-6067-
- (27) E. Corelli Roma 1943 pp12-
- (28) اليونسكو : مرجع سابق، ص(413 - 418)

تاريخ ممالك اليمن القديمة

أستاذ- قسم التاريخ- كلية الآداب
جامعة بخت الرضا

أ.د. أسامة عبد الله محمد الأمين

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة تاريخ ممالك اليمن القديمة وهي ممالك ذات أنظمة اقتصادية متصلة بالتجارة العالمية وقد أثرت فيها تأثيراً بعيداً. وتبدأ الورقة بنبذة قصيرة عن بلاد اليمن من حيث الموقع الجغرافي، وأسباب التسمية. ثم تناولت الورقة أيضاً ممالك بلاد اليمن القديمة في الفترة (1300 ق.م — 525 م) والتي شملت مملكة معين، حضرموت، قتبان، سبأ، أوسان، وحمير. وتنبع أهمية هذه الورقة في أنها توضح دور ممالك اليمن القديمة في صياغة الأحداث التاريخية التي رسمت الصورة الحضارية لليمن قبل الإسلام. وبالتالي تهدف الورقة إلى تسليط الضوء عن تلك الممالك اليمنية القديمة. وتتبع الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي للوصول لغاية هذه الدراسة وتحقيق النتائج المرجوة. توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها أن معرفة تاريخ ممالك اليمن القديمة يعيننا على فهم حاضر الإنسان اليمني وكيف وصل إلى ما هو عليه. توصلت الدراسة إلى عدد من التوصيات أهمها تشجيع البحوث والدراسات في مجال التقنيات الأثرية لكافة الحضارات القديمة لليمن والوقوف على إيجابياتها وسلبياتها.

Abstract:

This study deals with the history of the ancient kingdoms of Yemen, which are kingdoms with economic systems related to international trade, and have affected them far and wide. The paper begins with a short overview of the country of Yemen in terms of geographical location, and the reasons for the name. Then the paper also dealt with the kingdoms of the ancient country of Yemen in the period (1300 BC - 525 AD), which included the kingdom of Muḩin, Hadramout, Qataban, Sheba, Awsan, and Himyar. The importance of this paper stems from the fact that it clarifies the role of the ancient kingdoms of Yemen in formulating

the historical events that drew the civilized image of Yemen before Islam. Therefore, the paper aims to shed light on those ancient Yemeni kingdoms. The study follows the historical, descriptive, and analytical method to reach the purpose of this study and achieve the desired results. The study reached a number of results, the most important of which is that knowing the history of the ancient kingdoms of Yemen helps us understand the present of the Yemeni human being and how he reached what he is. The study reached a number of recommendations, the most important of which is to encourage research and studies in the field of archaeological techniques for all ancient civilizations of Yemen and to identify their pros and cons.

المقدمة:

أطلق اليونان القدماء على الإقليم الذي قامت فيه الممالك العربية الجنوبية اسم بلاد اليمن السعيد، نظراً لخصوبة أرضها ووفرة محصولها وثروتها التجارية الواسعة. ويلاحظ أن تلك الممالك قامت في أعلى هضبة اليمن، أي في المناطق الداخلية والسفوح المنحدرة نحو الشرق. واستخرج العلماء أخبار مدن الجنوب وممالكها من النقوش التاريخية، ولم يلبثوا أن عرفوا من هذه النقوش أن حضارة اليمن بدأت قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً⁽¹⁾. وعبد اليمنيون الكواكب وقوام هذه العبادة الثالوث الذي يمثل القمر فهو (ود) وهو المعبود الرئيس، وقد مثلت الشمس دور الزوجة والأم فهي زوجة المعبود القمر وأم المعبود عثر (الزهرة). ويمثل عثر القاسم المشترك الذي عبده الشعوب السامية في جنوب وشمال شبه الجزيرة العربية تحت اسم واحد. وكان إلى جانب هذا الثالوث آلهة أخرى محلية وأيضاً معبودات للمطر وللحاصيل وغيرها. وقد ظلت الوثنية دين اليمن حتى تسربت اليهودية والمسيحية في القرنين الثالث والرابع الميلاديين. ولم يلبث الإسلام أن انتشر في اليمن وأصبحت البلاد جزءاً من الدولة العربية الإسلامية الموحدة⁽²⁾.

ونضمت في بلاد اليمن مجموعة من الممالك القديمة منها معين، حضرموت، قتبان، سبأ، أوسان، وحمير. وكانت تلك الممالك غالباً متعاصرة متعاونة أو متنافسة متناحرة كل واحدة منها تستقل بنفسها تارة وتدين بالولاء لبعض جاراتها تارة أخرى⁽³⁾.

أهمية الدراسة:

أتت أهمية الدراسة في أنها توضح دور ممالك اليمن القديمة في صياغة الأحداث التاريخية التي رسمت الصورة الحضارية لبلاد اليمن قبل الإسلام.

أهداف الدراسة:

1. تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ملامح من الدور الحضاري الذي قامت به ممالك بلاد اليمن في تاريخ العالم القديم.
2. تحاول هذه الدراسة أن تلقي بعض الضوء على جوانب من أنظمة ممالك اليمن القديمة ذات الألوان والأذواق المتباينة التي منها خرجت حضارة يمنية كان لها أبعد الأثر في تاريخ العالم القديم.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي للوصول لغاية هذه الدراسة والنتائج المرجوة.

تقسيم الدراسة:

تتكون هذه الدراسة من المقدمة وتحتوي على نبذة قصيرة عن بلاد اليمن من حيث الموقع الجغرافي وأسباب التسمية، وأهمية الدراسة وأهدافها، ومنهجية الدراسة، ثم تعرضت الدراسة إلى ممالك اليمن القديمة من حيث تسميتها، وموقعها الجغرافي، ونشأتها ونهايتها، ونظام الحكم وعلاقاتها بالدول المجاورة لها. كما تطرقت الدراسة إلى الأنشطة الاقتصادية والحضارية لتلك الممالك اليمنية القديمة.

تمهيد:

تقع اليمن في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، وتمتد اليمن على طول المحيط الهندي، ويحدها البحر الأحمر من الغرب، والحجاز من الشمال، وتخترق جبال الحجاز (السراة) اليمن من الشمال إلى الجنوب حتى البحر الأحمر، وتتخللها الأودية التي تنساب فيها مياه الأمطار⁽⁴⁾. أما عن سبب تسميتها باليمن، فذلك أمر خلاف فهناك من يذهب إلى أن ذلك إنما كان نسبة إلى من قطنها من العرب، الذي قال له والده قحطان أنت أيمن ولدي، أو لأنها تقع على يمين الكعبة. بينما يتجه فريق ثالث إلى أن السبب إنما كان في طبيعة البلاد نفسها فهي بلاد اليمن والخير والبركة، على أن رأياً رابعاً يذهب إلى أنها سميت بذلك لأن الناس قد كثروا بمكة فلم تحملهم فاتجه بنو يمن إلى اليمن وهي أيمن الأرض فسميت بذلك، وهناك من يرجح أنها سميت اليمن من كلمة (يمينات) الواردة في نص يرجع إلى أيام الملك (شهر يهرعش) غير أن كل تلك الآراء لم تقل لنا شيئاً عن الاسم الذي كان

يطلق عليها قبل أن تسمى باليمن (5).

قامت في اليمن ممالك ذات أنظمة اقتصادية متصلة بالتجارة العالمية وأثرت فيها تأثيراً بعيداً. فبلاد اليمن كانت تصدر البخور والعطور العربية، كما كانت مركزاً مهماً للاتصال التجاري بين المحيط الهندي والبلاد الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط. ووضح ذلك في حضارتها، فأصبحت صلة الوصل بين الحضارات القديمة في مصر وبلاد الرافدين والشام والحبشة واليونان (6).

ممالك اليمن القديم:



خارطة ممالك اليمن القديمة

أولاً: مملكة معين (1300—650 ق.ق):

نشأت أقدم الممالك العربية في اليمن بفعل موقعها الجغرافي ووفرة مواردها الاقتصادية والظروف السياسية التي أحاطت بها، وتعتبر المملكة المعينية أقدمها، وقد وردتنا أخبارها عبر الكتابات المدونة بالمسند والكتب الكلاسيكية اليونانية والرومانية، ولم يرد ذكر لها في المصادر العربية، ثم إن ما ذكرته المصادر إليها عن بلديتي معين وبراقش لا يتجاوز كونها موضعين في الجوف بين نجران وحضرموت أو محفدين من بين محافد اليمن وقصورها القديمة (7).

وعلى الرغم من كثرة النقوش التي وجدت عن هذه المملكة المعينية، فإن معظمها لا يحوي أكثر من أسماء ملوك وأشخاص وتسجيل بعض الأحداث

الشخصية أو الخاصة، ما ترتب عليه اختلاف الباحثين في تحديد تاريخ بداية هذه المملكة وتاريخ انتهائها، والتواريخ المذكورة تتراوح بين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي⁽⁸⁾.

ورد اسم معين في المصادر اليونانية والرومانية وعاصمتها مدينة قرنا وهي معين، وقد قامت المملكة المعينية في الجوف شرقي صنعاء بين نجران وحضرموت، وهي أرض خصبة ذات مياه كثيرة، اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة. كان نظام الحكم في هذه الدولة ملكياً وراثياً من الأب إلى الابن، وقد يشترك الاثنان معاً في الحكم، كما قد يشترك أكثر من ملك في اسم واحد، لكن يتميز بعضهم عن بعض بالألقاب مثل: المنقذ أو المخلص والصديق أو الصادق والعاقل والفخور والسامي. ولقب الملوك في بداية عهد المملكة بلقب مزاد ولعل هذا اللقب يتضمن معنى الكهانة فضلاً عن الحكومة فيكون المراد بقولهم مزاد معين، حاكم معين وكاهنها⁽⁹⁾. وعرفت مدن المملكة المعينية ما يعرف بنظام الحكم المحلي حيث كان حكام هذه المدن يُعينون بالانتخاب وكانت لهم مجالس تدير شؤونهم في السلم والحرب تسمى مزود وكأنها حكومات محلية. وتنوعت الضرائب في الدولة المعينية عبر ثلاثة أنواع هي: ضرائب تعود جبايتها إلى خزانة الملك، وضرائب تؤول جبايتها إلى المعابد، ثم ضرائب تذهب إلى خزائن المشايخ والحكام. ومن الضرائب كتابات العقود ووفاء الضرائب والديون وضريبة دعيت يفرع أي فرع، وأخرى عرفت بعشرم أي عشر تؤخذ من الحاصل⁽¹⁰⁾. وكان لكل مدينة معبدها الخاص الذي يحوي إلهاً أو أكثر، وقد تعددت المعابد في المدينة الواحدة، ويعرف معبد العاصمة برصاف، ويشرف رجال الدين على إدارة المعابد ويقومون بالشعائر الدينية ويعرف الكاهن بـ (شوع)⁽¹¹⁾.

هذا وقد اشتهر المعينيون بأنهم قاموا بدور فعال في إنماء التجارة مما أثر في توسيع رقعة البلاد وامتدادها حسبما تقتضي تجارتها. وكانت للمملكة المعينية مستعمرات متعددة خارج اليمن فقد امتد نفوذها إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط في جنوبه وإلى خليج العجم وبحر العرب. ونسبة لهذه المسافات البعيدة التي كان يقطعها التجار المعينيون فإنهم قد وجدوا أن من الخير أن يستعمروا بعض المرافئ في مختلف البحار ولم يكن هذا الاستعمار نتيجة حروب، ولكنه يبدو أنه كان نتيجة اتفاقيات تجارية بين المعينيين على أسفارهم أنهم كانوا يسكنون مكاناً وسطاً بين الشرق والغرب، فقد كانت الهند في شرقي بلادهم والبحر الأحمر يوصلهم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط عندما كانت قناة السويس القديمة مازالت مستعملة. واشتهرت في معين موانئ ومدن مختلفة منها عدن وظفار ومسقط وقانا، فكانت السفن تزاحم بعضها بعضاً في مياه هذه المرافئ⁽¹²⁾. وقد اشتركت مع المملكة المعينية

في هذه التجارة الدولية بعض جاراتها من الممالك الجنوبية التي تتكامل معها، وأنسب الأقاليم التجارية لمثل هذا التكامل إقليم حضرموت نظراً لسيطرته على مناطق اللبان أو تحكمه فيها بحكم موقعه وإشرافه على المحيط الهندي من ناحية الجنوب. وكانت حضرموت على اتصال بحري مباشر بكل من الهند وشرق إفريقيا بينما تحكمت معين في زمام طريق التجارة إلى الشمال وكان هناك اتصال تجاري مباشر بين الإقليمين، وفي النقوش المعينية هناك إشارات تدل على وجود علاقة خاصة كانت تقوم في وقت من الأوقات بين معين وحضرموت بل لعل هذه العلاقة ارتبطت بنشاط التجارة العالمية لمعين منذ عام 400 ق.م تقريباً إذ وجدت أسرة حكمت المنطقتين معاً منها (صدق ايل) ملك حضرموت والذي حكم معين أيضاً. وارتباط معين وحضرموت ارتباطاً تجارياً وسياسياً كان بهدف السيطرة على تجارة البخور وخاصة فيما بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد⁽¹³⁾.

أما علاقة معين بسبأ التي كان نفوذها وسلطانها في تزايد مستمر خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد فهناك نقش معروف من مدينة يثل (براقش) ذكر فيه اسم سبأ وملوكها، كما ذكر في هذا النقش أيضاً أن أسرة سبئية قد اتخذت مركزاً تجارياً لها في مدينة يثل المعينية مما يشير إلى تشابك النشاط التجاري بين معين وسبأ في المرحلة الأخيرة من تاريخ معين المستقلة أي خلال القرن الأول قبل الميلاد، ثم ازداد شأن سبأ في الوقت الذي ضعفت فيه معين وازداد انقسامها إلى عدد من حكومات المدن المستقلة حتى استطاعت سبأ في النهاية أن تبتلعها واحدة بعد الأخرى⁽¹⁴⁾.

وحكم ملوك معين دولتهم حكماً دستورياً، فقام مجلس عام إلى جانب الملوك، وقامت في المدن حكومات محلية، وكان حكام هذه المدن يعينون بالانتخاب، ويعاون الحاكم منهم مجلس مؤلف من شيوخ المدينة. وكان نظام الحكم في المملكة المعينية وراثياً، وعاصمتها قرناو وهي معين الحالية⁽¹⁵⁾.



ولم نعرف كما أشرنا سابقاً نهاية المملكة المعينية، إلا أننا نجد في النقوش التي تعود إلى عهود متأخرة منذ ظهور لقب (ملك سبأ وذي ريدان) على الأقل ما يدل على خضوع مدن مثل نشق ونشن ويثل لأولئك الملوك. ولأنكاد نجد ذكراً لمعين أو قرناو. كما أننا لانجد لها ذكراً فيما وصل إلينا من أخبار حملة اليوس جالوس (24ق.م) التي تعرضت خلالها مدن الجوف لهجمات الرومان بما فيها يثل التي ارتبطت طويلاً بمعين. ولعل مملكة معين قد زالت قرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد، ولكن الكتب الكلاسيكية ظلت تذكرهم فترة من الزمان فذكرهم بليني وهو يتحدث عن الحملة الرومانية إلى جانب الحميريين كأكثر الجماعات عدداً وأخصبهم أيضاً وأغزرهم نخلاً وأكثرهم امتلاكاً للمواشي، وكان آخر من تحدث عنهم بطليموس الذي وصفهم بأنهم شعب عظيم⁽¹⁶⁾. ولقد بهرت عظمة المعينيين المتمثلة في آثارهم كل زوار الجوف حيث بنيت معابد عثير في الجوف مع القطع الضخمة من الجرانيت لها مظهر يشبه معابد معينة في مصر مثل معبد الوادي للهرم الثاني بالجيزة والأوسيريون في أبيدوس تضع الحضارة المعينية في مركز عال مقارنة بالحضارت العظيمة الأخرى التي في الشرق كمصر وبلاد الرافدين⁽¹⁷⁾.

ثانياً : مملكة حضرموت (1020 ق.م — 290 م) :



تقع حضرموت إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب، وفيما يتصل باسمها فقد تردد اسمها في كتابات الكتاب اليونان والرومان فورد باسم (حميراتي)، أما عند الإخباريين فقد اعتبروا حضرموت ابناً من أبناء قحطان

واعتمدوا في ذلك على رواية التوراة. وقد وصفت سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس ومن ثم فلا يجمع التوابل واللبان منها إلا العبيد أو المجرمين الذين صدرت ضدهم أحكاماً صارمة. ومن الواضح أن هذا التفسير يعتمد على المعنى الظاهر من المقطع الثاني للكلمة وهو (موت) وربما كان لذلك صلة بالمعنى العبري للكلمة (دار الموت)، من ثم فقد قيل حضرموت في التوراة (حاضر الموت). ويقدم (ياقوت الحموي) تفسيراً آخر لهذا الاسم يعتمد على رواية التوراة يذكر فيه أن حضرموت اسماً لرجل هو عامر بن قحطان وأنه كان إذا حضر حرباً أكثر فيها من القتل ومن ثم فقد سمي بحضرموت. وهناك تفسيراً آخر أنها سميت على اسم حضرموت بن قحطان الذي نزل هذا المكان فسميت به فهو اسم موضع واسم قبيلة⁽¹⁸⁾. وهناك تفسيراً آخر لهذه التسمية فهو أن اسم حضرموت أخذت اسمها من إله الموت والعالم السفلي في الأساطير الجزرية القديمة⁽¹⁹⁾. وفيما يتصل بالتحديد الزمني لفترة مملكة حضرموت فليس هناك اتفاق على بدايتها أو نهايتها فهناك من يرجع بدايتها إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، بينما يرجعه البعض الآخر إلى القرن الخامس قبل الميلاد⁽²⁰⁾. وتعتبر حضرموت بلاد البخور لأنها كانت مملكة مترامية الأطراف تتوسط بلاد العرب وتمتد إلى ظفار أهم المناطق المنتجة للبخور⁽²¹⁾. ومن النقوش المهمة التي توضح صلات حضرموت الخارجية بجيرانها نقش يرجع إلى عهد الملك (العزيط) ملك حضرموت وقد دون هذه النقوش رجلان من أشراف حمير بعث بهما ملك سبأ وذئب ريدان للمشاركة في الاحتفال بتتويج ملك حضرموت في حصن أنود كما وردت كتابات أخرى سجلها الملك الحضرمي نفسه ذكر فيها (العزيط) ملك حضرموت ابن عم ذخر سار إلى حصن أنود ليتلقب بلقبه. ولعل وجود المبعوثين الحميريين دليل على أن العلاقات بين حضرموت وسبأ كانت ودية، ومن ثم فقد أرسل ملك سبأ وذئب ريدان مبعوثين لتهنئة حليفه وصديقه ملك حضرموت بمناسبة تتويجه. إلا أنها من ناحية أخرى قد يستدل من وجود هذين المبعوثين أن ملك حضرموت إنما كان يتولى سلطانه برضى من ملك سبأ وذئب ريدان. وفيما يتصل بالتتويج عن حصن أنود فربما كان هناك دافعاً دينياً وراء ذلك ولقد استمر هذا التقليد إلى حوالي سنة 200 م⁽²²⁾. ومن النقوش التي تلقي ضوءاً على سياسة حضرموت الخارجية كذلك نقشاً يسجل استقبال (العزيط) لوفود من الهند وتدمير ومن الآراميين، وسجل نقش آخر مرافقة عشر نساء قريبات الملك إلى حصن أنود. وتشير هذه النقوش إلى وجود علاقات ودية بين حضرموت وهذه المناطق⁽²³⁾. وإذا تحدثنا عن أهم مدن حضرموت نذكر مدينة (شبو)

العاصمة التي كانت من أهم مدن حضرموت ومن أهم آثارها التي كشف عنها بقايا المعابد والقصور فضلاً عن بقايا السدود التي كانت مشيدة على وادي شبوة لحصر مياه الأمطار والاستفادة منها في ري المناطق الخصبة. ومن مدن حضرموت كذلك مدينة (ميفعة) العاصمة القديمة لحضرموت وتشير النصوص إلى تحصينها وتسويرها وإقامة الأبراج حولها لصد الغزاة عنها، ومنها كذلك مدينة (قنا) وهي ميناء حضرموت الرئيس وهو يقع إلى الشرق من عدن، ومن هذه المدن مدينة (مذب) أو (مذاب) والتي اشتهرت بمعبدها الذي خصص لعبادة إله القمر (سين)⁽²⁴⁾. وأما متى انتهت مملكة حضرموت وأصبحت جزءاً من مملكة سبأ وذي ريدان فهناك من الباحثين من يرى أن ذلك كان في سنة 290م، ويرى آخرون أنه كان بعد سنة 300م في عهد الملك شمريهرعش، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنه كان في القرن الرابع الميلادي⁽²⁵⁾.

ثالثاً : مملكة قتبان (1000—25 ق.م) :



يقع إقليم مملكة قتبان في جنوب اليمن بين حضرموت شرقاً وأوسان غرباً ويحدها بحر العرب جنوباً وتتصل شمالاً بالمرتفعات اليمنية، وتقع في تلك المرتفعات عاصمتها (تمنع)⁽²⁶⁾. وفيما يتعلق ببداية أو نهاية مملكة قتبان فقد أرجع الآثاري (هومل) تاريخها إلى ما قبل سنة (1000 ق.م)، وذهب (ملاكر) إلى أن ابتداء حكم قتبان كان في حوالي سنة 645 ق.م، وأن نهاية استقلالها

كان في القرن الثالث قبل الميلاد. ويرى (جلاسر) أن نهاية هذه المملكة كانت بين (200) و(24 ق.م)، وذهب (ريكنس) أن نهاية دولة قتبان كانت في حوالي السنة (210) أو (207) للميلاد. هذا وقد كان حكام قتبان الأوائل يقبون أنفسهم باللقب الذي تلقب به حكام سبأ وهو لقب (مكرب) وترجم هذه الكلمة بكلمة (مقرب) أي التقرب إلى الآلهة — فهو إذن كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الآلهة التي يتحدث باسمها — ثم تلى ذلك أن تلقب حكام قتبان بلقب (ملك) عندما ازدادت سلطاتهم⁽²⁷⁾. ويحاول بعض الباحثين أن يقسموا تاريخ قتبان إلى ثلاث فترات تختلف الواحدة منها عن الأخرى حيث حكمت هذه الفترات ثلاث أسر هي الأسرة الأولى بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ومن أشهر ملوكها: يدع أب ذبيان الذي وسع الدولة ومد حدودها حتى بلغت حدود سبأ، واستولى على إقليم مراد، وهذا يفسر اهتمامه بشق الطرق ليربط أطراف دولته، ولعل أشهر طريق شيده هو المعروف باسم (مبلقة) ويصل تمنع بأطراف الدولة، كما وضع أصول التشريعات القانونية وكان مجلس الدولة المعروف باسم المزود والذي يتألف من رؤساء المدن والقبائل يقوم بوضع القوانين ثم يعرضها على الملك لإقرارها وإعطاء الأمر بتنفيذها. ومن بين أهم النصوص التي عثر عليها مكتوبة في مدينة تمنع تلك التي ذكرت اسم الملك شهر هلال ابن ذرأكرب، وهو من ملوك قتبان المتأخرين وذلك بمناسبة إصداره قانوناً لشعبه نظم من خلاله علاقة الملك بالشعب ووضع قواعد استغلال الأراضي وتعيين العمال عليها فضلاً عن الإشارة إلى العقوبات التي تقع على المخالفين وانتهى بوفاته حكم الأسرة الأولى⁽²⁸⁾. وحكمت الأسرة الثانية الفترة ما بين (350 — 250 ق.م)، وأول ملوكها هو ابشيم وابنه شهر غيلان الذي ترك كثيراً من النقوش وجد بعضها في المدخل الثاني لمدينة تمنع. ولعل أشهر ملك أنجبته هذه الأسرة هو شهر يجيل الذي اعتلى العرش في سنة (300 ق.م) وهو الذي بنى معبداً للإله عم في وادي لبخ وفي مدينة ذوغيل وقوض عرش معين، وخلفه بعد وفاته أخوه شهر هلال بوهنعم، وهو الذي أقام المسلة التي عثر عليها في مدينة تمنع وانتهى بوفاته حكم الأسرة الثانية (29) وتناوب على عرش مملكة قتبان بعد ذلك عدد من الملوك كان آخرهم يدع أب غيلان الذي اشتهر ببناء قصر بيت يغش وزخرفته بأسد من البرونز وهو أقرب للفن اليوناني الذي كان سائداً في مصر وبخاصة في الإسكندرية، في عصر لم يتجاوز منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وقد جاء في أسفل هذا الأسد نص يبين أسماء صانعيه وينسب نص آخر هذا العمل إلى الملك شهريجيل يوهر جب⁽³⁰⁾.

استولت على عرش مملكة قتبان بعد ذلك أسرة ملكية ثالثة حكمت خمسة وسبعين سنة تقريباً (100—25 ق.م) وأول ملوكها هو هوف عم بوهنعم ثم ابنه شهريجيل بوهرجب، وهو الذي أعاد بناء برج المدخل الجنوبي لبيت يغش ثم ابنه وروال غيلان بوهنعم ويرجح أنه أول من سك نقوداً ذهبية قتبانية وخلفه أخوه فرع كرب يوهو دع وهو آخر ملوك هذه الأسرة⁽³¹⁾.

لعبت التجارة دوراً كبيراً في الازدهار الذي حققه القتبانيون في وقت من الأوقات. ويرجع ذلك أساساً إلى موقع بلادهم التي كانت تتوسط المناطق الأخرى حصرموت إلى الشرق، ومعين إلى الشمال، وسبأ إلى الغرب، ثم سيطرتهم على الأجزاء الجنوبية المطلة على البحار. ومن أجل التجارة شق القتبانيون الطرق ووضعوا القوانين التي من بينها قانون سنه الملك شهرهلال وأمر بكتابته على نصب حجري أقيم في وسط مدينة تمنع حيث كانت تقوم سوقها على ما يعتقد. ومنعت تلك القوانين عمليات البيع والشراء ليلاً، وذلك لضمان جباية الضرائب والرسوم المفروضة على التجارة، وفضلت التجار من أبناء قتبان الأصليين على غيرهم، بل فرضت رسوم إضافية على غير القتبانيين⁽³²⁾.

استغل القتبانيون موقع بلادهم الجغرافي بجوار باب المنب ومجاورتهم لحصرموت التي كانت تنتج أفضل أنواع الطيب والبخور فاشتغلوا بالتجارة وكسبوا منها أرباحاً طائلة وأوضحت لهم قوة عظيمة كان لها شأن في القضاء على نفوذ المعينيين، كما عمل القتبانيون بالزراعة لكن حدث قبل الميلاد بقليل أن تعرضت تمنع عاصمة قتبان لغزو شعب غير معروف فأحرقها⁽³³⁾ وإلى جانب عناية مملكة قتبان بالتجارة عني القتبانيون بالزراعة فأقاموا مشاريع للري في وادي بيحان الذي اكتشفت فيه البعثة الأمريكية قناة رئيسة تمتد مسافة طويلة ولها مصارف تتحكم في مياه السيول وتقوم بتوزيعها على الجداول الفرعية التي كانت تشكل شبكة منتشرة في الأرض الزراعية على الجانبين. ويقدر زمن إنشاء تلك القناة بالقرن الخامس قبل الميلاد ويعتقد أنها ظلت تستخدم حتى القرن الأول الميلادي على الأقل⁽³⁴⁾. وفي مجال العمارة اهتم القتبانيون ببيوت الآلهة ومعابدها وهذا تعبير واضح عن عقيدتهم الراسخة وولائهم الدائم لها، ولا يخلو نقش إلا وقد ذكرت فيه العديد من الآلهة إيمانهم منهم بوقوف الآلهة معهم في أحوال السلم والحرب، وعليه كان من الطبيعي أن يقوم أهل قتبان بأداء واجباتهم نحو تلك الآلهة من صلاة ودعاء وشكر ورعاية لبيوتها. وقد جاءت النقوش القتبانية مصدقة لكل ذلك. وهناك نقوش في عهد المكربين ورد فيها أسماء آلهة قتبانية هي (ابني) و(حوكم)

و(عم) ورد فيها أيضاً بناء معابد للآلهة على سبيل الشكر والدعاء لها لترعى السلام والأمان للتجارة المسافرة على الطريق⁽³⁵⁾. ويتفق جميع الباحثين في دراسة تاريخ الحكومات العربية الجنوبية على أن السبئيين هم الذين قضوا على استقلال حكومة قتبان، وقد اختلفوا فقط في تحديد الوقت الذي تم فيه فبينما يرى البعض أن ذلك كان حوالي سنة (540ق.م)، يرى البعض الآخر أن سقوط مدينة تمنع كان في حوالي سنة (50ق.م)⁽³⁶⁾.

أما عن أهم مدن دولة قتبان فهي العاصمة (تمنع) وتعرف حديثاً باسم (كحلان) وأيضاً (هجر كحلان) في وادي بيحان في منطقة عرفت قديماً بخصوبتها وبكثرة مياهها وبساتينها وقد تعرضت لأحداث عنيفة انتهت بخرابها بالحريق مما أدى إلى انتقال الحكم منها إلى موقع آخر يسمى (حرب) أو (حريب) بواسطة أسرة جديدة⁽³⁷⁾.

رابعاً: مملكة سبأ (950 — 115ق.م) :



هي إحدى الممالك اليمنية التي قامت في جنوب شبه الجزيرة العربية، وقد اختلف المؤرخون في أصل السبئيين فتذكر الروايات العربية أن سبأ من قحطان ويسمونهم العرب المتعربة تمييزاً لهم عن العرب الذين كانوا من قبلهم وتشير الروايات إلى أن والده هو يشجب بن يعرب بن قحطان، وتذكر أن من أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، ونسب إليه نسله من السبئيين، وقد ذكروا أن اسمه الحقيقي

هو عبد شمس، وأما سبأ فهو لقب تلقب به وذهبوا في سبب هذه الكنية مذاهب متعددة فقالوا إنه لقب به لأنه أول من سبأ أي سن السبي من ملوك العرب، واتجه البعض الآخر إلى إحاكة الأساطير حوله فقالوا إنه بنى مدينة سبأ وسد مأرب وغزا الأقطار وبنى مدينة عين شمس في مصر. ولكن لم يعثر في النصوص العربية الجنوبية التي كشف عنها عن شيء يتصل بشخص يدعى سبأ أو اسمه وأعماله وكل ما ورد في هذه النقوش يشير إلى أن سبأ هو اسم شعب كون له دولة وكان له حكامه ونظامه السياسي والإداري والاقتصادي وعلاقاته الخارجية⁽³⁸⁾.

وورد ذكر سبأ في القرآن الكريم في قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ⁽³⁹⁾). كذلك نجد أن القرآن الكريم يشير في السورة نفسها إلى القرى المباركة والأمان الذي كان يسود هذه الدولة، يقول الله تعالى : (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَيَوْمًا آمِنِينَ⁽⁴⁰⁾). وقد أشار القرآن الكريم أيضاً إلى ملكة سبأ وقصتها مع نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام وذكر عظمتها وعظمة عرشها فقد جاء في سورة النمل على لسان الهدد قوله تعالى : (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ⁽⁴¹⁾). وبين القرآن الكريم طبيعة الحكم الذي كانت تمارسه ملكة سبأ والذي كان يقوم على مبدأ المشورة وعدم الانفراد في اتخاذ القرارات فقد جاء على لسان ملكة سبأ قوله تعالى : (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ⁽⁴²⁾) وقد ذكرت سبأ في التوراة وحددت نسبها وذكرت ملكتها وزيارتها للنبي سليمان عليه السلام في فلسطين، وهناك لفظتان وردتا في التوراة هما سبأ وشبا اللتان تردان أحياناً معاً ويرجح أن تكون اللفظتان لمنطقتين مختلفتين. أما سبأ فإنها معروفة، وأما شبا فيرجح أنها لا تبعد كثيراً عن سبأ. لذا فإن التوراة توردهما معاً وأيضاً فإن تجارتها هي نفسها اللبان والطيب والأحجار الكريمة والذهب⁽⁴³⁾. وورد اسم سبأ في الكتابات الكلاسيكية منهم أورد بليني بأن أهل سبأ من قبائل البلاد العربية ووصفهم سترابو بأنهم شعب كبير التعداد وأن بلادهم شديدة الخصوبة تنبت المر واللبان وأنواعاً أخرى من الأعشاب ذكية الرائحة. كما زعم أن السبئيين شعب كسول وعزى ذلك إلى خصوبة أرضهم، وقال إن ماريابا (مأرب) عاصمتهم تقوم على جبل كثيف الأشجار وأنه يحرم على ملكهم مغادرة مسكنه. أما أبناء الشعب فإن حياتهم موزعة بين الزراعة والاتجار بالطيب الذي ينتجونه أو يجلبونه بالسفن المغطاة بالجلود من إثيوبيا عبر البحر فأصبحوا بفضل تجارتهم من أغنى القبائل. وأنهم يكتنون كميات كبيرة من الأشياء المصنوعة من الذهب والفضة والآرائك

والآنية ثلاثية القوائم والأحواض وأواني الشرب، هذا بالإضافة إلى منازلهم الرائعة ذات الأبواب والجدران والسقوف المطعمة بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة⁽⁴⁴⁾.

أما عن موقع سبأ فيرى بعض الباحثين أن السبئيين كانوا يعيشون في منطقة تقع إلى الشمال من دولة معين وفي القرن الثامن قبل الميلاد هاجروا إلى اليمن حيث استقروا في (صرواح ومأرب)، وهناك رأي آخر أن السبئيين هاجروا إلى الجنوب⁽⁴⁵⁾. كما يرى البعض أنهم كانوا شعباً بدوياً يتنقل بين شمالي الجزيرة العربية وبين جنوبها قبل أن يستقروا في بلاد اليمن حوالي سنة (800 ق.م) نتيجة لضغط الآشوريين عليهم من الشمال فاستغلوا ضعف المعينيين وتوسعوا على حسابهم ولما قوي أمرهم قضوا على المملكة المعينية وأقاموا دولة لهم على أنقاضها وورثوا لغتها وديانها وتقاليدها شعبيها وخلفوها في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق حتى أضحوا في القرن الأول قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة العالمية⁽⁴⁶⁾.

ومرت مملكة سبأ استناداً على النقوش السبئية المكتشفة بمرحلتين تاريخيتين متتاليتين تتميز كل واحدة منهما بألقاب ملوكها.

عرفت المرحلة الأولى باسم بالمكربين وهي تمتد في الفترة ما بين عامي (800—650 ق.م) حيث تلقب فيها حكامها بلقب مكرب سبأ واتخذوا مدينة صرواح الواقعة غربي مارب عاصمة لهم. وورث السبئيون المعينيين وأضحوا سادة البلاد العربية الجنوبية، وكان حاكم البلاد (مكرب) يقوم بدور الملك والكاهن معاً ويدل ذلك على مدى القداسة التي اعتمد عليها الحكام السبئيون في حكم دولتهم ويتراوح قيام المملكة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، وماورد في القرآن الكريم من ذكر ملكة سبأ وعلاقتها بالنبي سليمان عليه السلام أي في القرن العاشر قبل الميلاد فالراجح أنه يعني السبئيين الذين يسكنون آنذاك في شمالي الجزيرة العربية⁽⁴⁷⁾.

تمكن العلماء من جمع أسماء زهاء سبعة عشر مكرباً وردت في النقوش العربية الجنوبية أولهم (سمه علي) (800—780 ق.م) مؤسس المملكة وقد قاد قبيلته من الفيافي والقفار إلى الأرض السعيدة التي تفيض لبناً وعسلاً، واتخذ مدينة صرواح عاصمة لمملكته. وكان هذا المكرب يقدم البخور باسمه ونياية عن قبيلته للإله ألمقة إله القمر. وخلفه ابنه يدع إل ذرح (780—760 ق.م). وقد بنى معبداً للإله ألمقة في مدينة صرواح، كما شيد معبداً آخر لهذا الإله في مأرب وقدم القرابين إلى الإله عثتر⁽⁴⁸⁾. وينسب إلى (يئع أمروتربن يدع إل ذرح) بناء معبد الإله (ألمقة) في بلدة داير الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف ويدل هذا المكان الذي أقيم فيه هذا المعبد أن السبئيين اصطدموا بالمعنيين وانتصروا على قبائل نجران وقتلوا عدداً من أفرادها. وكان كرب إل وتر آخر الحكام المكربين (620—610 ق.م) وقد قام بحروب توسعية قضى فيها على استقلال ممالك وإمارات في العربية الجنوبية أو أخضعها لحكم سبأ⁽⁴⁹⁾. وبعد أن سيطر

كرب إل وتر على بلاد اليمن غير لقبه ولقب نفسه بلقب ملك سبأ (610ق.م — 600ق.م)، واقتدى به من جاء بعده من الحكام وحملوا إلى جانب أسمائهم ألقاباً تدل على الفخامة مثل : وتر وتعني التعظيم، وبيين وتعني الممتاز، وذرح وتعني الشريف، ويهنعم وتعني المحسن، وينف وتعني السامي⁽⁵⁰⁾.
 أما المرحلة الثانية التي تلت عهد المكربين في التاريخ السبئي عرفت بمرحلة الملوك التي تلقب فيها الحكام بلقب ملك سبأ ومعظم الباحثين في التاريخ اليمني القديم يرجحون أن هذه المرحلة قد بدأت منذ فترة المكرب السبئي (كرب إل وتر) الذي تلقب بلقب ملك وقد توارث حكم سبأ عدد من الملوك حفظت لنا النقوش المسندية عدداً كبيراً من أسمائهم يعتقد أنهم قد حكموا بعد المكرب (كرب إل وتر). ولكن رغم العدد الوافر من النقوش إلا أنها لم تقدم لنا تفاصيل كافية تساعدنا على تكوين صورة عامة عن فترات أولئك الحكام وما حدث خلالها من تطورات في مختلف مجالات الحياة⁽⁵¹⁾.
 أما فيما يخص ديانة دولة سبأ يذكر الإله (تالب) الإله الرئيس لقبيلة همدان وكان هيكله الرئيس في ريام على جبل إتوة شمال صنعاء إلى غرب وادي الخارد، والإله (ألمقة) الإله الرئيس للسبئيين⁽⁵²⁾.



معبد ألمقة في صراوح من الداخل

أما الآلهة، الشمس يحدثنا القرآن الكريم أن ملكة سبأ على أيام سليمان عليه السلام كانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله⁽⁵³⁾. إضافة لمعبودهم الإله (ذسموى) إله السماء وعبادة هذا الإله تدل على التقريب والتوحيد والابتعاد عن الآلهة القديمة⁽⁵⁴⁾.

أضحى السبئيون في القرن الأول قبل الميلاد أعظم وسطاء للتجارة في العالم القديم. ونمت دولة سبأ وازدهرت نتيجة احتراف الزراعة والعمل التجاري ووصل نفوذها إلى نجد والحجاز في شمالي الجزيرة العربية، كما فرض السبئيون سيطرتهم على طريق التجارة الذي يربط جنوبي الجزيرة العربية بالشام ومصر، وأنشأوا خطوطاً برية جديدة تحاذي ساحل الجزيرة العربية الغربي وتؤدي إلى مكة والبتراء ثم تتشعب على فروع تصل إلى الشام ومصر عن طريق غزة والعراق وعينوا مراكز لنزول القوافل والتجار لتحصيل المكوس ومراقبة الرجال المرافقين للقوافل ووضعت فيها حاميات عسكرية للمحافظة عليها وكانت ديدان المركز الرئيس الذي يمارس منه نفوذها على شمالي الجزيرة العربية⁽⁵⁵⁾. وعلى الرغم من قوة مملكة سبأ واتساع نفوذها إلا أن قوافلها كانت تتعرض لتعديلات البدو أثناء سيرها على الطرق التجارية كما أنها لم تتحمل دائماً مشقات السفر البري مما دفعها إلى التحول إلى البحر الأكثر أماناً والأقصر مسافة فكانت مستوردات الهند وإفريقيا تُخزن في مرافئ السبئيين مثل موزا وعدن ثم تنقل بحراً إلى مرفأ أيلة ومنه إلى قُفط على النيل⁽⁵⁶⁾. ومع اهتمام السبئيين بالتجارة اهتموا بالزراعة. ولما كانت الأمطار في ذلك الإقليم موسمية فقد أنشأوا سداً ضخماً وهو المعروف باسم سد مأرب وحفروا الترع والقنوات واستخدموا المياه استخداماً حسناً للزراعة إذ كانوا ينفلون هذا السد في موسم الخريف فيحجز وراءه مياه السيول التي تحفظ حتى موسم الجفاف فتروى بها الأرض⁽⁵⁷⁾.



سد مأرب

ويعد سد مأرب من أهم السدود التي اكتسبت شهرة في تاريخ اليمن والجزيرة العربية. حيث بدأ السبئيون في بنائه في القرن الثامن قبل الميلاد، واتخذ شكله النهائي من خلال الترميم الذي أجراه الملك شمر يهرعش الثالث في سنة (300م) وهو يشكل العمود الفقري لتنظيم الري الاصطناعي وتطور الزراعة الكثيفة في الجزيرة العربية الجنوبية. وقد بنى في وادي أدنة بين سلسلتين عاليتين من الجبال على بعد أكثر من ثلاثة أميال من مأرب وتتجمع فيه روافد عدة من زمرار وجهران وخولان وبلاد مراد وردمان وغيرها⁽⁵⁸⁾. وأفاد سد مأرب في ري الأراضي المرتفعة حتى وجدت فيها جنتان عن يمين وشمال، كما جاء في القرآن الكريم. وأوجد عرب جنوب الجزيرة العربية تشريعاً خاصاً لضمان ترميم السدود والاستفادة منها والسهر على حسن توزيع مياهها وحراسة سواقيها مما أدى إلى زراعة مساحات واسعة بالحبوب والثمار والبخور والعمود والنخيل.⁽⁵⁹⁾

وأصبحت دولة سبأ ذات ثراء عريض جداً حيث مكث أهلها على ذلك قروناً وسنين في قوة ومنعة فدانته لهم البلاد وأطاعهم العباد ثم أمروا بأن يستمتعوا برزق الله شاكرين ولكنهم بعد ذلك كفروا بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بل عدلوا عن عبادته وسجدوا للشمس من دونه سبحانه وتعالى (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنَبًا يَقِينٌ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ⁽⁶⁰⁾). فسلبهم الله سبحانه وتعالى هذا الرخاء الجميل الذي كانوا يعيشون فيه وأرسل عليهم السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه لشدة تدفقه فانهار سد مأرب وتحولت كثير من الأراضي الزراعية إلى أرض جرداء قاحلة تتناثر فيها الأشجار الخشنة (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ⁽⁶¹⁾). كانت نهاية سد مأرب نهاية للمملكة السبئية كلها إذ تشتت معظم سكانها وهاجروا إلى شمال الجزيرة العربية باحثين عن موطن آخر لكسب عيشهم⁽⁶²⁾. وفي سنة 115 ق.م سنحت الفرصة لفرع من سبأ وهم الحميريون لتأسيس مملكة جديدة هي دولة حمير في إقليم ظفار جنوب مدينة مأرب⁽⁶³⁾.

خامساً: مملكة أوسان (230—115 ق.م):

شهد الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية عدداً من الممالك الصغيرة الثرية مثل مملكة أوسان أو أوسن وعاش شعب هذه المملكة في الجزء الجنوبي من مملكة قتبان، وقد أسس له مملكة اقتطعت بعض

الأراضي القتبانية والحضرية. وبقي اسمها حياً في القلب عند بعض منسوبيها إلى ما بعد ظهور الإسلام⁽⁶⁴⁾. واشتهرت مملكة أوسان بتجارة البخور وإبان ازدهارها قد نافست سبأ منافسة شديدة واستطاعت أن تحتكر التجارة البحرية وخاصة في السلع الإفريقية، وذلك من خلال سيطرتها على الأجزاء الساحلية في الشاطئين اليمني والإفريقي. ولم يكن أمام سبأ وقتها إلا أن تهتم بطرق القوافل البرية والزراعة. ثم جاءت حروب الملك كرب إل لتحقيق لسبأ السيطرة الكاملة على الطرق التجارية إذ اجتاح ذلك الملك معظم المدن الواقعة على البحر وضمها إلى دولته⁽⁶⁵⁾. وقد لفتت الكواكب انتباه الأوسانيين فعبدوا القمر باسم ود، والشمس، والزهرة باسم عثر. ووجدت إلى جانبهم بعض المعبودات الأخرى مثل إل، بلو، بشام، ووب، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ربما وصل أحد ملوكهم ويدعى (يصدق إل فرعم شرح عت) إلى درجة التأليه، وأقاموا إلى تلك المعبودات معابد وتقدموا لأجلها بالعطايا والقربان في محاولة منهم لكسب رضاها وإبعاد أذاها عنهم⁽⁶⁶⁾.

وإلى جانب التجارة مارس الأوسانيون فن النحت فقد عثر على تماثيل رخامية لبعض ملوكهم كتب على قاعدة كل واحد منها اسم الملك الذي يمثله، وقد تأثر النحاتون العرب بالفن الإغريقي المستورد عبر غزة واستدل على ذلك من طراز التمثال الذي نُحت ليمثل الملك وشكل اللباس الملكي وهو على الطراز اليوناني في التماثيل اليونانية المنحوتة⁽⁶⁷⁾.



صورة الملك الأوساني يصدق إل فرعم شرح عت

سادساً : مملكة حمير: (115ق.م — 525 م) :



ورث الحميريون بلاد سبأ ومعين بعد تدهور سبأ فقامت على أنقاضها في سنة 115ق.م، واتخذوا مدينة ظفار عاصمة لبلادهم، والحميريون من أصل سامي ورثوا لغة من سبقهم في بلاد اليمن فهم يعتبرون جماعة من السبئيين كانوا كأقيال (حكام أو أمراء) في مناطق مختلفة من بلاد اليمن وزاد اتحادهم شيئاً فشيئاً حتى عظم شأنهم واستولوا على ملك سبأ وأطلق على ملكهم (ملك سبأ وذي ريدان) ويبدو أن ريدان كانت مقر ملكهم الأول قبل توسعهم ثم ما لبثوا أن ضمو حضرموت فأصبح ملكهم يدعى ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت⁽⁶⁸⁾. وقد عاصرت مملكة حمير ثلاث ممالك كبيرة هي الفرس والرومان والحبشة وكانت كل هذه الدول تحاول أن تسيطر على طرق التجارة بين الهند والبحر الأبيض المتوسط براً وبحراً. واستطاع الحميريون أن يسيطروا على الطرق الجنوبية حتى نهاية القرن الأول للميلاد، وساعدهم على ذلك نشاطهم التجاري، وظهور الامبراطورية الرومانية التي سلخت البحر الأبيض المتوسط من مدينتي مابين النهرين وفارس⁽⁶⁹⁾. وتطلعت روما منذ القرن الأول الميلادي صوب سبأ ومدنها التجارية فتحالفت مع الأحباش لتحقيق مصالحها في اليمن بعد أن اعترض اليمنيون السفن الرومانية واستولت على بعض الأماكن في اليمن في عهد الامبراطور كلاوديوس (41 — 54 م)⁽⁷⁰⁾. وفي القرن الرابع الميلادي بدأ في اليمن هجوم حبشي في عهد النجاشي (العلي إسكندي) من

أجل الدفاع عن مصالح الحبشة الاقتصادية في وجه الوثبة الحميرية للسيطرة على طرق التجارة الشرقية ومهاجمة الحميريين للتجارة الحبشية. وكرد فعل على سيطرة الحميريين على ساحل أزيانيا في القرن الأول الميلادي فأراد الأحباش تأديب هؤلاء ومنعهم من تكرار ذلك واكتملت السيطرة الحبشية على البلاد في سنة (345م) في عهد الملك الحبشي (العلي عميدة) (340—348م). وقد حدث ذلك في عهد الملك الحميري (يريم يرحب بن شمر يهرعش) الذي فر مع أولاده إلى يثرب. ويبدو أن الأحباش قد تلقوا مساندة من الامبراطور البيزنطي قسطنطيوس (337—361م) الذي كان يهدف إلى نشر الدين النصراني في بلاد العرب والمعروف أن الحبشة كانت آنذاك على صلات طيبة مع البيزنطيين من الناحيتين السياسية والتجارية واستغل الامبراطور البيزنطي ذلك لنشر النصرانية بين الأحباش أيضاً فاعتنق ملك الأحباش عيزانا المسيحية وأعلنها ديناً رسمياً للدولة⁽⁷¹⁾.

استمر الاحتلال الحبشي لليمن أقل من أربعين سنة، ولكن أخذت قبضة الأحباش تتراجع بسبب ثورة نشبت في جنوبي الحبشة فانتهز الملك الحميري (ملكي كرب يهأمن) الثورة الحبشية فثار على الاحتلال الحبشي في عهد آخر وإل حبشي على اليمن يدعى (سازانا) وتمكن من طرد الأحباش واسترداد البلاد في سنة 378م⁽⁷²⁾.

وفي القرن السادس الميلادي استعادت الامبراطورية الرومانية قوتها تحت الأباطرة جستين ومن بعده جستينيان (528—556م) وأخذ التجار المصريون والرومانيون المسيحيون يبحرون من مصر في البحر الأحمر حتى يصلوا إلى الهند. وبرهنت المراكب الرومانية على أنها أفضل وسائل السفر والنقل في العالم حتى شعر الحميريون بخطورة المنافسة الرومانية، واستطاع الرومان الوصول إلى سواحل وشرق إفريقيا، وكان العرب هم الذين احتكروا تجارة البهارات والحريير والعطور الشرقية واللآلئ غير أنهم وجدوا منافساً خطيراً في الرومانيين⁽⁷³⁾.

وبينما كان الرومان يعتنقون المسيحية، وكذلك الأحباش الذين كونوا دولة أكسوم، كان بعض الحميريون يعتنق اليهودية والآخر يعتنق الوثنية ثم ظهرت في نجران بوادر التبشير المسيحي، وأخذ عدد المسيحيين فيها يزداد وخشي ذو نواس ملك حمير نفوذ المسيحيين الأحباش على النجرانيين وتخوف من تحالف نجران المسيحية باليمن وأكسوم على بلاده ودينه للاستيلاء على اليمن والسيطرة على التجارة فأراد استباق هذا الحدث بضربة وقائية فخير أهل نجران بين ترك المسيحية والدخول في الدين اليهودي وبين حرقهم في النار

وقد فضل معظمهم الموت في سبيل إيمانهم فحفر أخاديد في الأرض وأحرقهم فيها وأحرق كتابهم الإنجيل وكان ذلك في سنة 520 م⁽⁷⁴⁾. وقد اشتهرت في التاريخ باسم معركة الأخدود.

غير أن هذه الحادثة كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير إذ اتخذها الأكسوميون ذريعة للهجوم على اليمن إذ سبق أن هاجم الحميريون المراكب المصرية الرومانية التي ذهبت على الهند وسيلان، واعتدوا عليها، ورأى الأكسوميون أن ينظفوا البحار من القرصنة الحميرية للتجارة الحرة بين العالم الشرقي والعالم المسيحي. وكان الأحباش قد ارتبطوا بمحالفه مع امبراطور القسطنطينية، وطلبوا منه أن يرسل إليهم مبشراً ليعلمهم المسيحية، فأرسل إليهم الامبراطور القس يوحنا (جون) الذي أنشأ كنيسة القديس يوحنا، ثم سافر بسفراء من الحبشة إلى القسطنطينية، وعاد حيث استوطن الحبشة. وكان لهذا الحلف أثره في الهجوم على دولة الحميريين⁽⁷⁵⁾.

قامت بيزنطة بتجهيز حملة عسكرية مع الحبشة لإرسالها إلى اليمن وهذا كان يتطلب تبريد جبهات الصراع مع الفرس وخاصة في بادية الشام وعزل ذي نواس عن حلفائه الفرس وملوك الحيرة وقد حقق مؤتمر الرملة الذي انعقد في سنة 524 م الرغبة البيزنطية. لذا فقد ذي نواس أي مساعدات من حلفائه الفرس وملوك الحيرة⁽⁷⁶⁾.

عين نجاشي الحبشة على قيادة الحملة قائداً يدعى أرياط بن أصحمة يساعده أبراهة وأوصاه بأن ينتقم من ذي نواس وجنده انتقاماً شديداً. وقد أبحرت الحملة من بلاد ناصع وزيلع في ساحل الحبشة، ونزل أفرادها على ساحل زبيد من أرض اليمن فقضت هذه الحملة على دولة حمير في سنة 525 م. فلما رأى آخر ملوك حمير ذو نواس ما نزل به وبقومه ألقى بنفسه في البحر فمات⁽⁷⁷⁾. وبانتحار ذي نواس وباحتلال الأحباش لبلاد اليمن تنتهي مملكة حمير، ويبدأ عهد جديد في تلك البلاد هو الاحتلال الحبشي الذي امتد حتى سنة 575 م.

الخاتمة :

قامت في اليمن بجنوب غرب شبه الجزيرة العربية قديماً ممالك ذات أنظمة اقتصادية متصلة بالتجارة العالمية وأثرت فيها تأثيراً بعيداً. فبلاد اليمن كانت تصدر البخور والعطور العربية كما كانت مركزاً مهماً للاتصال التجاري بين المحيط الهندي والبلاد الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط. فأصبحت صلة الوصل بين الحضارات القديمة في مصر والشام والحبشة واليونان. وقد احتلت التجارة مركزاً مهماً في الحياة الاقتصادية لبلاد اليمن،

وكانت موانئ الشواطئ الجنوبية للجزيرة العربية مركزاً للتبادل التجاري تأتيها السفن من الهند وجنوبي آسيا وشرقي إفريقيا حاملة سلع تلك البلاد خصوصاً البخور فتتقلها القوافل من شبه جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها مارة بالمراكز التجارية المهمة مثل صنعاء ومأرب وغيرها إلى سوريا ومصر وجزر البحر المتوسط ثم تعود القوافل بسلع تلك الجهات لتبيعهها في الأسواق القائمة على الطريق. وامتازت بلاد اليمن بالاهتمام بالزراعة وتخزين مياه الأمطار، ومن أشهر آثارها السد الحجري الضخم الذي أقامه أهالي اليمن في (واد الجبال) بالقرب من مأرب لخزن مياه السيول وعرف ذلك باسم سد مأرب. وقد أقاموه للاستفادة من المياه المخزنة في ري المناطق المجاورة بالتحكم في السيول التي كانت تتدفق فتخزن ما حولها. وقد أدت إقامة السدود وشق الترع والسيطرة على المياه إلى زراعة مساحات واسعة من الأراضي بالفواكه والحبوب والنخيل. وعبد اليمنيون بعض الكواكب كالقمر والشمس والزهرة، حتى تسربت اليهودية والمسيحية في القرنين الثالث والرابع للميلاد. وعكست بقايا التماثيل والأعمدة والقصور والمعابد والسدود التي عثر عليها من آثار مدن اليمن القديمة قدرة اليمنيين العالية في فن البناء والعمارة. وجاء في القصص القديمة أخبار كثيرة عن مدى ما بلغته مدن سبأ وحميز من الأبهة والعظمة ما كان لقصورها الرائعة من أعمدة رخامية وزخارف جميلة وأثاث ضخم وتدل هذه المدن وخاصة مدينة مأرب على ما كانت عليه من روعة وفخامة. وهكذا شهدت حضارات اليمن القديمة الاهتمام بالزراعة والاعتماد عليها وفي ريادتها في حركة التبادل التجاري مع بعض دول العالم القديم، وفي تقدم الفنون والعمارة حيث تشهد بذلك الآثار الرائعة الباقية في كل مكان من بلاد اليمن.

النتائج :

1. كان الشعب اليمني حلقة الاتصال بين الشرق والغرب وصلة الوصل بين إفريقيا والهند من ناحية وبين الشرق العربي من ناحية أخرى.
2. معرفة تاريخ ممالك اليمن القديمة يعيننا على فهم حاضر الإنسان اليمني وكيف وصل إلى ما هو عليه.

التوصيات:

1. تشجيع البحوث والدراسات في مجال التقنيات الأثرية لكافة الحضارات القديمة لليمن والوقوف على إيجابياتها وسلبياتها.
2. أن تدعم المراكز البحثية الباحثين في مجال البحوث الحضارية للعمل الميداني المشترك في مناطق الحضارات القديمة في الوطن العربي القديم (وادي النيل، بلاد الرافدين، سوريا، جنوب شبه الجزيرة العربية). وذلك للوصول إلى بعض الحقائق الغائبة.

المصادر والمراجع:

- (1) ابراهيم أحمد العدوي، التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1396هـ — 1976م، ص 9.
- (2) لمرجع نفسه، ص 14 — 15.
- (3) محمد عبدالقادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، تيسان 1985م، ص 11.
- (4) أحمد أمين سليم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة كريدية أخوان، بيروت، د.ت، ص 6.
- (5) المرجع نفسه والصفحة.
- (6) ابراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 9.
- (7) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، معجم البلدان، ج5، دار صادر، دار بيروت، 1979م، ص 160.
- (8) سعد زغلول عبدالحميد، في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص 182.
- (9) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، دار الهلال، القاهرة، د.ت، ص 132.
- (10) محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1430هـ — 2009م، ص 287.
- (11) المرجع نفسه والصفحة.
- (12) ضرار صالح ضرار، العرب من معين إلى الأمويين، ط4، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1978م، ص 17.
- (13) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 72.
- (14) المرجع نفسه، ص 72 — 73.
- (15) ابراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 10.
- (16) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص 31.
- (17) المرجع نفسه، ص 31 — 32.
- (18) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 74.
- (19) المرجع نفسه والصفحة.
- (20) المرجع نفسه، ص 75.
- (21) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص 47.
- (22) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 75 — 76.
- (23) المرجع نفسه، ص 76.
- (24) المرجع نفسه، ص 76 — 77.

- (25) المرجع نفسه، ص 77.
- (26) المرجع نفسه، ص 78.
- (27) المرجع نفسه، ص 78 — 79.
- (28) فؤاد حسنين علي، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم، ليدتليف نلسن، مكتبة النهضة المصرية، 1993م، ص 287.
- (29) المرجع نفسه، ص 287.
- (30) المرجع نفسه، ص 285 — 287.
- (31) المرجع نفسه، ص 287.
- (32) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص 36 — 37.
- (33) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 293.
- (34) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص 37.
- (35) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 82.
- (36) المرجع نفسه والصفحة.
- (37) المرجع نفسه والصفحة.
- (38) المرجع نفسه، ص 91.
- (39) سورة سبأ، الآية 15.
- (40) المصدر نفسه، الآية 18.
- (41) سورة النمل، الآية 23.
- (42) المصدر نفسه، الآية 32.
- (43) التوراة (العهد القديم)، سفر المزامير، الاصحاح (المزمور)، الثاني والسبعون لسليمان، الآية 10.
- (44) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص 52 — 53.
- (45) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 91.
- (46) السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص 134.
- (47) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 297.
- (48) أحمد فخري، الاكتشافات الأثرية في اليمن، مصر، 1961م، ص 255 — 266.
- (49) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 297.
- (50) جرجي زيدان، المرجع السابق، ص 139.
- (51) محمد عبدالقادر بافقيه، المرجع السابق، ص 71.
- (52) خليل يحي نامي، تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخهم، لغاتهم، ألهمهم، مكتبة الدراسات الأدبية (98)، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 138 — 139.

- (53) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 206.
- (54) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 274.
- (55) فيليب حتى وادوارد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب، ط5، دار غندور، بيروت، 1974م، ص 81 — 82.
- (56) جرجي زيدان، المرجع السابق، ص 80.
- (57) ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص 20.
- (58) الحسن بن أحمد الهمداني، الإكليل، ج1، ط3، تحقيق محمد بن علي الأكوع، شركة التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1986م، ص 125.
- (59) ابراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 14.
- (60) سورة النمل، الآية 23 — 24.
- (61) سورة سبأ، الآية 16.
- (62) ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص 20.
- (63) ابراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 10.
- (64) عبدالعزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، القاهرة، 2006م، ص 93.
- (65) محمد عبد القادر بافقيه، المرجع السابق، ص 22.
- (66) محمود عبدالباسط عطية، الحياة الدينية في مملكة أوسان في ضوء النقوش العربية الجنوبية القديمة، في مجلة جامعة الملك سعود، السياحة والآثار، مجلد (26)، العدد (2)، السعودية، 2014م، ص 145.
- (67) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 294.
- (68) ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص 20 — 21.
- (69) المرجع نفسه، ص 21.
- (70) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 307.
- (71) المرجع نفسه، ص 307 — 308.
- (72) جرجي زيدان، المرجع السابق، ص 147.
- (73) ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص 21 — 22.
- (74) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج1، المكتبة المرتضوية، النجف، 1358هـ، ص 245.
- (75) ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص 22.
- (76) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 317.
- (77) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، دار الفكر للطباعة والنشر، 1979م، ص 2.

الصراع العثماني البرتغالي حول البحر الأحمر والقرن الإفريقي خلال القرن السادس عشر الميلادي

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم
الإنسانية - جامعة صنعاء - اليمن .

أ.م.د. عبد الحكيم عبد المجيد الهجري

المستخلص:

احتلت الممرات والمضائق المائية دوراً محورياً في العلاقات الدولية بشقيها الاستراتيجي والتجاري وقلما تجتمع لمنطقة ما من العالم المميزات الجغرافية والحضارية والسياسية مثلما اجتمع لمنطقة البحر الأحمر وشرق إفريقيا (القرن الإفريقي) بموقعهما الوسط كشريان حيوي للمواصلات المائية، وبتوسطهما بين حضارات العالم المختلفة من عربية وإفريقية وغيرهما، وترجع أهمية البحر الأحمر وشرق إفريقيا إلى أنهما كانا ومازالا همزة الوصل بين الشرق والغرب، فيما يمثل البحر الأحمر بأنه يختصر المسافة بين الغرب الأوروبي والشرق الإفريقي والآسيوي اختصاراً شديداً في الوقت والمال والزمان بالنسبة للإبحار فيه. ولقد أولى العثمانيون منذ سنة 1517م اهتماماً بالغاً بالبحر الأحمر وشرق إفريقيا وأصبحت مسؤولية حمايتهما وسواحلهما تقع على عاتقهم، وكان عليهم مراقبة الأطماع البرتغالية في هذين المنفذين البحريين ومداخلهما، ولقد بدأت خلال هذه الفترة مرحلة جديدة من التنافس حول هذا البحر والقرن الإفريقي وممارسة النشاط التجاري فيهما، حيث بذل العثمانيون جهداً كبيراً للحفاظ عليهما كبحيرة إسلامية وتركز النشاط التجاري فيه على القوى الإسلامية وبخاصة في يد العرب والمسلمين وقد اتسمت خطواتهم الأولى بالحد. حيث إننا نجد أن الحملات البرتغالية استمرت وبشدة على سواحل البحر الأحمر في الأعوام 1523-1620م. أما بالنسبة للبرتغال فقد كانت من أوائل الدول الأوروبية التي سعت للتوسع خارج أراضيها وذلك منذ القرن (15م) ،ولهذا استغلت الدولة قربها الجغرافي من شمال القارة الإفريقية، فعملت على إقامة المراكز العلمية التي تهتم بالكشوفات الجغرافية، ويعد موضوع الصراع العثماني البرتغالي خلال القرن السادس عشر الميلادي، والذي كان موازياً لحركة الكشوف الجغرافية للسيطرة على البحر الأحمر والقرن الإفريقي، في الفترة مابين (1500 - 1600م) - والتي ابتدأت بالمرحلة الكشفية عبر البحار، حيث وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح بقيادة (بارثولومدياز) - يعد البداية الفعلية لافتتاح صفحة الاستعمار الحديث والأطماع الأوربية في القارة الإفريقية،

من خلال تجارة الهند الشرقية المتمثلة (بالتوابل). ولقد وقف العثمانيون في وجه البرتغاليين- بعد أن نشروا الخراب في الشرق، حيث استطاعوا أن يطردوا البرتغاليين من البحر الأحمر ثم سيطروا على الأجزاء الشمالية من شرق إفريقيا (إريتريا وشمال الصومال) .

Abstract::

The waterways and straits played a pivotal role in the strategic and commercial aspects of the international relations .It is rarely to have together the geographic، civilization، and political features of a region in the world as same as the Red Sea and East Africa(Horn of Africa).Their central location is the lifeblood for marine transportation due to their mediation between the different civilizations of the world as Arabic، African and others. The importance of the Red Sea and East Africa is owing to the fact that they were and still are the main link between East and West .The Red Sea shortens the distance between the Western Europe and the East of Africa and Asia. Furthermore، it is a severe abbreviation in saving time and money .Since 1517 A.D، Ottomans paid a great attention to the Red Sea and East Africa. They were responsible to protect them and their coasts. Thus ،They had observed the Portuguese ambitions in these two seaports and their entrances .During this period ،It began a new stage of competition to control over the Red Sea and African Horn(Cape of Good Hope) and there was also a practice of commercial activity in them .The Ottomans made a great effort to preserve them as an Islamic lake. The Commercial activity focused on Islamic forces ، especially in the hands of Arabs and Muslims .Thus، the Ottomans'first steps were very cautious. As we find that the Portuguese campaigns continued strongly on the coasts of the Red Sea in the years 1523-1620 A.D.For Portugal، it was one of the first European countries that sought to expand outside its territories since the 15th century AD .،For this reason، Portugal took advantage of its geographical proximity to the north of the African continent، and worked to establish scientific centers

that are concerned with geographical discoveries. Meanwhile, the Ottoman-Portuguese conflict in 16th century, there was also a parallel movement for nautical expeditions and geographical discoveries to control the Red Sea and Horn of Africa (1500-1600 A.D). After the Portugues spread out the destruction in the East, the Ottomans stood up to fight the Portugese and succeeded to expel them from the Red Sea and then they took control of the northern parts of East Africa as Eritrea and north Somalia.

المقدمة:

يعد موضوع الصراع العثماني والبرتغالي والذي قام في بداية القرن السادس عشر وكان موازياً لحركة الكشوف الجغرافية للسيطرة على البحر الأحمر والقرن الإفريقي، في الفترة ما بين (1500 - 1600م) - والتي ابتدأت بالمرحلة الكشفية عبر البحار، حيث وصل البرتغاليون إلى رأس الرجاء الصالح بقيادة (بارثولوميدياز 1487م) - يعد البداية الفعلية لافتتاح صفحة الاستعمار الحديث والأطماع الأوربية في القارة الإفريقية، من خلال تجارة الهند الشرقية المتمثلة (بالتوابل)، والتي اشتهرت بها. ومن ثم انقلهم إلى مرحلة حاولوا فيها السيطرة على الساحل الإفريقي الشرقي (القرن الإفريقي)، من خلال فرض قوتهم حيث عملوا على بناء القلاع والحاميات الدفاعية، في سبيل تحقيق هدفهم ذلك، ومن ثم جاءت مرحلة محاولتهم النفوذ إلى الداخل، من خلال محاولتهم التحالف مع بعض الزعامات المحلية هناك، إضافة لتعاونهم الكبير من الأحباش، ولذلك فد واجهتهم الدولة العثمانية بشكل جدي من خلال مقاومتها لهم أثناء محاولات السيطرة تلك.

تمهيد:

قلما تجتمع لمنطقة ما من العالم المميزات الجغرافية والحضارية والسياسية مثلما اجتمعت لمنطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي بموقعهما الوسط كشريان حيوي للمواصلات المائية، وبتوسطهما بين حضارات العالم المختلفة من عربية وإفريقية وغيرهما، ولقد احتلت الممرات والمضائق المائية دوراً محورياً في العلاقات الدولية بشقيها الاستراتيجي والتجاري. وقبل هذا وذاك محورها التاريخي عبر العصور. إذ إن من البديهي لباحث التاريخ أن يتعرف على الموقع لدراسة تاريخ أية أمة أو دولة أو بحر. باعتبار أنه من العوامل الأساسية في تشكيل الأحداث التاريخية. وترجع أهمية البحر الأحمر وشرق إفريقيا إلى أنهما كانا ومازالا همزة الوصل بين الشرق والغرب، فيما يمثل البحر الأحمر بأنه يختصر المسافة بين الغرب الأوروبي والشرق الإفريقي والآسيوي اختصاراً شديداً في الوقت والمال والزمان بالنسبة للإبحار

فيه. ويتميز البحر الأحمر بين بحار العالم بموقعه الفريد، فهو يقع عند التقاء القارات الثلاث إفريقيا وآسيا وأوروبا، كما أنه يشكل حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والغربية، ويعتبر الشريان الحيوي المهم للمواصلات بين أوروبا وبلاد الشرق بوجه عام، وقد ظل البحر الأحمر على مدى العصور التاريخية المتعاقبة، عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به بعضها ببعض، فهو يشكل طريقاً للملاحة البحرية بينها، ووسيلة تسهل التبادل التجاري والحضاري بين شعوبها، فكان بذلك سبباً في ازدهارها، كم أنه ظل مطمحاً للقوى الكبرى تتطلع دائماً للسيطرة عليه لتتحكم في تجارة الشرق، وليكون لها السيادة على غيرها. وفي حقيقة الأمر فقد أولى العثمانيون منذ سنة 1517م اهتماماً بالغاً بالبحر الأحمر ومنطقة شرق إفريقيا (القرن الإفريقي) وأصبحت مسؤولية حمايتهما وسواحلها تقع على عاتقهم، وكان عليهم مراقبة الأطماع البرتغالية في هذين المنفيين البحريين ومداخلهما، ولذا فقد بدأت مرحلة جديدة من التنافس حول هذا البحر وممارسة النشاط التجاري فيه، وقد بذل العثمانيون جهداً كبيراً للحفاظ عليه كبحيرة إسلامية وتركز النشاط التجاري فيه على القوى الإسلامية وبخاصة في يد العرب والمسلمين واتسمت خطواتهم الأولى بالحذر الشديد، نتيجة للحملة البحرية -العسكرية- البرتغالية والتي استمرت وبشدة على سواحل البحر الأحمر في الأعوام 1523-1620 م.

أما بالنسبة للبرتغال فقد كانت من أوائل الدول الأوروبية التي سعت للتوسع خارج أراضيها وذلك منذ القرن (15م)، ولهذا استغلت دولة البرتغال قربها الجغرافي من شمال القارة الإفريقية، فعملت على إقامة المراكز العلمية والتي تهتم بالكشوفات الجغرافية، واستدعت العلماء والمختصين ممن كان لهم علاقات مع العرب والذين استفادوا من النهضة العربية العلمية في حينها، بحيث اقتبسوا من الخرائط التي رسمها بعض المسلمين (كالإديسي، البيروني)، وأيضاً ممن اهتموا بالبحر وريادة السفن الملاحية كابن ماجه وغيرهم. ولذلك فإن البحث سوف يتطرق إلى الأوضاع التي كان يمر بها البرتغال في القرن (16م) سواء كانت (سياسية - علمية - اقتصادية) وهي ما جعلتهم يفكرون بالقيام بالكشوفات الجغرافية. التي كانت المقدمة الأولى للاستعمار الأوروبي بالقارة هذا من جانب، ومن جانب آخر سنحاول التطرق إلى جهود العثمانيين لإيقاف هذا المد البرتغالي الذي بات يشكل خطراً قوياً على دولتهم بشكل عام، وعلى خطوط التجارة العالمية -حينذاك- بشكل خاص.

ونظراً للأهمية التي ميزت البحر الأحمر والقرن الإفريقي وجعلتهما هدفاً رئيساً سعى العثمانيون والبرتغاليون للسيطرة عليهما، حيث تكمن أهميتهما الاستراتيجية وذلك

لوقوعهما على الطريق الذي يصل إفريقيا عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي وصولاً إلى أرض التوابل (جزء من الهند الشرقية) بالإضافة إلى أن بعض العوامل ساعدت البرتغاليين ودفعتهم للقيام بالرحلات والكشوف الجغرافية ونجاحهم في الوصول إلى القارة الإفريقية والمتمثلة بالقرب الجغرافي من أوروبا وإلى جانب الهدف الديني والقائم على نشر المسيحية بين الإفريقيين.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه:

1. يتناول موضوعاً مهماً له عظيم الشأن في المنطقة العربية والعالم، حيث يعتبر البحر الأحمر والقرن الإفريقي المنفذ البحريين اللذين يربطان القارتين الآسيوية والإفريقية بالعالم الإسلامي والأوروبي.
2. يمثلان للدول المطلة عليهما أهمية أمنية كبرى وعمقاً استراتيجياً مهماً.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى القراءة التحليلية للأوضاع التي جرت في منطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي، ومحاولة التطرق إلى المجريات الواقعة خلال هذه الفترة (موضوع البحث) بهدف السيطرة على منافذ التجارة العالمية آنذاك.

إشكالية البحث:

يحاول البحث الإجابة على مجمل من التساؤلات التالية:

ماهي الأسباب التي أدت الى اهتمام الدولة العثمانية بمنطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي، وماهي الأسباب التي نتج عنها قيام البرتغاليين بحركة البحوث الجغرافية في القرن (15م)؟ وهل نجحوا في ذلك؟ هل لعبت الظروف الداخلية في منطقة القرن الإفريقي الدور المهم والتي دفعت من خلالها البرتغال للسيطرة على هذا الجزء من إفريقيا؟ ثم ماهي الأحداث التي رافقتها؟ والتي مكنت البرتغاليين من تحقيق هدفهم الرئيس وهو نشر المسيحية ؟ ماهي التحالفات والصراعات التي جرت بين العثمانيين والبرتغاليين وسكان القرن الإفريقي والبحر الأحمر ؟

منهج البحث:

سوف تعتمد دراسة البحث المنهج التاريخي التحليلي .

سنحاول بدايةً التطرق إلى البرتغال لما يمثل وجودها في هذين المنفذين البحريين من أهمية لفتت أنظار الدولة العثمانية إليها.

أوضاع البرتغال في أوروبا قبيل القرن (١٦م).

كانت البرتغال قبل قرنين من بداية القرن (15م)، قد نالت واستكملت وحدتها واستقلالها وذلك في القرن (13م)⁽¹⁾، ولقد بدأت تتطلع إلى خارج أوروبا حيث مرت بأوضاع يمكن أن نوجزها فيما يلي:

1- الأوضاع السياسية:

في واقع الأمر لم يكن الوضع السياسي في البرتغال مستقراً والسبب في ذلك يرجع إلى النزاع والتنافس الذي كان قائماً بين الملوك في الأندلس، وهو ما نتج عنه نشوب الصراع النصراني الإسلامي، مما أدى إلى طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية عام (1492م) وضمها للأراضي التي أطلق عليها اسم (البرتغال)، ويعتبر الفونسو الأول المؤسس الحقيقي للمملكة، إضافة إلى عوامل اقتصادية جعلت من فئات الشعب تثور على الحكومة معلنة عن مطالبها، وهو ما دفع بهم إلى تبني عمليات الكشف الجغرافية وغزو البحار في فترات قادمة⁽²⁾. وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور دوافع اقتصادية وعوامل جغرافية قادت بالتالي البرتغاليين إلى التطلع خارج أرضهم والبحث عن أماكن جديدة وهو ما توضح جلياً في المستقبل القريب وهو القرن (16م).

2- الأوضاع العلمية:

نتيجة لاحتكاك العرب والمسلمين بالبرتغال، والذين كانوا يحكمون بلاد الأندلس لعدة قرون فقد انتشرت المعارف العلمية وخصوصاً في الجغرافيا والفلك والملاحة، ولذلك أنشأ البرتغاليون مدرسة لتخريج الملاحين المهرة، وهم من أسسوا الموانئ البحرية فيما بعد، وقرأوا رحلة ابن بطوطة⁽³⁾. وكان ابن بطوطة قد زار الهند والصين وإفريقيا وتعرف على أهلها وعاداتهم وتقاليدهم، ووصفها وحالة الثراء التي يعيش فيها أبناءها وخاصة في المناطق التي زارها، وعمل على تصحيح بعض المعتقدات والأفكار التي سادت أوروبا في مرحلة العصور الوسطى⁽⁴⁾. كما يلاحظ أن البرتغاليين استفادوا من التقنيات التي استخدمها العرب في الملاحة كاستخدام البوصلة البحرية، وأضافوا إليها مؤشراً يوضح من خلاله حركة الرياح وهو ما ساعد في تقدم الملاحة إلى جانب تقدمهم في مجال صناعة السفن والتي وصلت في وزنها إلى حوالي (200 طن)⁽⁵⁾.

الأوضاع الاقتصادية:-

أما بالنسبة للوضع الاقتصادي الذي حل على المملكة فقد تمثل بانعدام الذهب، مما أدى إلى توقفها عن إصدار العملة منذ العام (1435م)، وقد نتج عن ذلك حدوث أزمة اقتصادية واجتماعية حادة أضرت بالتجار والدولة والطبقة البرجوازية (النبلاء، الكنيسة)⁽⁶⁾. وقد ألزم انهيار الاقتصاد الضعيف

الدولة لأن تتدخل، ولكن ونظراً لفقر مواردها، فقد عمل حكامها على رفع ثروتها وذلك عن طريق الاهتمام بالتجارة والتخطيط للسيطرة على طرق وموارد إفريقيا أولاً ومن ثم الوصول إلى الشرق الإسلامي في المرحلة القادمة⁽⁷⁾. هذا فضلاً على أن القرن (15م) كان البداية للجهود البرتغالية التي بدأت مع مطلع ذلك بهدف التوسع الاقتصادي والذي توج على يد الأمير هنري الملاح، وهو ما انعش المملكة اقتصادياً وذلك بعد كشوفاتها الجغرافية واكتشاف رأس الرجاء الصالح على يد الرحالة بارثلمودياز⁽⁸⁾. ونتيجة ازدهار الوضع الاقتصادي لدى البرتغاليين واستقرار الأوضاع الداخلية ووفرة المال وبناء السفن فقد ساعدها ذلك على التفكير للقيام برحلات الكشف. الكشف الجغرافية البرتغالية:-

وقبل الحديث عن الكشف الجغرافية وأسبابها، فإنه يتوجب علينا في البداية التطرق إلى ماذا نعني بهذا المصطلح وما هي الدول التي قامت بهذه الحركة والتي كانت مقدمة المقدمات للاستعمار في إفريقيا.

(أ) الكشف الجغرافية (كمصطلح).

وهي الرحلات التي قامت بها بعض البلدان الأوروبية في القرن (15م) بهدف الكشف عن طرق جديدة لا يتحكم بها العرب والمسلمون، ومن ثم الوصول إلى مناطق إنتاج الذهب والفضة والتوابل وغيرها من السلع، وكانت أول تلك البلدان (البرتغال) والتي استفادت من التطور العلمي لدى جيرانها من العرب في ذلك⁽⁹⁾ ومن الأسباب التي دعت إلى الكشف.

1. كان من أول الأسباب التي دفعت بالبرتغال إلى الكشف هي احتكار أو معرفة الطريق التجاري الذي كان يسيطر عليه العرب. والذي تمثل في البحث عن السلع التي كانوا يشتهرون بها وخاصة (التوابل، اللبان).
2. اكتشاف الطريق الموصل إلى الهند وذلك لجلب العطور والتوابل الشرقية.
3. كما أن السبب المباشر والذي كانوا يدعونه وهو دافع نشر المسيحية والتبشير بها في المناطق التي تقع خارج الإطار الأوروبي⁽¹⁰⁾.
4. الرغبة في اكتشاف مناطق جديدة.

5. التأييد والترحاب الذي لاقاه الرحالة من قبل ملك البرتغال، وابنه الأمير هنري⁽¹¹⁾ والمعروف بـ (الملاح) والذي كان ملماً بالجغرافيا والرياضيات، وكان متحمساً لنشر المسيحية بين سكان القارة الإفريقية، والذي قاد حركة الكشف الجغرافية⁽¹²⁾.

ولذلك كله فقد كانت البرتغال أول دولة أوروبية بدأت حرك الكشف الجغرافية، وقد تزعم الأمير هنري الملاح العمل على كسب وضم أراضي وميادين جديدة للمسيحيين، حيث أمضى حوالي (40) عاماً في إعداد الحملات الاستكشافية وإيفادها إلى شواطئ إفريقيا، وأثناء ذلك تمكن البرتغال من اكتشاف بعض

الجزر في المحيط الأطلسي (غرباً) مثل (ماديرا ، كاناري ، أزور) إضافة إلى بعض المراكز في الشاطئ الإفريقي كالرأس الأخضر (1446م) والرأس الأبيض (1441م)، وكل هذا تم وبتشجيع من الأمير البرتغالي⁽¹³⁾. ولقد أثرت وفاة هنري الملاح عام 1460م في حركة الكشف الجغرافي ولكنها لم تتوقف خصوصاً بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين بأن إفريقيا هي القارة التي سوف تهيب لهم الموارد الغنية والثروة الطائلة من الأرباح التي سيجنونها من وراء تجارة الرقيق، والتي كان المؤسس لها الأمير البرتغالي هنري⁽¹⁴⁾ وتواصلت تلك الجهود على يد كثير من الرحالة، والذين أسهموا وبشكل كبير في بلوغ هذه المنطقة وعبر عدة رحلات كشفية وهي على النحو الآتي:-

الرحلات الكشفية:-

(أ) رحلة بارتلمودياز (1487م):

شهد القرن الخامس عشر الميلادي جهوداً برتغالية متواصلة من أجل الوصول إلى الهند، ولقد بلغت هذه الجهود قمته على يد القائد البحري الشهير بارتلمودياز الذي قام برحلة إلى الطرف الجنوبي من القارة الإفريقية وعبره لمسافة قصيرة في جو عاصف بعد أن قاسى الكثير من الصعاب والعراقيل خاصة الطبيعية، وأطلق عليه (رأس العواصف) وأسماء البرتغاليون تيمناً رأس الرجاء الصالح سنة 1487م⁽¹⁵⁾، إلا أن تلك الجهود توقفت لعشر سنوات، والسبب في ذلك يعود إلى أن الأسباب أعلنوا عن اكتشاف طريق سهلة توصل إلى كاليكوتا⁽¹⁶⁾، وهو ما دفع الملك عمانوئيل الأول (1495 - 1521م) فيما بعد لأن يوجه حكومته إلى ضرورة استئناف الحركة الكشفية⁽¹⁷⁾.

(ب) رحلة كوفيلهام (1487م):-

أرسل ملك البرتغال يوحنا الثاني (1481-1495م) بيرو دي كوفيلهام إلى الشرق في عام 1487م، وقد حدد الملك لكوفيلهام ثلاث مهام خلال هذه الرحلة، الأولى تتمثل في جمع المعلومات عن الحبشة التي كانت تعرف في أوربا حينئذ باسم (مملكة القديس جون أو يوحنا) من أجل السعي للسيطرة عليها، وذلك في سبيل تأمين الطريق المكتشفة والمؤدية للهند، فعمل على إرسال البعثات التبشيرية الدينية إليها، والتي لعبت الدور الكبير في مرحلة الكشف الجغرافي، فيما كانت المهمة الثانية معرفة بالمصادر الأصلية للتوابل، أما المهمة الأخيرة فقد تمثلت في معرفة طرق هذه التجارة عبر البلاد العربية ووصولها إلى البنديقية⁽¹⁸⁾.

(ج) رحلة فاسكو دي جاما (19) (1497م):

قائد فاسكو دي جاما في 8 يوليو سنة 1497م وبتكليف من الملك حملة بحرية تألفت من أربع سفن و (160) بحاراً واتجهت في طريقها حتى وصلت للمنطقة الجنوبية الشرقية من القارة، مارة بموزمبيق ومباسا⁽²⁰⁾. على اعتبار أن منطقتي موزمبيق ومباسا من الثغور والشواطئ الإفريقية الشرقية، والتي كانت تسكنها جماعات من التجار العرب والذين كانوا يحتكرون تجارة الشرق (التوابل، اللبان)⁽²¹⁾، ولقد وصل دي جاما إلى كاليكوت أهم موانئ ساحل ملبار⁽²²⁾ في 20 مايو عام 1498م. وفي حقيقة الأمر فقد كانت الرحلة التي قام بها (فاسكو دي جاما) ووصله إلى الهند هي الرحلة الأولى في تاريخ البرتغال إلى الشرق، حيث تطورت أغراض البرتغاليين من وراء الكشف البحرية في خلال عشر سنوات فقط (1499-1509م) من مجرد الرغبة في كشف الطريق البحري إلى الهند لتحقيق بعض المكاسب الاقتصادية، إلى الرغبة في احتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها الأصلية، بل وإلى إقامة أول حكومة استعمارية أوروبية في الشرق⁽²³⁾.

أوضاع البحر الأحمر والقرن الإفريقي في نهاية القرن (15م):

تعتبر الفترة من 1497-1498م فترة حاسمة في تاريخ شعوب منطقة المحيط الهندي، وسواحل العرب في الخليج العربي والبحر الأحمر، إذ إن أبواباً قد فتحت على سكان تلك المنطقة، وتوالى منها غزوات الشعوب الأوربية، وكما ذكرنا آنفاً فقد كانت لرحلة بارثلميو دياز 1487م أثرها الفعال في تمهيد الطريق أمام البرتغاليين للانطلاق نحو الشرق⁽²⁴⁾، ولقد واصل البرتغاليون جهودهم لتنفيذ خططهم في البحر الأحمر على نحو ما بدأ في الحملة البرتغالية التي وصلت إلى مدخل البحر الأحمر في سنة 1520م والتي ركزت اهتمامها على مهاجمة جدة على وجه الخصوص، هذا فضلاً عن إنزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية إلى السواحل الحبشية، وقد عاد البرتغاليون إلى الاهتمام بعدن بعد أن فشلوا في الوصول إلى جدة نظراً لمعاكسة الرياح لهم من جهة ووجود حشود كثيرة فيها من جهة أخرى، مما جعلهم يخشون مهاجمتها، ولهذا رأوا من الأفضل لهم أن يسيطروا على عدن حتى لا تقع في قبضة العثمانيين⁽²⁵⁾ ولقد اتسمت الأوضاع في منطقة القرن الإفريقي خلال هذه الفترة بالتدهور والفوضى السياسية، وكثرة المنازعات القبلية المذهبية بين الممالك والدول الإسلامية في شرق إفريقيا، ومن جملة تلك الصراعات ما يلي:-

الصراع بين ماليندي ومباسا:

نشأ هذا النزاع مع قدوم البرتغاليين إلى المنطقة، حيث تسلم حاكم مدينة مباسا عدة رسائل من قادة البرتغال العسكريين طالبوه فيها بعقد تحالف معهم، وقد تردد في قبول هذا الطلب، فما كان منهم إلا أن توجهوا إلى حاكم (ماليندي) والذي عمل على الترحيب بهم وقدم لهم كل المساعدة والتي مكنتهم من أن يغزو الهند ويسيطروا على الساحل الشرقي لإفريقيا⁽²⁶⁾. وفي واقع الأمر فقد استغل البرتغاليون حالة التمزق الذي كان يعاني منها أهالي هذا الساحل، حيث عمدوا إلى تعميق هذا التمزق بهدف إضعاف مكانه وإشغالهم بخلافاتهم مع القوى الأخرى، كل ذلك كان من أهم العوامل التي مهدت الطريق للبرتغاليين للسيطرة على القرن الإفريقي⁽²⁷⁾. ومما لاشك فيه فقد لعبت الظروف الداخلية للقرن الإفريقي دوراً مهماً في تثبيت البرتغاليين لأقدامهم في المنطقة وذلك بعد أن نجحوا وكأي مستعمر في بث روح الفرقة وزرع الخلافات بين القبائل العرقية منها والمذهبية.

المحاولات البرتغالية للسيطرة بحرياً:

• السيطرة على الطريق التجاري.

كانت البرتغال وبفضل الجهود التي بذلها الأمير هنري الملاح، والذي اكتشف الساحل الغربي لإفريقيا كما ذكرنا سابقاً، واستعمرت بعض الجزر، على يد مجموعة من المكتشفين مثل (فاسكو دي جاما) الذي وصل للهند، وكابرال الذي وصل إلى البرازيل، بالإضافة إلى (البوكيرك) أشهر القادة البرتغاليين الذين ظهروا في البحار الشرقية، إلى مياه المحيط الهندي عام 1506م والذي احتل عدن عام 1523م وسيطر على البحار العربية وجعلها بحيرة برتغالية⁽²⁸⁾. وقد ساعد موقع البرتغال الممتاز على توجيه أنظاره إلى السواحل، وعملهم على اكتشاف ما وراء المحيط الأطلسي، وبعد أن نجحوا في الالتفاف حول القارة الإفريقية، للوصول إلى طريق التوابل، حيث وصلت سفنهم لأجزاء من الساحل والذي كانت تصله قوافل التبر الآتية من منطقة السودان الغربي، وأسموها بنهر الذهب ثم ولوجهم إلى جزر الرأس الأخضر⁽²⁹⁾. وكان بارثلمودياز -كما ذكرنا آنفاً- قد اجتاز (رأس الرجاء الصالح) ودخلت سفن البرتغال إلى المحيط الهندي، وبذلك وجد البرتغاليون طريقهم إلى الهند مصدر التوابل والحريز⁽³⁰⁾.

السيطرة على البحر الأحمر:

يعتبر البحر الأحمر ذو أهمية سياسية واقتصادية واستراتيجية كبيرة، كونه معبراً ومنفذاً مهماً لمرور التجارة، وعبر الطريقين (البري والبحري)

القائمين على الجهتين العربية والإفريقية⁽³¹⁾. وقد أوجد ذلك تنافساً دولياً للوجود فيه وفي محيطه وعلى جزره، وأهمية البحر الأحمر تؤثر وتتأثر بمناطق العالم الجغرافية القريبة والبعيدة على حد سواء وذلك لوجود باب المنذب وخليج تيران بوابات التجارة العالمية فيه⁽³²⁾، وبعد أن نجح البرتغال في الوصول إلى شرق القارة، وسقطت معظم الإمارات العربية القائمة على الساحل تحت سيطرتهم، اتجهوا بعد ذلك إلى مياه البحر الأحمر واستولوا في سنة (1507م) على جزيرة سقطرى الواقعة في مواجهة القرن الإفريقي وتشرف على مدخل خليج عدن المؤدي إلى البحر الأحمر، وكانت عاملاً حاسماً في تحكم البرتغاليين في الطريق البحري المباشر بين مصر والهند⁽³³⁾، وهدفوا من عملهم هذا الاستيلاء والسيطرة على المدخل الرئيسي للبحر الأحمر الجنوبي⁽³⁴⁾ وإلى محاولة إثارة الشعور العام للمسلمين عن طريق تهديد أماكنهم المقدسة في الحجاز، مع محاولة تحطيم الأساطيل المصرية أو حجزها في الموانئ الجنوبية لدولة المماليك أو الدولة العثمانية على البحر الأحمر⁽³⁵⁾. ولقد تنبه المماليك لخطورة ما يقوم به البرتغاليون من انتشار واسع في المنطقة، واتجاههم إلى البحر الأحمر، وهو الممر الذي يؤدي إلى الأماكن المقدسة للمسلمين، فاتجهوا إلى تدعيم قوتهم على سواحله وخصوصاً قرب مدينة (جدة)، وهذا ما دفع بسلطان المماليك قانصوه الغوري (1501-1517م)، لأن يتخذ عدة إجراءات وهو ما سيوضح لاحقاً، من خلال سير الأحداث⁽³⁶⁾.

الموقف المملوكي من البرتغاليين:

اتسم الموقف المملوكي من البرتغاليين بشيئين رئيسيين، حيث كان الأول موقف مهادنة (دبلوماسية)، تغير لاحقاً إلى موقف عسكري حربي قائم على المعارك والمناوشات والتي ستتضح معالمها على النحو الآتي:

(أ) الموقف الدبلوماسي:

والمتمثل بموقف السلطان المملوكي قانصوه الغوري والذي كان ضعيفاً والسبب يعود إلى السيطرة البرتغالية على الطرق التجارية، ولقد أبدى المماليك اهتماماً بالغاً لإيقاف تحول التجارة إلى أيدي البرتغاليين، ولكنهم كانوا أضعف من مواجهة هذه الدولة البحرية الناشئة، كما كانوا أعجز من القضاء على قوتها البحرية، نتيجة عدم امتلاكهم للسفن والأسلحة الحربية الحديثة والمتطورة، فالدولة المملوكية لم تكن بحرية كما هو حال البرتغال، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت في حال ضعف عام نتيجة لانحيار النظام المملوكي نفسه، ولقيام الاضطرابات الداخلية بها⁽³⁷⁾، وهو ما أدى إلى حدوث أزمة اقتصادية أدت في النهاية إلى انهيار وسقوط الدولة على يد العثمانيين عام 1517م⁽³⁸⁾.

(ب) الموقف العسكري:-

بعد أن اتجه السلطان الغوري إلى تدعيم قوته، قام بإرسال حملة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردي (4 نوفمبر 1505م)، كان من مهام هذه الحملة تحصين ميناء (جدة) ولبناء سور ذي أبراج عالية لحماية المدينة في حال تعرضت لأي هجوم، كما عمل على إقامة تحصينات دفاعية على طول موانئ البحر الأحمر، خاصة الثغور اليمنية، ترقباً لأي محاولة برتغالية لتهديد البلاد الإسلامية⁽³⁹⁾، كما قام المماليك أيضاً بتحصين سواحل البحر الأحمر، حيث قاموا ببناء قوة بحرية في ميناء السويس، وذلك حتى تبقى على أهبة الاستعداد لمواجهة أي تحركات يقوم بها البرتغاليون في المحيط الهندي تجاه البحر الأحمر⁽⁴⁰⁾.

(ج) المواجهة البحرية بين الجانبين (موقعة ديو):

وصلت قوة بحرية مملوكية والتي قادها حسين الكردي -كما ذكرنا آنفاً- إلى ديو أهم موانئ سلطنة كجرات، ولقد توجه حسين الكردي مع حاكم ديو (مالك أياس) على رأس أسطوليهما إلى (كاليكوت) للاشتراك مع أسطول (السامري) في القضاء على البرتغاليين في ساحل ملبار وطردهم نهائياً من الهند، ولقد واجه القائدان أسطول برتغالي بالقرب من ميناء (شيول) مكون من ثماني سفن، حيث نشبت بين الطرفين معركة بحرية انتصر فيها الأسطول المملوكي وحليفه الكجراتي وذلك في خريف عم 1508م، ولقد سارع حينئذ نائب ملك البرتغال (دالميدا) على رأس حملة بحرية مكونة من تسع عشرة سفينة إلى ديو لمواجهة هذا الخطر، وهناك أحرز البرتغاليون نصراً حاسماً في موقعة (ديو)⁽⁴¹⁾ البحرية في 3 فبراير 1509م، أمام سفن الحلف المصري الهندي التي بلغ عددها مائة سفينة⁽⁴²⁾ وكننت تلك المعركة في حقيقة الأمر فاصلة القول في انتقال السيادة البحرية في المحيط الهندي والطرق المؤدية إليه، للبرتغاليين، وهو الأمر الذي أدى إلى حرمان العرب من القيام بأي نشاط بحري تجاري في هذه المنطقة⁽⁴³⁾. ولقد تأثرت هيبة المماليك السياسية نتيجة هزيمتهم المؤلمة على يد البرتغال، وانتهت دولتهم في مصر والشام الحجاز، وذلك على يد العثمانيين في عام (1516-1517م)⁽⁴⁴⁾. ولقد أنشأ البرتغاليون العديد من المراكز على سواحل إفريقيا بحيث تمكنوا من مهاجمة المنشآت العربية المقامة في المحيط الهندي، ومن ثم عملوا على إحراق السفن الإسلامية، ومحاولة هدم المدن والمقدسات وطرد التجار العرب منها، وفرض نفوذهم قامت البرتغال بإرسال حملة إلى الشرق كان الهدف منها الوصول إلى البحر الأحمر والسيطرة عليه، بقيادة الفونسو البوكيرك ونجحوا في أن يستولوا على

أهم مراكزهم المقامة على الساحل الشرقي لإفريقيا سنة (1509م)⁽⁴⁵⁾. من (سوفالا) جنوباً وحتى (براهو) في الشمال، بالإضافة إلى جزر زنجبار وموزمبيق وممباسا ومافيا، فضلاً على أنه قد تم في عهد البوكيرك حدوث أول اتصال برتغالي مع الأحباش، فقد أرسلت الامبراطورة (هيلينا) - الوصية على ابنها - أحد رجالاتها ويدعى (ماثيوس) إلى الهند ليعرض على نائب ملك البرتغال هناك التعاون بين الطرفين في مواجهة المسلمين وإعلان الحرب عليهم وخاصة المماليك في مصر⁽⁴⁶⁾. وتمكن هذا المبعوث من مقابلة القائد البرتغالي البوكيرك عام (1512م)، والذي بعثه إلى ملكه بعد أن حصل على معلومات ساعدته على أن يهاجم مدينة (زيلع)⁽⁴⁷⁾، وذلك خلال حملته على عدن والبحر الأحمر سنة (1513م)، وقد نجح في مهمته وقفل عائداً إلى الحبشة ترافقه أول بعثة دبلوماسية برتغالية إليها⁽⁴⁸⁾، ولا يقلل من قيمة هذا النجاح أن البرتغاليين لم يتمكنوا من أن يعيدوا (ماثيوس) وتلك السفارة إلى السواحل إلا في عام (1520م)، نتيجة الصعوبات التي طرأت على طرق المواصلات البحرية، وإلى الأخطار المحيطة بالسفر حينئذ، ولقد توفي (ماثيوس) بعد قليل من وصوله إلى الساحل الحبشي قبل أن يقابل نجاشي الحبشة⁽⁴⁹⁾. وفي حقيقة الأمر فقد كان هدف الامبراطورة هيلينا من وراء تصرفها - الآنف الذكر - الحصول على العون والمساعدة من قبل البرتغاليين في سبيل إيقاف المد الإسلامي الذي أصبح يهدد مملكتها وخصوصاً بمدينتي (عدل) و(هرر)، فيما كان يرمي البرتغاليون من وراء ذلك تحقيق هدفهم الأسمى والمتمثل بتطويق العرب من ناحية الجنوب وإقامة مراكز بحرية على طول البحر الأحمر لمهاجمة مصر والحجاز، والسيطرة على هذه المناطق في قارتي (آسيا - إفريقيا). وبسط نفوذهم على الطرق التجارية المجاورة للبحر الأحمر⁽⁵⁰⁾.

السيطرة على البحر العربي في (هرمز):

بعد أن نجح البوكيرك - كما ذكرنا آنفاً - بالسيطرة على الهند وجعل (جوا) عاصمة للبرتغال ومركزاً تجارياً وحربياً وسياسياً، وبدأ في هذه المرحلة بتطبيق سياسة جديدة تمثلت بقيامه بمحاولة احتلال المضائق البحرية، التي تتصل بطرق التجارة (ملقا - باب المندب - عدن - هرمز)⁽⁵¹⁾. ولقد عمل وبشكل حثيث للحصول على حلفاء محليين لتحقيق أغراضه العدوانية على البلاد الإسلامية عن طريق إقامة علاقات مع الأحباش، وواصل طريقه في سبيل السيطرة على جزيرة ومضيق هرمز، خاصة بعد وفاة حاكمها⁽⁵²⁾. إلا أن الحكومة في هرمز عقدت حلفاً مع الصفويين لمواجهة الخطر البرتغالي، لذلك عمد البوكيرك إلى تجهيز حملة تتجه إلى هرمز للاستيلاء عليها، وولى عليها

ابن أخيه (بيرو) بعد أن كلفه بمراقبة عدن والبحر الأحمر، ثم اتجه لهرمز، وبعد محاولات دبلوماسية وعسكرية نجح في إخضاعها لسيطرتهم ورفع العلم البرتغالي فوقها وعقد تحالفاً مع الصفويين ضد الأتراك⁽⁵³⁾. وفي عام 1517م هاجم البرتغاليون ميناء زيلع عاصمة دولة عدل الإسلامية وأحرقوا البلدة ودمروها، ثم ألحقوا بها مدينة بربرة التي عاشوا فيها فساداً ودماراً، كما احتلوا في عام 1520م ميناء مصوع الذي كان تابعاً للسلطان أحمد بن إسماعيل سلطان ذلك وملحقاته، وأنزلوا في الميناء أول بعثة دبلوماسية برتغالية إلى الحبشة⁽⁵⁴⁾ وفي عام 1541م توغل البرتغاليون من مصوع باتجاه الحبشة، وقاتلوا مع الأحباش ضد الإمام أحمد بن إبراهيم بحجة الدفاع عن المسيحية، ولقد سعى البرتغاليون لتغيير مذهب الأحباش من الأرثوذكس إلى الكاثوليك إلا أن الأحباش رفضوا ذلك وبشدة، وهو الأمر الذي أدى إلى وقوع حروب عنيفة بين الأحباش وبين حلفائهم البرتغاليين، مما أدى إلى طرد البرتغاليين من الحبشة نهائياً عند نهاية القرن السادس عشر الميلادي⁽⁵⁵⁾.

الموقف العثماني من البرتغال:-

بعد أن ورث العثمانيون حكم الدولة المملوكية في سنة 1517م بدأوا يحملون لواء الحرب بأنفسهم ضد البرتغاليين في البحار الشرقية بوجه عام وفي البحر الأحمر بوجه خاص، إذ كان على العثمانيين أن يعالجوا أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهوها في مصر بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة عنها وعن منطقة الشرق الأوسط، إلى رأس الرجاء الصالح، مما جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية⁽⁵⁶⁾، على أن خطوات العثمانيين لتدعيم نفوذهم في البحر الأحمر اتصفت في بداية الأمر بالضعف في الفترة التي أعقبت احتلالهم لمصر حتى سيطروا على اليمن 1538م، ويرجع السبب في ذلك إلى انشغالهم في جبهات متعددة مما جعل سيادتهم في هذا البحر سيادة اسمية رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلي هناك⁽⁵⁷⁾. وبعد أن نجحت الدولة العثمانية في السيطرة على مصر والشام (1516-1517م) وفرض قوتها على الحجاز، أدركت أهمية البحر الأحمر والحاجة الماسة لتأمين الملاحة فيه، لذلك عمدت إلى مراقبة حركات السفن البرتغالية وغيرها من السفن الأوروبية، والتي بدأت تمخر عباب البحر خاصة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وهي من الدوافع الرئيسية لذلك النشاط سواء منها الكشفي أو الاستعماري، من أجل الوصول إلى مملكة الحبشة المسيحية⁽⁵⁸⁾. وربما يعود السبب من وجهة نظر المؤرخين بأن البرتغاليين هدفوا من وراء ذلك التفاهم، القيام بتطويق العالم الإسلامي وكان وصولهم لشرق القارة فرصة لتحقيق ذلك⁽⁵⁹⁾.

ومن الملاحظ هنا أن العثمانيين باستقرارهم بمصر لم يشتبكوا مع البرتغاليين في موقعة فاصلة تحدد مصير تجارة المحيط الهندي، وكان هذا راجعاً لاشغال العثمانيين بجبهات متعددة، وليس أدل على هذا سوى تأخرهم في إرسال نجدة عسكرية إلى جدة عقب فشل ليمو سواريز في الاستيلاء عليها. والتي وصلت أواخر سنة 1519م عقب مرور سنة ونصف على فشل المحاولة واستنجد شريف مكة خاير بك بحاكم مصر⁽⁶⁰⁾ ولا يدل هذا على تقاعس العثمانيين، وإنما كان للدور الكبير الذي كانوا يقومون به سواء في أوروبا أو في آسيا عقب ضم مصر أثره في أن ينشغل السلطان سليم بأحداث جسام قد تقلق أمن الدولة، فالسلطان سليم مثلاً لم يتسع له الوقت للبقاء في مصر أثناء مقامه بها، لدراسة أحوالها، ومن ثم التعرف على طبيعة الغزو البرتغالي عن كثب، وذلك بسبب اشتغاله بالخطر الصفوي الذي كان يهدد شرق الأناضول⁽⁶¹⁾ ومنذ سنة 1538م بدأ اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر كمرحلة أولى في هذا الميدان، وبدأت محاولتهم لإخضاع اليمن لنفوذهم تقديراً منهم لأهمية اليمن الاستراتيجية في الصراع ضد البرتغاليين، وبدأت جهودهم في ميدان البحر الأحمر فكانت حملة سليمان باشا الخادم سنة 1538م، الذي تمكن بعد عدة عمليات حربية، وبعد اتصالات جرت بينه وبين حكام اليمن من الوصول إلى عدن والاستيلاء على الميناء، وتحصينه مثل ميناء جدة، والذي كان قد تم تحصينه من قبل وأصبح مركز قيادة عسكرية متقدمة للدفاع عن البحر الأحمر ضد البرتغاليين⁽⁶²⁾، من هنا تبدأ جذور السياسة العثمانية في منطقة البحر الأحمر، مهما كانت دوافعها وأهدافها كانت لصالح القوى الإسلامية الموجودة في المنطقة، تلك القوى التي لم تكن بإمكاناتها المحدودة لتستطيع أن تقف وحدها تجاه قوة كبيرة كالبرتغاليين، دفعتها مصالحها الاقتصادية وأهدافها الدينية إلى الهجوم على المنطقة⁽⁶³⁾

الصراع العثماني - البرتغالي:

الواقع أن أحداث البحر الأحمر والقرن الإفريقي قد شاركت في صنعها قوى عديدة، ففي الجانب الأول نرى الدولة العثمانية واليمن ومسلمي الطراز، أما الجانب الثاني فمثله البرتغاليون والأحباش الحلفاء التقليديون، وكان البحر الأحمر هو المجال الحيوي للبرتغاليين، وما أن وصل العثمانيون حتى أصبح البحر ذاته منطقة صراع⁽⁶⁴⁾. ولقد بدأ العثمانيون يستعدون وبشكل قوي لمواجهة الخطر البرتغالي، والذي تمثل بمحاولتهم مهاجمة العرب والمسلمين، من خلال قيامهم بتأييد الإثيوبيين وتقديم المساعدة لهم ضد الممالك الإسلامية المجاورة لها وظل الوضع كما هو عليه حتى القرن 17م⁽⁶⁵⁾. والملاحظ أن

السلطان العثماني سليم الأول لم يتخذ أي إجراءات ضد البرتغاليين، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه في تلك الفترة كان قد خرج من حربين كبيرين ضد الصفويين والماليك، وفي واقع الأمر فقد جاء اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر والقرن الإفريقي بعد أن فقدت دولة عدل سيطرتها على الحبشة، وقد كانت القوة العثمانية التي أرسلها والي اليمن مصطفى باشا النشار في عام 1542م إلى الحبشة لنصرة الإمام أحمد بن إبراهيم تصرفاً شخصياً من مصطفى باشا، ولم يكن توجهاً رسمياً اتخذته الدولة العثمانية في اسطنبول⁽⁶⁶⁾. ولقد رأى العثمانيون ضرورة اللجوء إلى استخدام القوة ضد النشاط البرتغالي المواكب له في العداء للمسلمين سواء في البحر المتوسط من جهة أو في البحار الشرقية من جهة أخرى. ولهذا فإن النشاط الإستراتيجي سيبدو واضحاً في هذين النطاقين وسوف يستمر من الناحية الزمنية طول القرن السادس عشر الميلادي، وسوف يكون للعثمانيين الفضل في تشكيل تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الإسلامي في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة، وعالم البحر الأحمر من جهة أخرى، ويعد هذا الدور أكبر مكرمة للعثمانيين في جوهر علاقاتهم بأشقائهم في أعالي البحرين المتوسط والأحمر طوال القرن السادس عشر الميلادي⁽⁶⁷⁾. وهنا نلاحظ أن الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين من أجل السيطرة على السواحل العربية كان يقتضي الاستيلاء على مراكز استراتيجية على أراضي مملكة الحبشة المسيحية. فالبرتغاليون وكما هو معروف -كما ذكرنا سابقاً- عن اتصالاتهم بالحبشة ورغبتهم في التعاون معهم قد أخرجوا الدولة العثمانية التي رسمت سياستها تجاه مواجهة ذلك الخطر كالتالي:

أولاً: محاولة حصار الأحباش وتحطيم أية محاولة برتغالية في سبيل جر الحبشة إلى شن حرب مشتركة ضد القوى الإسلامية المنتشرة على السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر.

ثانياً: اتجاه العثمانيين إلى تعزيز علاقاتهم الودية مع الزعماء والأمراء الصوماليين.

ثالثاً: نجاح العثمانيين في النزول في زيلع ومصوع.

أما على السواحل الشرقية وهي المقابلة للسواحل الحبشية فنجد أن العثمانيين قد تمكنوا من بسط نفوذهم على السواحل اليمنية من واقع حملة سليمان باشا السابقة، وهي السواحل التي فشل البرتغاليون في سبيل التمرکز عليها أو محاولة الحصول على مواقع استراتيجية بها كما حدث في حملة البوكرك سنة 1513م، بحيث تمكن العثمانيون من تأمين قواعدهم على طول ذلك الشريط الساحلي ومتخذين منه وسيلة للاطلاع على الأحداث السياسية التي تقع أمامهم على السواحل الحبشية للتدخل في الوقت المناسب -كما سنذكر لاحقاً- عندما أرسلوا إمداداتهم للإمام أحمد بن إبراهيم 1541م⁽⁶⁸⁾. وهنا نجد

تناقضا تاماً في أوجه الاستراتيجية الحربية للعثمانيين والبرتغاليين، فالعثمانيون عزموا على السيطرة على المواقع الاستراتيجية لدخل البحر الأحمر من أجل استمرار التجارة عبر البحر ذاته، أما البرتغاليون فكان غرضهم تحويل التجارة من الشرق إلى الغرب⁽⁶⁹⁾ ولقد أبدى العثمانيون اهتماماً ملحوظاً بمنطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) لأجل مطاردة البرتغاليين هناك من ناحية، ولإحكام غلق البحر الأحمر من ناحية أخرى، وعلاوة على ذلك فقد أنشأ العثمانيون ولاية تسمى بولاية الحبش وقاعدتها سواكن (1550-1555م) وربطوا بين هذه الولاية وثمر جده الإسلامي في إدارة واحدة وكما كانت مهمة هذه الإدارة متابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر بين الشاطئ العربي والشاطئ الإفريقي لإحكام السيطرة على هذا البحر والذي أصبح مغلقاً في وجه البرتغاليين بقوة الأسطول العثماني⁽⁷⁰⁾ وقد كان نفوذ العثمانيين في القرن الإفريقي لا يتعدى حدود نيابة سواكن التي كانت لا تضم سوى مينائي زيلع وسواكن، اللذين ورثهما العثمانيون عن المماليك، وبعد عزل الأمير أزدمر باشا عن ولاية اليمن في عام 1554م، أرسله السلطان سليمان على رأس جيش كبير يتكون من ثلاثة آلاف جندي إلى سواكن لتدعيم النفوذ العثماني هناك وتوسيع مداه، ونجح الأمير أزدمر باشا في أن يضم إلى نيابة سواكن بعض الأقاليم الساحلية بها بما فيها ميناء مصوع⁽⁷¹⁾. وفي واقع الأمر فقد كان للعثمانيين الفضل في تشكيل تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الإسلامي في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة، وعالم البحر الأحمر من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر الميلادي، حتى أقل نجم البرتغاليين في البحار الشرقية في نهاية القرن المذكور⁽⁷²⁾، ويرجع السبب في ذلك إلى أن البرتغال فقدت استقلالها وضممت إلى أسبانيا في عام 1580م⁽⁷³⁾ ولم ينقض النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي إلا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر واستولوا على الموانئ المهمة على شاطئيه الإفريقي والآسيوي وهي سواكن وعقيق ومصوع ودوهونو على الساحل الإفريقي، كما استولوا على عدن وحصنوا جده على الساحل الآسيوي، وجعلوا البحر الأحمر بحيرة عثمانية أغلقوها في وجه السفن المسيحية، وفي منتصف هذا القرن أيضاً عين العثمانيون حاكماً تركياً على مصوع وآخر على سواكن، ووضعوا هذين الحاكمين تحت إشراف والي جده وهو حاكم الحجاز، كما استعانوا بأحد الزعماء الوطنيين وهو نائب (أركيكو) للمعاونة في أعمال الحكومة بمصوع، واستعانوا أيضاً بآخر مثله في سواكن، وكلفوهما بجباية الضرائب من القبائل المنتشرة على الساحل الغربي للبحر الأحمر⁽⁷⁴⁾. وتجدر الإشارة إلى أن نضال العثمانيين

ضد البرتغاليين قد امتد كذلك إلى الساحل الإفريقي لإفريقيا، حيث أرسل السلطان العثماني مراد الثالث (1574-1595م) القائد البحري (ميرال بك) في سنة 1588م بقوة لتخليص البلاد الإسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا من السيطرة البرتغالية، ولقد قوبل القائد العثماني بالترحاب من قبل سكان الإمارات الإسلامية في (مدغشقر) و(براوا) و(وقسيمايو) إذ نظروا إليه نظرة المخلص من يد الأجنبى وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين⁽⁷⁵⁾.

إقامة المراكز التجارية:

أقام البرتغاليون خلال محاولاتهم السيطرة على القرن الإفريقي العديد من القواعد العسكرية وذلك من خلال بناء الحصون والقلاع وبناء الحاميات الدفاعية والمراكز التجارية بهدف السيطرة على الطريق التجاري المرتبط بالهند، حيث أقاموا أولى هذه المراكز على الساحل الإفريقي في جهته الغربية، وذلك في عهد الأمير البرتغالي (هنري الملّاح) وهي (بنين) في العام (1486م)، و(ساحل غانا) وخصوصاً في (أرجوين) و(المنيا)، ثم انطلقوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى سواحل (الكونغو)⁽⁷⁶⁾.

البرتغاليون في شرق القارة:

كما ذكرنا آنفاً بأنه ونتيجة لرغبة البرتغال في إيجاد محطات لهم رئيسية للطريق المؤدية إلى الهند، من خلال الاستيلاء على المراكز التجارية في المنطقة، وبعد أن نجح البرتغاليون في السيطرة على منطقتي شمال وغرب القارة وأجزاء من الجهة الجنوبية⁽⁷⁷⁾. ولقد توجت جهود البرتغاليين في هذه الفترة بمحاولة السيطرة على الساحل من خلال قوة عتادهم العسكري، فتوقفوا في الساحل الشرقي (القرن الإفريقي)⁽⁷⁸⁾، بحيث لم يحاولوا التقدم إلى الداخل، واختاروا البقاء في منطقة كانت في تكوينها الطبيعي صالحة لرسو السفن التي تصل إليها⁽⁷⁹⁾. واهتموا ببناء الحصون والمراكز التي تألفت من حصن وكنيسة ومنشأة يقيم فيها التجار الجنود سواء كانوا برتغاليين أو أفارقة مسيحيين⁽⁸⁰⁾. وفي واقع الأمر فقد سعى البرتغاليون عندما قدموا إلى المنطقة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلى تدمير المدن والمراكز التجارية والحضارية العربية، فعندما استولوا على مدينة زنجبار عام (1503م)، -أظهروا من خلال ذلك حقدهم الدفين والقديم ضد العرب- قتلوا سكانها وأحرقوا أبنيتها وخرّبوا المدن والقرى، حيث تذكر المصادر أن البرتغاليين دمروا حوالي (300) مسجد في المدينة⁽⁸¹⁾. وفي عام 1505م هاجموا مدينة كلوه، ونجحوا في احتلالها بعد أن عملوا فيها القتل والسلب والنهب، وقبل مغادرتها قاموا بإضرام النيران فيها فاحترقت كلياً ولم يتركوها إلا وهي رماداً⁽⁸²⁾.

إقامة القواعد العسكرية:

وفي حقيقة الأمر فقد تمكن البرتغاليون بعد استيلائهم على أهم المدن الواقعة في الشرق الإفريقي، من السيطرة على أهم أعمدة القواعد العسكرية العربية في القرن الإفريقي⁽⁸³⁾، وذلك عام (1506م) حيث استولوا على كل من لامور وبراو وجزيرة سقطرى⁽⁸⁴⁾، وكلها تقع على البحر العربي والمحيط الهندي، كما سيطروا على (موزمبيق) عام (1507م)⁽⁸⁵⁾. ونورد بعض الأعمال التي قام بها البرتغال من أجل فرض قوتهم على المنطقة وذلك من خلال الآتي:

أ) بناء الحصون على الساحل:

في واقع الأمر فقد كان لنجاح البرتغال في اختيار خط السبق عن غيرها من الدول الأوروبية في مجال الاستعمار، وقربها من الساحل الإفريقي قد ساعدها في بلوغ هذه المنطقة، والوصول إلى شرق القارة، وإقامة أول حصونهم المسمى (أرحيوم) غرباً، تلاها بناء الكثير من القلاع والحصون في أطراف إفريقيا، وكان حصن (سوفالا) أهم الحصون بالنسبة للبرتغاليين وهو من الثغور العربية القديمة⁽⁸⁶⁾. فيما أقاموا قلعة على الساحل الشرقي للقارة، في مدينة (مباسا) وذلك بعد السيطرة عليها، والتي أصبحت العين الحامية لنفوذ البرتغال في هذه المنطقة، ولقد عين قائدها وكلاء له في الموانئ المجاورة لها مثل (كلوه) (زنجبار) و(مباسا)⁽⁸⁷⁾. كما أقام البرتغاليون في جزيرة سقطرى حصناً قوياً ليكون القاعدة الدائمة لعملياتهم البحرية في المحيط الهندي⁽⁸⁸⁾. ولقد قام البرتغاليون أيضاً ببناء حصن منيع في مدينة موزمبيق بعد سيطرتهم عليها عام (1507) وبنوا فيها كنيسة ونزل للجنود، وجعلوها قاعدة عسكرية لحكمهم في هذه المنطقة، وقد نجح البرتغاليون من خلال تلك الحصون والقواعد التي أقاموها أن يراقبوا النشاط التجاري، واستطاعوا ضرب حصار اقتصادي على البلاد العربية وخاصة مصر، مما أدى إلى ضعف دولة المماليك وانهارها اقتصادياً وهو ما نتج عنه سقوطها النهائي وسطرة العثمانيين عليها في (1517م)⁽⁸⁹⁾.

ب- إقامة الحاميات الدفاعية:

قام البرتغاليون باتباع أسلوب دفاعي جديد من خلال إقامة الحاميات الدفاعية، والتي تمثل البداية الأولى لمحاولة السيطرة على السواحل، وذلك بعد أن فشلوا في الاستيلاء على المراكز التجارية الواقعة على ساحل البحر الأحمر مثل (هرر، مصوع، سواكن) بغية توطيد أقدامهم في تلك المناطق⁽⁹⁰⁾. ولقد أنشأ البرتغاليون أول حامية على الساحل الغربي للقارة، لخدمة أهدافهم

التجارية والاستعمارية، وهي (أرحويم) في جزيرة مقابلة للرأس الأبيض، ثم انتقلوا إلى الساحل الشرقي وكان أهم مركز أقاموه في سفاله لمواجهة الخطرين المملوكي والعثماني⁽⁹¹⁾.

أثر الوجود البرتغالي على الساحل الإفريقي.

لعل من أهم الآثار التي تركها البرتغاليون في هذه المنطقة هي القلاع والحصون والأسوار والموانئ التي ابتنوها خلال محاولتهم السيطرة على القرن الإفريقي⁽⁹²⁾. بالإضافة إلى إننا نجدهم قد عمدوا على إعادة تعمير المدن التي تم احتلالها عسكرياً، والتي كانوا قد دمروها في السابق، وخاصة على الساحل الشرقي الإفريقي، وإقامة الكنائس الدينية في بعض التجمعات السكنية والثكنات العسكرية، بهدف نشر المسيحية بين الأفارقة، وأيضاً إقامة المراكز التجارية التي انشأوها لأغراض اقتصادية. ومن الآثار التي خلفها البرتغاليون، السياسة التي اتسمت بنوع من الاستغلال والاحتكار والمعاملة السيئة التي عاملوا بها السكان، وهو ما ترك كراهية لهم من قبل الأهالي، مما عمق في نفوسهم العدوان والعنف في سلوكياتهم وهو ما اتضح في عمليات (الرقيق) وكيف كان يتم التعامل معهم⁽⁹³⁾.

العلاقات البرتغالية مع الزعامات المحلية في القرن الإفريقي: أولاً: على السواحل الغربية (1534):-

أراد البرتغاليون بعد وفاة الأمير هنري استمرارية الأنشطة البحرية، واستكمالاً لما بدأه، حيث تمكنوا من الوصول إلى خليج غانا، وأقاموا بعض القلاع على سواحلها الغربية، وخلال ذلك التقدم كانوا يعقدون الاتفاقات مع رؤساء القبائل أينما نزلوا⁽⁹⁴⁾.

ثانياً: في السواحل الشرقية:

في حقيقة الأمر قد واجه البرتغاليون في منطقة القرن الإفريقي العديد من الصعوبات في عقد اتفاقات أو معاهدات مع الزعماء والحكام المحليين هناك، ويرجع السبب في ذلك إلى استخدامهم العنف ضد السكان، اتضح ذلك بشكل جلي أثناء رحلة فاسكو دي جاما عام (1497م) إلى الهند وبعد عودته منها، حيث قام بضرب مدينة مقديشو بالمدافع وكان ذلك نقطة البداية للصراع الطويل بين البرتغاليين والعرب⁽⁹⁵⁾. أما في زنجبار فقد كانت علاقتهم مع حاكمها مضطربة، ولذلك لم تنجح قواته في أن تتصدى لهجوم السفن البرتغالية المجهزة بأحدث الأسلحة من مدافع ثقيلة، ما اضطر سلطانها لأن يدفع الفدية مقابل انسحاب تلك القوات⁽⁹⁶⁾. كما أجبر البرتغاليون حكام كل من كلوة ومباسا وزنجبار بالإضافة إلى مدينة (سفاله)⁽⁹⁷⁾ على تقديم المؤن

والغذاء لقادة القلاع والحصون التي أقامها البرتغاليون، وهو الأمر الذي يؤكد أن العلاقة بين الطرفين اتسمت خلال هذه المرحلة بمعاداة كل طرف للآخر⁽⁹⁸⁾. فيما نجحوا في استمالة شيوخ مالندي حيث استغلوا فرصة الصراع بينهم وبين حكام ممباسا⁽⁹⁹⁾. ولقد حاولت البرتغال أن تسيطر على مناجم الذهب في منطقة القرن الإفريقي وإدارتها لصالحها وذلك على أسس علمية حديثة، والعمل على طرد التجار العرب منها والذين كانوا يزاولون مهنة التبادل السلعي فيها منذ قرون، بعد أن نجحوا في تمهيد المواصلات بين المنطقة والساحل ولهذا أرسلوا عدة حملات محاولين إخضاع السكان لسلطاتهم وهو ما أدى للاحتكاك المستمر مع زعماء القبائل المحلية، والذين كانوا يزاولون نفس النشاط مع العرب المقيمين في الثغور الساحلية⁽¹⁰⁰⁾. وهنا تجدر الإشارة، إلى أن هذا الجانب من العلاقات قد أثر سلباً على مجريات الأوضاع في القارة، ولإعطاء صورة أوضح عن هذا الصراع وتلك المحاولات المبذولة من البرتغال، بعد أن نجحوا في الوصول لشرق القارة، تحدث بعض الرحالة بأنه وقبل مجيء البرتغاليين إلى المنطقة بزمان قامت فيها مملكة إفريقية عرفت بـ(الموبوماتابا)، كونها قبائل من البانتو وكانت هذه القبائل تستخرج الصخور المحتوية على الذهب فتطحنها وتغربلها بحيث تعزل المعدن وتبيعه للوسطاء العرب⁽¹⁰¹⁾. ثم يقوم هؤلاء التجار بنقله عبر نهر (الزمبيزي)⁽¹⁰²⁾ إلى كلوة وهو الميناء التجاري الذي أسسه العرب على الساحل الشرقي، أو عبر الطرق المؤدية لميناء سفاله، ولقد سيطر البرتغاليون على تلك المملكة بهدف الاستحواذ على مناجم الذهب فيها⁽¹⁰³⁾. ولكنهم رأوا أن استخراج الذهب سيكلفهم أكثر من قيامهم بعملية شرائه من الأهالي، ولقد حاول البرتغاليون الوصول أيضاً لمناجم الفضة والتي قيل إنها كانت موجودة في هذه المملكة، لكن مهاجمة القبائل في المنطقة للحصون التي أقامها البرتغاليون حالت دون تحقيق غرضهم الأنف الذكر، وبهذا فقد البرتغاليون كل أمل نحو تحقيق هدفهم، واكتفوا بفرض الضرائب على زعماء المناطق في الداخل، وتركهم يستخرجون مواردهم بأنفسهم، وظل أولئك الحكام يقدمون ضرائبهم كل ثلاث سنوات، ومع مرور الوقت تحول الأمر إلى احتكار الدولة للموارد⁽¹⁰⁴⁾ وبالإضافة إلى ذلك عقد البرتغاليون العديد من الاتفاقات مع زعماء تلك المناطق والذين تعهدوا بحماية التجار البرتغاليين وممن يرغب بالعمل في مناجم الذهب وأن يقتصر التعامل معهم دون العرب⁽¹⁰⁵⁾، على أن عدداً من التجار البرتغاليين استقروا في تلك المناطق وأثروا فيها⁽¹⁰⁶⁾.

كما عمد البرتغاليون على انتزاع مساحات كبيرة من الأراضي على ضفاف نهر الزمبيزي وفي الساحل، من خلال شراء تلك الأراضي من زعماء القبائل باستخدام القوة والتهديد وبأبخس الأثمان⁽¹⁰⁷⁾. وبذلك يمكن القول بأنه

قد وجدت بعض القوى التي تحالفت مع البرتغاليين وقدمت لهم العون، بينما نرى جماعات أخرى تجمعت وشكلت نوعاً من المقاومة الشعبية ضد المستعمر البرتغالي، وقادت حركات الجهاد في سبيل نيل استقلالها، وحرية بلدها.

المقاومة الشعبية ضد المستعمرين البرتغاليين:

واجه البرتغاليون في شرق إفريقيا (القرن الإفريقي) ثورات متعددة ومقاومة من الإفريقيين والعرب المستقرين بهذه المناطق ولقد مدت الدولة العثمانية يد العون والمساعدة لتلك الثورات المناهضة للبرتغاليين، ومن أبرز هذه الثورات ثورة (سلطان ممباسا)، والثورة التي تزعمها (مير علي) في مقديشو وامتدت إلى المناطق المجاورة، وثورة (الإمام أحمد بن إبراهيم في الصومال)، وقد استعان البرتغاليون بقواتهم البحرية لإخمادها، ولذلك اضطر البرتغاليون في نهاية المطاف لتركيز سلطتهم في مناطق محدودة فاتخذوا من موزمبيق والتي استعمروها عام (1507م) مقراً لهم واهتموا بتحسينها لتصبح مركزاً لسيادتهم بشرق إفريقيا⁽¹⁰⁸⁾.

ثورة سلطان ممباسا (1528م):

لم يستطع البرتغاليون أن يوطدوا أقدامهم بسهولة في شرق إفريقيا بسبب مقاومة السكان لهم، فقد بدأت في سلطنة ممباسا حركة المقاومة العربية ضد البرتغاليين في (935هـ/1528م)، حيث حاول سلطان المدينة تحريض السكن في (زنجبار) على طرد البرتغاليين، إلا أن السلطات البرتغالية أسرعت بضرب حصار عليها، ثم عرضت على الحاكم فرض معاهدة تشترط فيها مقابل فك الحصار أن يدفعوا فدية لهم أو يتعهدوا بعدم الاتصال المباشر بالعثمانيين⁽¹⁰⁹⁾ ومع ذلك فقد نجح العثمانيون في أن يحدوا من الضغط البرتغالي على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية، حيث حطموا كل المحاولات الرامية إلى تكوين (جبهة أوروبية- حبشية) ضد القوى العربية⁽¹¹⁰⁾.

ثورة علي ميرال (1588م):

امتد نضال العثمانيين ضد البرتغاليين إلى الساحل الشرقي لإفريقيا. فقد أرسل السلطان العثماني مراد الثالث (1574-1595م) أحد أمراء البحر العثمانيين ويدعى (علي ميرال)⁽¹¹¹⁾ عام 1588م على رأس قوة لتخليص البلاد الإسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا في (مدغشقر) و(براوا) و(قسيمايو) و(مقديشو) من السيطرة البرتغالية، وقد قوبل القائد العثماني بالترحاب من قبل سكان تلك الإمارات الإسلامية، إذ نظروا إليه نظرة المخلص من يد الأجنبي وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين⁽¹¹²⁾، ولقد استطاع ميرال وبمساعدة الأهالي أن يحتجز بعض السفن البرتغالية ويرسل بحارتها إلى الأستانة، إلا

أن ثورته ضد البرتغاليين لم يكتب لها النجاح حيث وقع أسيراً في أيدي البرتغاليين وأرسل إلى (لشبونة) عاصمة البرتغال وتوفي هناك، غير أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يحتفظوا في هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمي السكان من إغارات البرتغاليين الذين مالبثوا أن استعادوا نفوذهم على المدن والإمارات العربية الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا، باستثناء مقديشو⁽¹¹³⁾.

- ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم (الصومال):-

من ضمن الشخصيات الإسلامية القوية التي ظهرت في منطقة القرن الإفريقي في ذلك الوقت الإمام أحمد بن إبراهيم (1506-1542م)⁽¹¹⁴⁾ والملقب (بأحمد جرين)- حيث شعرت القوى الاستعمارية بخطرته- والذي تمكن من توحيد كلمة الناس وبدأ جهاده الطويل من أجل وضع حد لهذه السياسة، في حين أن الحبشة كانت منقسمة إلى مقاطعات، وتمتاز في غالبيتها بوجود مسلمين بينما كان الجزء الآخر منقاداً وخاضعاً لحكامه من العرب⁽¹¹⁵⁾. ولقد عمد الإمام أحمد بن إبراهيم إلى تكوين جبهة قوية لمقاومة البرتغاليين، حيث سار من هرر وبلاد عدل ماراً (بسواكن)⁽¹¹⁶⁾، ومنها إلى بقية الأقاليم الحبشية لتوحيد الصفوف بين مجاهديها⁽¹¹⁷⁾.

ولقد قدم العثمانيون للإمام أحمد بن إبراهيم يد العون والمساعدة، خصوصاً بعد علمهم بمهاجمة البرتغاليين للسويس عام (1540م)، ومحاولاتهم مهاجمة جده وينبع، ولم تكن مساعدتهم له بالكافية⁽¹¹⁸⁾ والواقع أن العثمانيين بتأييدهم الإمام بن جرين إنما كانوا يؤيدون مجاهداً كغيره من المجاهدين، وهو طريق كان عليهم أن يسلكوه ويصلوا إلى نهايته، لأن الدولة العثمانية صاحبة النفوذ الجديد في البحر الأحمر لن تقف موقف المتفرج حيال ما يعتمل بالمسلمين في القرن الإفريقي، إذ كان عليها تكملة المشوار الذي بدأه السلطان قانصوه الغوري لحماية طرق التجارة من ناحية ولصد البرتغاليين وتأمين طريق الحج من ناحية أخرى، فكما جاء البرتغاليون واتصلوا بزعماء مالندي وبعض زعماء الموانئ الهندية والحبشية ليضمّنوا لأنفسهم أرضاً صلبة يقفون عليها، جاء العثمانيون كذلك، والفرق هنا أن العثمانيين وأحمد بن جرين تجمعهم عقيدة واحدة ومبدأ واحد ألا وهو صيانة الدين الإسلامي، أما البرتغاليون فلم تكن بينهم وبين من حالفوهم مثل ذلك، وصحيح أن المسيحية تجمعهم مع الحبشة ولكن بمجرد فرض المذهب الذي يعتنقونه نشبت الاضطرابات في الحبشة نفسها⁽¹¹⁹⁾.

وفي واقع الأمر فقد اشتبك الإمام بن جرين مع الجيوش الحبشية في موقعة شامبا كوري حيث تمكن من تشتيتها وإلحاق هزيمة كبرى بها وبذلك النصر تم له تحرير معظم مدن الطراز الإسلامي من سيطرة الأحباش. ولقد انتصرت قواته رغم ضعف إمداداتها، عندها أسرع الأحباش بطلب العون من البرتغاليين، والذين أرسلوا فرقة مكونة من المدفعية والبحرية لمساعدتهم ضد المقاومين، والتي وصلت سنة (1541م)، إلى ميناء مصوع حاملين

معهم الأسلحة النارية والمدافع الثقيلة⁽¹²⁰⁾. وبالتالي أدى وصول تلك الأسلحة إلى تفوقهم، إلا إن الإمام بن جرير كان قد أعاد تنظيم صفوف جيشه في صيف سنة 1542م بعدما وصلته الإمدادات العسكرية من مصطفى باشا النشار والي اليمن، وفي فبراير 1543م قامت القوات المسيحية المتحالفة بمهاجمة جيوش الإمام أحمد بن جرير العسكرية في (وينا داجا)، وكان قتالاً عنيفاً استخدم فيه البرتغاليون كافة الأسلحة الحديثة، حيث اتجهت إلى اختراق صفوف الجيوش الإسلامية مما أدى إلى اضطراب صفوفها إزاء الضغط الشديد للأسلحة الحديثة التي يمتلكها البرتغاليون، أما بالنسبة للمجاهدين فكانت مؤنهم قد قاربت على النفاد، وفي نهاية المعركة استشهد المجاهد (أحمد جرير) في ميدان القتال عام (1543م)، وعادت جموع الثوار إلى بلادهم، وبذلك انتهت الحرب بمحافظة الأحباش على قوتهم⁽¹²¹⁾. إزاء تلك الأحداث لم يهمل العثمانيون السواحل الحبشية، خاصة وقد أدركوا تماماً مخاطر التحالف الحبشي البرتغالي، ومدى النتائج التي حققت نتيجة ذلك التحالف، لهذا نجدهم قد رسموا سياستهم كالتالي:

أولاً: تشديد قبضتهم على السواحل الحبشية، خاصة مصوع وسواكن وجدة التي تركزت بها حامياتهم باعتبارها نقاط الوصل بين حامياتهم المنتشرة على طول السواحل الحبشية في محاولة قطع الاتصالات بين الطرفين، ولم يكن ذلك يعني أن امتلاك الحبشة بالنسبة للعثمانيين أمر ضروري للغاية، وإنما أمر مرغوب فيه حتى لاتتاح الفرصة للبرتغاليين للتمركز هناك، ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة⁽¹²²⁾. ثانياً: إغلاق البحر الأحمر في وجه البرتغاليين حيث بدأت السفن العثمانية عقب دخول حملة ستفانوا دي جاما، في تنظيم دوريات تتجول بانتظام داخل البحر الأحمر، وبلغ شدة يقظة تلك الدوريات العثمانية أن نائب ملك البرتغال في الهند الذي جاء عقب ستفانوا دي جاما، قرر مؤقتاً منع كافة المحاولات البرتغالية للاتصال بالأحباش نظراً لكثافة النشاط البحري للعثمانيين أمام السواحل الحبشية⁽¹²³⁾.

ثالثاً: العمل على تطهير السواحل العربية الجنوبية من السفن البرتغالية المتناثرة بها، ومن أجل هذا أرسل العثمانيون في ربيع الثاني من سنة 947هـ/ 1541م ثماني سفن حربية إلى المضاء وعدن من مصر، حيث لحقتها فيما بعد 12 سفينة تحمل إمدادات وجنوداً⁽¹²⁴⁾. وأخيراً فقد أثبتت الأحداث السياسية السابقة التي مر بها البرتغاليون سواء في المحيط الهندي أو أثناء حروبهم مع الإمام أحمد بن إبراهيم أن سيطرة البرتغاليين على الحبشة يجب أن تكون مستمرة، ذلك أن ترك العثمانيين يهددونهم أمر قد ينتهي بهم إلى جعلها مملكة إسلامية، وهذا بدوره ما يساعد على جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية تساعد العثمانيين على الخروج واعتراض السفن مابين شرق إفريقيا والهند، خاصة إذا علمنا أن السفن المتجهة من لشبونة إلى الهند كانت تتوقف في شرق إفريقيا للاستراحة والتزود بالمؤن⁽¹²⁵⁾.

التعاون البرتغالي مع الحبشة ضد العثمانيين:

عقد البرتغاليون حلفاً مع حاكم ممباسا لمواجهة القائد العثماني الأمير (علي بك شلبي)، الذي كان قد اتخذ منها قاعدة لتحركاته الحربية، ولقد استطاع هذا القائد جذب اهتمام القادة الأفارقة إليه بحيث أثار في صفوفهم موجة كره للبرتغاليين⁽¹²⁶⁾. حيث كانت تحركاته تلك تصل تبعاً للسلطات البرتغالية بواسطة حاكم بلدة (مالندي)، والذي كان موالياً لهم، ولقد شهد عام 1586م معارك عنيفة بين الجانبين، حيث هاجم القائد العثماني قاعدة البرتغال في هذه البلدة، إلا أن أحد الأساطيل البرتغالية هاجمته ودحرته وحاصرتها في (ممباسا) وتفاعاً بالآلاف من القبائل الحبشية الزنجية، فوقع بين فكي الكماشة الأحباش من جهة والبرتغاليين من جهة أخرى⁽¹²⁷⁾. ولذلك فضل الاستسلام للبرتغاليين، ويقال بأنه أرسل أسيراً إلى لشبونة ومات فيها، عقب ذلك عمد البرتغاليون إلى تثبيت مواقعهم على المحيط الهندي حيث قاموا سنة (1586م) ببناء قلعة فيها وأطلقوا عليها (الميرانتي) أي الأدميرال، وقد أثر على مجريات الأحداث بروز قوتين جديدتين في المنطقة وهما، الهولنديون والانجليز⁽¹²⁸⁾. واتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل الإفريقية الشرقية صوراً متعددة، منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد تعاون الممالك الإسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتي سميت بممالك الطراز، بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة وتعينها على مهاجمة هذه الممالك المحيطة بها⁽¹²⁹⁾. وقد اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل الإفريقية الشرقية بما فيها السواحل الإفريقية للبحر الأحمر صوراً متعددة، منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالك الإسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتي سميت بممالك الطراز، بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة وتعينها على مهاجمة هذه الممالك المحيطة بها، وظل الصراع حتى القرن السابع عشر الميلادي، عندما فترت الحمية بين الدولتين وضعفت قوتيهما فتركت الدولة العثمانية اليمن في سنة 1635م، ولم يبق تحت سيطرتها إلا بعض الثغور الإفريقية كمصوع، بينما اضطر البرتغاليون للتنازل عن مكانتهم في البحار الشرقية لمنافسهم الهولنديين⁽¹³⁰⁾. وبذلك نقول بأن البرتغاليين وبتحالفهم مع الأحباش، شكلا بهذا قوة كبرى وقفت في وجه القوة الإسلامية والتي كان يمثلها (العثمانيون) والذين ومع نهاية القرن 16م، استطاعوا أن يوقفوا المد البرتغالي حول منطقة القرن الإفريقي بحيث لم يتمكنوا من أن ينفذوا إلى داخل القارة، وإنما سيطروا على البحر والساحل الشرقي لإفريقيا فقط.

ظهور قوى بحرية جديدة في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر:

لما كانت جهود البرتغال قاصرة عن الاستغلال الكامل لمستعمراتها في شرق إفريقيا، بسبب قلة عدد البرتغاليين في تلك المستعمرات والحاجة الملحة إلى رؤوس أموال ضخمة لاستغلال المستعمرات، فقد منحت البرتغال في مستعمراتها امتيازات كبيرة لشركات أجنبية تجارية تابعة لدول أخرى⁽¹³¹⁾ وفي واقع الأمر فإن الأسباب في ذلك تعود إلى أن الملك البرتغالي كان يحتكر تجارة السلع المربحة فلم يترك مجالاً للبرجوازية في الأنظمة الهولندية والفرنسية والبريطانية، إذ إن تأسيس البرجوازية للشركات الاحتكارية كان يربط مصالح كثير من الأفراد بحركة الاستعمار، هذا فضلاً عن عدم وجود نظام دقيق في البحرية البرتغالية، وتكرر حوادث التمرد والخلافات بين الضباط البرتغاليين، وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور قوى بحرية جديدة في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، تمثلت هذه القوى في الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين، وقد تميزت هذه القوى المنافسة بأنها كانت أكثر إدراكاً للمصالح التجارية، فقد دخلت هولندا حلبة الصراع في البحار الشرقية لتحقيق أهدافها الاستعمارية عندما أسست شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1594م⁽¹³²⁾ ثم أعقبتها إنجلترا التي أسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية في عام 1600م، وكذلك أسست فرنسا شركة الهند الشرقية الفرنسية عام 1664م، مما أدى في نهاية المطاف إلى تحطيم الاحتكار البرتغالي لتجارة الشرق الذي استمر قرابة قرن من الزمان منذ أن وصلت السفن البرتغالية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام 1498م⁽¹³⁴⁾. وفي نهاية المطاف نستطيع القول أن الامبراطورية البرتغالية في الشرق سارت إلى الاضمحلال والزوال، عندما فقدت استقلالها ووقعت تحت الاحتلال الأسباني لمدة ستين عاماً (1580-1640م) وأهملت أسبانيا مستعمرات البرتغال في الشرق مما جعلها نهياً للدول الأخرى⁽¹³⁵⁾، ولقد وقف في وجه البرتغاليين- بعد أن نشروا الخراب في الشرق- العثمانيون، حيث استطاعوا أن يطردوا البرتغاليين من البحر الأحمر ثم سيطروا على الأجزاء الشمالية من شرق إفريقيا (إريتريا وشمال الصومال)⁽¹³⁶⁾.

نتائج البحث:

1. بين البحث حجم النزاعات وعمق الخلافات التي كانت تعاني منها منطقة القرن الإفريقي والتي كانت من أهم دوافع الاستعمار البرتغالي ونتائجه في ذات الوقت.
2. أولى العثمانيون منذ سنة 1517م اهتماماً بالغاً بالبحر الأحمر وشرق إفريقيا وأصبحت مسؤولية حمايتهما وسواحلهما تقع على عاتقهم.

3. لم يتمكن البرتغاليون من النفوذ والسيطرة على الداخل وإنما اقتصر سيطرتهم على منطقتي البحر والساحل.
4. تركز وجود البرتغاليين في (أنجولا وموزمبيق) فيما بعد حتى نالتا استقلالهما.
5. أدركت الدولة العثمانية بعد أن نجحت في السيطرة على مصر والشام (1516-1517م) وفرض قوتها على الحجاز، أدركت أهمية البحر الأحمر والحاجة الماسة لتأمين الملاحة فيه.
6. نجح العثمانيون في أن يحدوا من الضغط البرتغالي على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية، حيث حطموا كل المحاولات الرامية إلى تكوين (جبهة أوروبية- حبشية) ضد القوى العربية.
7. قامت العديد من الثورات الشعبية في منطقة القرن الإفريقي المناهضة لمحاولات البرتغال للسيطرة عليه، نتيجة الاستغلال والاحتكار الذي مارسه البرتغاليون ضد أهالي القرن الإفريقي.
8. واجه البرتغاليون في شرق إفريقيا (القرن الإفريقي) ثورات متعددة ومقاومة من الإفريقيين والعرب المستقرين بهذه المناطق وقد لقيت تلك الثورات تأييداً من قبل العثمانيين.

التوصيات:

1. ندعو الجامعات اليمنية ومراكز الأبحاث والدراسات التاريخية إلى الاهتمام بدراسة منطقة البحر الأحمر القرن الإفريقي وذلك لما لها من أهمية سياسية واستراتيجية كبرى بالنسبة لليمن والدول المجاورة.
2. ندعو جميع الباحثين إلى كتابة وتدوين تاريخ الدول المطلة على البحر الأحمر والقرن الإفريقي، وذلك لكون الموقعان يمثلان عمقا استراتيجياً وبعداً قومياً لتلك الدول.

المصادر والمراجع:

- (1) غربال، محمد شفيق، (وآخرون): الموسوعة العربية الميسرة، ط1، مج1، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، بيروت، 1987م، ص1047.
- (2) السلطان، محمد حميد: الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين (1507م - 1525م)، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000م، ص26.
- (3) حميدي، جعفر عباس: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، 2002م، ص70.
- (4) المصدر السابق، ص72.
- (5) يحيى، جلال: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999م، ص63.
- (6) السلطان، محمد حميد: المصدر السابق، ص29.
- (7) المصدر نفسه، ص29.
- (8) الهجري، عبدالحكيم: المحاولات البرتغالية للسيطرة على عدن (1513 - 1538م)، مجلة الثوابت، العدد(48)، إبريل - يونيو 2007م، ص211.
- (9) رمضان، عبدالعظيم: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، ج2، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م، ص35.
- (10) الجمل، شوقي (وآخرون): تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الثقافة، القاهرة، 2001م، ص115.
- (11) هنري الملاح: أمير برتغالي (1394-1460م)، اشتهر بدعته للملاحة والكشوف الجغرافية، (الزركلي، خير الدين: الأعلام، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984م، ص504).
- (12) تسن، فرغلي علي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، 2001م، ص31.
- (13) المصدر نفسه، ص33.
- (14) رياض، محمد: افريقيا دراسة لمقومات القارة، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1973م، ص40.
- (15) غربال، محمد شفيق، (وآخرون): المصدر السابق، ص550.
- (16) الجوهري، يسري: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ط3، دار المعارف، الاسكندرية، 1979م، ص156.
- (17) نفس المصدر السابق، ص159.
- (18) 18 غربال، محمد شفيق: المصدر السابق، ص342.
- (19) 19 فاسكو دي جاما: (1469 - 1524م) كان أول قائد برتغاليكتشف الطريق البحري إلى الهند(ماكرو، إريك: اليمن والغرب (1571-1962م) [ترجمة وتحقيق]: حسين عبدالله العمري، دمشق 1978م، ص13.
- (20) وايدنز، دونالد: تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء [تر: شوقي الجمل، مج2. مؤسسة سجل العرب بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك 1976م، ص24.
- (21) نفس المصدر السابق، ص24.
- (22) يحتل إقليم ملبار الجزء الجنوبي من ساحل الهند الغربي، وهو إقليم خصب تكثر به التوابل، وبه الكثير منالموانئ الهامة مثل كاليكوت وكوشن وكانور وكولم(سالم، سيد مصطفى:الفتح العثماني الأول لليمن(1635-1538م)، ط7، دار جامعة صنعاء للطباعة والنشر، صنعاء، 2010م، ص70).

- (23) نفس المصدر السابق ، ص 71.
- (24) 24الرمال ، غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير -لم تنشر-كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبدالعزيز، 1981م، ص 67.
- (25) أباضه، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م، ص 47.
- (26) فليجه، أحمد نجم: أفريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الإسكندرية، (د.ت) ، ص 26.
- (27) نفس المصدر السابق، ص 28.
- (28) يحيى، جلال : تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ، 1983، ص 65.
- (29) رياض، زاهر: تاريخ استعمار أفريقيا واستقلالها. ، دار المعرفة، القاهرة 1966م، ص 44.
- (30) نفس المصدر السابق: ص 45.
- (31) 31القوزي، محمد علي: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص 15.
- (32) عياد، خالد حماد: أهمية جزر البحر الأحمر في الأمن القومي العربي جزيرة حنيش الكبرى وتيران وصنافير دراسة حالة 2017-1956م، أطروحة دكتوراه -لم تنشر-كلية الدراسات العليا، جامعة مؤتة، الأردن، 2017م، ص 1.
- (33) أباضه، فاروق عثمان: اثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر. ط 2، دار المعارف، القاهرة، (د.ت) ، ص 37.
- (34) العيدروس، عبدالقادر: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، بغداد 1934م، ص 65.
- (35) الرمال ، غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص 81.
- (36) اغي، إسماعيل (وآخرون): تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج 2، دار المريخ، الرياض 1993م، ص 252.
- (37) سالم، سيد مصطفى: المصدر السابق، ص 82.
- (38) الجمل، شوقي (وآخرون): دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، المكتبة المصرية للمطبوعات، القاهرة، (د.ت)، ص 85.
- (39) الهجري، عبدالحكيم: المحاولات البرتغالية للسيطرة على عدن (1513-1538م)، المرجع السابق، ص 224.
- (40) متولي، أحمد: البحرية البرتغالية والعثمانية في القرن 10هـ / 16م على ضوء الوثائق التركية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد (4) الرياض، 1980م، ص 69.
- (41) ديو: جزيرة تقع في شمال غرب الهند، وقد ظلت مستعمرة برتغالية حتى استعادتها الهند عام 1961م (عودة، عبد الملك : السياسة والحكم في أفريقيا، القاهرة، 1956م، ص 71.
- (42) سالم، سيد مصطفى: المصدر السابق ، ص 85 .
- (43) مؤنس، حسين : الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، 1935م، ص 1، 35.
- (44) نفس المصدر السابق، ص 35.
- (45) سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن، ص 74.

- (46) المصدر نفسه، ص91.
- (47) زيلع: ميناء على الساحل الأفريقي لخليج عدن، ازدهرت أوائل القرن 16م (غربال، شفيق: الموسوعة العربية الميسرة ص929).
- (48) سالم، سيد مصطفى: المصدر السابق، ص403.
- (49) وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين (-14 20)، مج1، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص403).
- (50) بواهن، آ.آدو: تاريخ أفريقيا العام في ظل السيطرة الاستعمارية (1880- 1935م)، مج7، اليونسكو، باريس، 1988م، ص55.
- (51) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، القاهرة، 1938م، ص173.
- (52) القوزي، محمد علي: المصدر السابق، ص41.
- (53) المصدر نفسه، ص44.
- (54) ناود، محمد سعيد: العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي، (د.ت)، ص111.
- (55) سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن، ص433.
- (56) أباضه، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، ص 48-49.
- (57) نفس المصدر السابق، ص48.
- (58) القوزي، محمد علي: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المصدر السابق، ص48.
- (59) حميدي، جعفر عباس: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر،، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 2002، ص35.
- (60) متولي، أحمد فواد: الفتح العثماني للشام ومصر وخدماته، ص231.
- (61) الرمال، غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، المصدر السابق، ص225.
- (62) حسن إبراهيم محمد: البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م، ص38.
- (63) الحميد، عبداللطيف محمد: البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى 1337-1332هـ/ 1918-1914م، ط1، 1994م، ص15.
- (64) الرمال، غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر، المصدر السابق، ص256.
- (65) مؤلف مجهول: تاريخ الحبشة، القاهرة، 1973، ص203.
- (66) برخت، احمد ماح: وثائق عن الصومال والحبشة وارتييا، شركة الطوبجي للطباعة والنشر، القاهرة، 1973م، ص189.
- (67) أباضه، فاروق عثمان: أثر تحول التجارة، المرجع السابق، ص94.
- (68) الرمال، غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، المصدر السابق، ص257-258.
- (69) حسن، إبراهيم: الإمام أحمد بن إبراهيم القرين، رسالة ماجستير لم تطبع، جامعة القاهرة، ص75.
- (70) حسن، إبراهيم محمد، المرجع السابق، ص38.
- (71) سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن، ص430-211.
- (72) أباضه، فاروق عثمان: المصدر السابق، ص94.
- (73) نفس المصدر السابق، ص131.
- (74) أباضه، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، ص54.

- (75) نفس المصدر السابق: ص 55
- (76) إبراهيم، عبدالله، (وآخرون) : تاريخ أفريقيا الحديث المعاصر، دار الثقافة، القاهرة 2001، ص 30.
- (77) إسحاق، محمد عبدالعزيز : نهضة أفريقيا، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1971م، ص 25
- (78) نفس المرجع السابق، ص 32.
- (79) سيلاسي، بيريكتهايتي: الصراع في القرن الأفريقي، [تر] عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1980م، ص 55.
- (80) طاهر، أحمد : أفريقيا فصول من الماضي والحاضر، دار المعارف، القاهرة 1975، ص 20.
- (81) كلوه: كانت حاضرة لمملكة الزنج التي تأسست في القرن 4م ولكن لعدم اتحادها مع الممالك المجاورة لم تصمد طويلاً أمام قوة البرتغاليين (ياغي، إسماعيل (وآخرون): تاريخ العالم الإسلامي، ص 258).
- (82) حميدي، جعفر عباس: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المصدر السابق، ص 73
- (83) سمونوف، فلاديمير: أفريقيا قارة ثائرة، [تر]: بدر السيد ، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1982م، ص 95.
- (84) غربال: الموسوعة العربية الميسرة، ص 986.
- (85) موزمبيق: مستعمرة برتغالية جنوب أفريقيا على المحيط الهندي، نشطت فيها تجارة الرقيق (وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، ص 251) .
- (86) موسى، عابدة العزب: العبودية في أفريقيا والتاريخ المفقود، ط 1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م، ص 45.
- (87) الجمل، شوقي (وآخرون): دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص 37-38.
- (88) الدالي، الهادي مبروك: التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن 18م،، الدار المصرية اللبنانية، الإسكندرية، (د.ت) ، ص 65.
- (89) المصدر نفسه، ص 67
- (90) العمري، أحمد سويلم: الأفريقيون والعرب ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1967م ، ص 139.
- (91) متولي، أحمد: البحرية البرتغالية- العثمانية في القرن (15هـ / 16م) ، ص 90.
- (92) عودة، محمد الخطيب: تاريخ العرب الحديث ، ص 363.
- (93) القوزي، محمد علي : تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص 14.
- (94) جوليان ، شارل اندريه: تاريخ أفريقيا (تر): طلعت عوض أباطة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1986م ، ص 15.
- (95) وزارة التربية والتعليم: التاريخ الحديث، ط 18، مطبعة أسعد، بغداد، 1973م ، ص 45.
- (96) المصدر نفسه ، ص 48.
- (97) سفالة: مدينة في الجزء الجنوبي الشرقي من موزمبيق كانت في أقاصي مملكة الزنج زارها كثير من البرتغاليين وكانت الثغر الوحيد لتصدير الذهب (وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، ص 983.
- (98) وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين ، ص 820.
- (99) غربال، محمد شفيق، وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ص 1062
- (100) العمري: احمد حمود: عمان وشرق أفريقيا ، عمان 1980، ص 70
- (101) ياغي، إسماعيل (وآخرون): تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ص 254.
- (102) الجمل، شوقي: تاريخ أفريقيا، ص 34.

- (103) رأفت، إجلال، (وآخرون): القرن الأفريقي (المتغيرات الداخلية والصراعات الدولية)، دار النهضة العربية، القاهرة 1985م، ص87.
- (104) حافظ، صلاح الدين: صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي، في: مجلة عالم المعرفة، العدد (49)، المجلس الوطني للثقافة والفنون. الكويت 1982م، ص85: الجمل، شوقي (وآخرون): دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص78.
- (105) ((أحمد، عبدالعال: البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه نصوص جديده مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني(بامخرمه) كما سجلها في مخطوط قلادة النحر، (دراسة وتحقيق)الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، ص66.
- (106) المصدر نفسه، ص80
- (107) العيدروس، محمد حسن: تاريخ العرب الحديث، القاهرة 2001م، ص 45.
- (108) الجمل، شوقي (وآخرون): تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص114.
- (109) المصدر نفسه، ص17
- (110) يحيى، جلال: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية 1999م ، ص112
- (111) الجمل، شوقي (وآخرون): المصدر السابق، ص121.
- (112) أباضه، فاروق عثمان: اثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء، المصدر السابق، ص130.
- (113) غريال، محمد شفيق، وآخرون: الموسوعة العربية الميسره، ، ص950.
- (114) يوسف،عبدالملك محمد:الإمام أحمد بن إبراهيم ودوره في القرن الإفريقي (949-912هـ/-1506م) 1542م)،رسالة ماجستير (لم تنشر)،قسم التاريخ ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة صنعاء، 2013م، ص67-59.
- (115) الجمل، شوقي ، (وآخرون): دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص60.
- (116) يوسف،عبدالملك محمد:المصدر السابق، ص60.
- (117) الرمال،غسان علي محمد:صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر،المصدر السابق، ص273.
- (118) الجمل، شوقي ، (وآخرون):المصدر السابق، ص61.
- (119) الرمال،غسان علي محمد:صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر،المصدر السابق، ص273.
- (120) ياغي، إسماعيل (وآخرون): تاريخ العلام الإسلامي الحديث والمعاصر، ص255.
- (121) العيدروس، محمد حسن: المصدر السابق ، ص97.
- (122) الرمال،غسان علي محمد:صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر،المصدر السابق، ص292-293.
- (123) (سالم، سيد مصطفى:الفتح العثماني الازل لليمن، ص404)
- (124) الرمال،غسان علي محمد:صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر،المصدر السابق، ص293.
- (125) نفس المصدر السابق، ص295.
- (126) طاهر، أحمد : أفريقيا فصول من الماضي والحاضر، ص450
- (127) وايدرن، دونالد: تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ، ص58.
- (128) المصدر نفسه، ص60
- (129) أباضه، فاروق عثمان: اثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء،المصدر السابق، ص130.
- (130) أباضه، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، المصدر السابق، ص55.

- (131) الجمل، شوقي (وآخرون): تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص123.
- (132) العقاد، صلاح: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1965م، ص21.
- (133) 133PP.4Hoskin.H.L:British Routes to India، 1928.
- (134) أباضه، فاروق: اثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح، المصدر السابق، ص133.
- (135) البطريق، عبد الحميد (وآخرون): التاريخ الأوروبي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت)، ص57.
- (136) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، ج8، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 1991م، ص568.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: قائمة المصادر العربية والمراجع:

- (1) أحمد، عبدالعال: البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه نصوص حديده مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني(بامخرمه) كما سجلها في مخطوط قلادة النحر، (دراسة وتحقيق)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1980م.
- (2) أباضه، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.
- (3) أباضه، فاروق عثمان: اثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، القاهرة، (د.ت.).
- (4) إبراهيم، عبدالله، (وآخرون): تاريخ افريقيا الحديث المعاصر، دار الثقافة، القاهرة 2001.
- (5) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج1، (د.ن)، القاهرة، 1938م.
- (6) اسحاق، محمد عبدالعزيز : نهضة أفريقيا، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1971م.
- (7) برخت، احمد ماح: وثائق عن الصومال والحبشة وارتيريا، شركة الطوبجي للطباعة والنشر، القاهرة، 1973م.
- (8) البطريق، عبدالحميد (واخرون): التاريخ الأوروبي الحديث ،دار النهضة العربية ، بيروت (د.ت.).
- (9) بواهن، آ.آدو: تاريخ أفريقيا العام في ظل السيطرة الاستعمارية (1880-1935م)، مج7 . اليونسكو، باريس 1986م .
- (10) تسن، فرغلي علي : تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية 2001.
- (11) جوليان، شارل اندريه: تاريخ افريقيا (تر): طلعت عوض أباضه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1986م .
- (12) الجوهري، يسري: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ط3، دار المعارف، الاسكندرية 1979م.
- (13) حافظ، صلاح الدين: صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي، في : مجلة عالم المعرفة، العدد (49)، المجلس الوطني للثقافة والفنون . الكويت 1982م.
- (14) حسن، إبراهيم محمد: البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م.
- (15) حسن ،إبراهيم: الإمام أحمد بن إبراهيم القرين، رسالة ماجستير لم تطبع ،جامعة القاهرة، (د.ت.).

- (16) الحميد، عبداللطيف: البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البرتغالي خلال الحرب العالمية الأولى، ط1 ، مكتبة العبيكان، الرياض، 1994م.
- (17) حميدي، جعفر عباس: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر ، دار الفكر للطباعة والتوزيع، عمان، 2002.
- (18) الجمل، شوقي(وأخرون): تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الثقافة، القاهرة، 2001م.
- (19) الجمل، شوقي(وأخرون): دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، المكتبة المصرية للمطبوعات، القاهرة، (د.ت).
- (20) الدالي، الهادي مبروك: التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن 18م، الدار المصرية اللبنانية، الاسكندرية، (د.ت) .
- (21) رأفت ، إجلال، (وأخرون): القرن الأفريقي (المتغيرات الداخلية والصراعات الدولية)، دار النهضة العربية، القاهرة 1985م.
- (22) الرمال ، غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير -لم تنشر- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبدالعزيز، 1981م.
- (23) رمضان، عبدالعظيم: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، ج2، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.
- (24) رياض، زاهر: تاريخ استعمار أفريقيا واستقلالها. ، دار المعرفة، القاهرة 1966م.
- (25) رياض، محمد : افريقيا دراسة لمقومات القارة ، ط2 ، دار النهضة العربية، بيروت، ، 1973م.
- (26) الزركلي، خير الدين: الأعلام، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984م.
- (27) سالم، سيد مصطفى : الفتح العثماني الاول اليمن (1538 - 1635م)، ط7، دار جامعة صنعاء للطباعة والنشر، صنعاء 2010م.
- (28) السلطان، محمد حميد: الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة مابين (1507-1525م)، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000م.
- (29) سلاسي، بيركيت هايتي: الصراع في القرن الأفريقي. [تر] . عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1980 .
- (30) سمونوف، فلاديمير: أفريقيا قارة ثائره .[تر]: بدر السيد . دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1982م .

- (31) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، ج8، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 1991م.
- (32) طاهر، أحمد : افريقيا فصول من الماضي والحاضر. دار المعارف، القاهرة 1975.
- (33) عبدالرزاق، عبدالله، الجمل، شوقي: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا. المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة (د.ت).
- (34) عبدالرسول، كوثر، رياض، محمد: أفريقيا دراسة لمقومات القارة، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1973م.
- (35) العقاد، صلاح: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1965م.
- (36) العمري: احمد حمود: عمان وشرق أفريقيا، عمان 1980.
- (37) العمري، أحمد سويلم: الافريقيون والعرب . مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1967م (د.ط).
- (38) عودة، عبدالمك : السياسة والحكم في أفريقيا. (د.ت)، القاهرة 1956م
- (39) عودة، محمد، (وآخرون) : تاريخ العرب الحديث . الاهلية للنشر، عمان.
- (40) العيدروس، عبدالقادر: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، بغداد 1934م.
- (41) العيدروس، محمد حسن: تاريخ العرب الحديث، القاهرة 2001 م .
- (42) غربال، محمد شفيق، وآخرون: الموسوعة العربية والميسره، ط1، مج، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، بيروت، 1987م.
- (43) فليجه، أحمد نجم الدين: افريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية (د.ت) .
- (44) القوزي، محمد علي : في تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت) .
- (45) ماكرو، إريك : اليمن والغرب (1571-1962م) [ترجمة وتحقيق] : حسين عبدالله العمري، ، دمشق 1978.
- (46) متولي، أحمد فواد: الفتح العثماني للشام ومصر وخدماته، (د.ط)، (د.ت)
- (47) موسى، عايدة العزب : العبودية في افريقيا والتاريخ المفقود، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2004م.
- (48) مؤلف مجهول: تاريخ الحبشة ، القاهرة ، 1973.

- (49) مؤنس، حسين : الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط1، مطبعة حجازي، القاهرة 1935م.
- (50) ناود، محمد سعيد: العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي، (د.ت).
- (51) رأفت، إجلال، (وآخرون): القرن الأفريقي (المتغيرات الدولية والصراع الدولي)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985م.
- (52) وزارة التربية والتعليم: التاريخ الحديث، ط18، مطبعة أسعد، بغداد 1973م.
- (53) وايدندر، دونالد: تاريخ افريقيا جنوب الصحراء [تر]: شوقي الجمل، مج2، مؤسسة سجل العرب بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك 1976م.
- (54) وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن (14-20)، ط3، مج1، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1971م.
- (55) ياغي، إسماعيل، شاكر، محمود: تاريخ العلام الاسلامي الحديث والمعاصر، ج2. دار المريخ، الرياض 1993م.
- (56) يحيى، جلال: تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية 1983م.
- (75) يحيى، جلال : تاريخ اوروبا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 9991م.

ثانيا الرسائل العلمية:

- (1) عياد، خالد حماد: أهمية جزر البحر الأحمر في الأمن القومي العربي جزيرة حنيش الكبرى وتيران وصنافير (دراسة حالة 6591-7102م)، أطروحة دكتوراه - لم تنشر - كلية الدراسات العليا، جامعة مؤتة، الأردن، 7102م
- (2) يوسف، عبد الملك محمد: الإمام أحمد بن إبراهيم ودوره في القرن الإفريقي (219-949هـ/ 6051-2451م)، رسالة ماجستير (لم تنشر)، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء، 3102م.

ثالثاً: المجلات الدورية:

- (1) متولي، أحمد : البحرية البرتغالية- العثمانية في القرن (51هـ / 61م) على ضوء الوثائق التركية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد (4) الرياض، 0891م.
 - (2) الهجري، عبدالحكيم: المحاولات البرتغالية للسيطرة على عدن (3151- 8351م)، مجلة الثوابت، العدد (84) ابريل - يونيو 7002م.
- رابعاً: المصادر الأجنبية :

Hoskin.H.L:British Routes to India.1928.1-

البحر الأحمر وحركة الكشوف الجغرافية

أ. مشارك - قسم التاريخ -
كلية التربية - جامعة الجزيرة

د. عزة محمد موسى

المستخلص:

البحر الأحمر من البحار المهمة في العالم ، ويقع بين قارتي أفريقيا وآسيا ويطل على عدد من الدول ، وترجع نشأته الى قرون خلت فتكون وتشكل على هيئة الطولية وضيقه واتساعه ، وقد كان مسرحا لمرور السفن والأشعة من الدول الأوروبية والعربية من قبلها ، يهدف هذا البحث للإخبار عن البحر الأحمر والرحلات التي عبرت أمواجه ، كما يهدف لدراسة الرحلات الأوروبية التي جرت في القرن الخامس عشر وتوضيح وتوضيح نتائجها السياسية والاقتصادية على العالم ، وقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي والوصف الارتباطي ، وقد قسم البحث إلى ثلاثة محاور ؛ الأول عن البحر الأحمر تناول تاريخه ونشأته وتكوينه الجغرافي وأسماءه ، والمحور الثاني هو الرحلات قبل القرن الخامس عشر الميلادي وحوى عدد من الرحلات التي ارتادت هذا البحر ومسارها وأهم ما صاحبها من أحداث ، أما المحور الثالث والأخير وسم بالرحلات في القرن الخامس عشر وهي ما سميت بحركة الكشوف الجغرافية فبين المحور نشاط الدول الأوروبية في البحر الأحمر وتنافسها حول موانئه ومضايقه كذلك تناول المحور مقدمات الاحتلال التي مهدت لها هذه الرحلات تحت اشراف الدول الأوروبية قبل عقدها لمؤتمر برلين الشهير 1884-1885م وتوصلت الدراسة اليوم عدد من النتائج من أهمها ؛ لم تكن سواحل البحر الأحمر بجانيبها الأفريقي والآسيوي مجهولة العالم ليكتشفها الأوروبيون في القرن الخامس عشر الميلادي وإنما هي مقدمة لحركة احتلال واسعة اجتاحت العالم ، سبق العرب غيرهم في تمهيد الطرق البحرية وركوبها ومعرفة ميقات الملاحة الأنسب ، رحلات العرب والمسلمين في البحر الأحمر وعبره كانت هي الأكثر عدداً وترتب عليها العديد من الاكتشافات والمعلومات الجغرافية الفلكية والجمورفولوجية بيد أنهم لم يكتبوها ويدونوها ويحفظوها أصلاً من بعض كتابات الرحلات ، البرتغال وهولندا وإيطاليا وفرنسا جميعهم حاولوا إيجاد أراضي يحتلونها تطل على البحر الأحمر ، سهل البحر الأحمر كثيراً للمحتلين وساعدهم في حماية مستعمراتهم ، توصي الدراسة بالبحث في العلاقة بين قارتي أفريقيا وآسيا

عبر البحر الأحمر، وبحث التنافس الأوروبي في سواحل البحر الأحمر، وبحث التنافس الأوروبي في سواحل البحر الأحمر، ودراسة جغرافية البحر الأحمر ودورها في اقتصاد العالم في القرن التاسع عشر الميلادي، وتحليل الرحلات وكتابات الرحالة عبر البحر الأحمر.

Abstract:

European voyages (geographic listings movement) Study extract. The Red Sea is one of the important seas in the world, and it is located between the continents of Africa and Asia and overlooks a number of countries, and its origin dates back to centuries ago and is formed on its longitudinal, narrow and wide form, and it was a scene for the passage of ships and sails from European and Arab countries before them, this research aims to inform about The Red Sea and the trips that crossed its waves, as it aims to study the European voyages that took place in the fifteenth century and to clarify and clarify their political and economic consequences on the world. The study followed the historical method and the relational description, and the research was divided into three axes: The first on the Red Sea dealt with its history, origin, geographical formation and names, and the second axis is the voyages before the fifteenth century AD and contained a number of trips that traveled this sea and its course and the most important events accompanying it, while the third and last axis was marked by trips in the fifteenth century, which is what was called the movement of revelations The geographical axis showed the axis between the activity of the European countries in the Red Sea and the competition over its ports and harassment. The axis also dealt with the preludes to the occupation that were paved for these trips under the supervision of European countries before the famous Berlin Conference of 1885-1884 AD. The study today reached a number of results, the most important of which are: The coasts of the Red Sea, with its African and Asian sides, were not unknown to the world for the Europeans to discover in the fifteenth

century AD, but rather a prelude to a wide occupation movement that swept the world, the Arabs preceded others in paving and riding the sea routes and knowing the most appropriate navigation times. The trips of Arabs and Muslims in and through the Red Sea were the most numerous. It resulted in many discoveries and astronomical and morphological geographic information, but they did not write it, write it down and memorize it originally from some travel writings. Between the continents of Africa and Asia across the Red Sea, a study of European competition in the coasts of the Red Sea, a study of the geography of the Red Sea and its role in the world economy in the nineteenth century AD, and an analysis of voyages and traveler writings across the Red Sea.

المقدمة:

البحر الأحمر من بحار العالم القديم وتكمن أهمية البحث من أهمية هذا البحر وموقعه في العالم ودوره في الاقتصاد والسياسة لاسيما في حقبة القرن الخامس عشر زمن الدراسة، ولذا تم اختيار هذا الموضوع للدراسة ليكون من بين موضوعات الموسوعة. وقد درس البحر الأحمر والكشوف الجغرافية من قبل العديد من الباحثين ودونوا حوله معلومات مهمة أصبحت هدى ومنارة في طريق الدارسين في علوم شتى في الفلك والجغرافيا والتاريخ والآثار وغيرها، فقد كتب الرحالة والمغامرون وسجلوا رحلاتهم عبر البحر، أمثال ابن بطوطة وابن حوقل وجيمس بروس وغيرهم، كما كتب المحدثون من المؤرخين عن البحر الأحمر والرحلات التي عبرت مياهه فأجادوا وأفادوا في قراءات الراهن السياسي والتطورات في كافة الصعد في العلاقات الدولية.

فجاء هذا البحث محاولة للإبحار في أمواج معلومات ومعارف هذا البحر الواسع، وقد حدد نطاقه الزماني بالقرن الخامس عشر بتحديد زمان الرحلات الأوروبية التي أسموها بحركة الكشف الجغرافية ونطاقها المكاني أمواج البحر الأحمر وموانئه ومضايقه، واتبعت الدراسة المنهج التاريخي والتحليلي والاستنتاجي لمعالجة مادة البحث وعليه قسم إلى ثلاثة محاور هي البحر الأحمر، والرحلات قبل القرن الخامس عشر الميلادي، أما المحور الأخير يتناول الرحلات الأوروبية (حركة الكشف الجغرافية).

البحر الأحمر:

البحار تتألف من مسطحات مائية محيطية واسعة الامتداد، قد تكون شبه مغلقة أو محاطة بأجزاء من اليابس من عدة جهات، فالمياه المحيطية هي مياه المحيطات المتصلة بعضها ببعض الآخر والتي تحيط بيابس الكرة الأرضية وتكون القسم المائي الهائل المساحة على سطح الكرة الأرضية.⁽¹⁾

أما البحر الأحمر فترجع نشأته إلى حوالي أربعين مليون عام سابقة، وهو جزء من الإخدود الإفريقي الذي تكون في الحقبة الأيوسينية في الزمن الجيولوجي الثالث، إذ اتصفت تلك الحقبة بكثرة الانفجارات البركانية واتساع الحركات الالتوائية، ونشوء ظاهرة الانكسارات في القشرة الأرضية وأدت إلى بروز سلاسل جبلية وهضاب مرتفعة ووديان ومنخفضات شديدة، كان من بينها منخفض البحر الأحمر الذي برزت إلى جانبيه سلاسل جبلية التوائية.⁽²⁾ والبحر الأحمر ورد ذكره في تقسيم الإدريسي في اثنين من أقاليمه وتقسيماته؛ في الإقليم الثاني حيث كتب أنه يمتد من الغرب إلى الشرق ابتداءً من بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي، ماراً بجزر الخالدات وكل أجزاء مصر وساحل بحر القلزم، وشبه جزيرة العرب والخليج العربي، ويمتد شرقاً إلى أجزاء من بلاد الهند إلى أن ينتهي عند الشرق في جنوب الإقليم الأول، وذكره في الإقليم الثالث حيث قال إنه يبدأ من المحيط الأطلسي ويشمل جزر عديدة فيه مثل جزر ساره وخسران وقلهان، ثم يمتد إلى تونس وليبيا والبحر المتوسط والإسكندرية وجزء من بحر القلزم (خليج السويس) وفلسطين والشام والجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية والبحرين وإيران وتركستان وهضبة التبت إلى الشرق من الصين، ويقع هذا الإقليم جنوب الجزء الثاني وينقسم كغيره من الأقاليم إلى عشرة أجزاء.⁽³⁾ وهو جسم يمتد طولياً ما بين السويس في أقصى الشمال وباب المندب في أقصى الجنوب، ويبلغ طوله حوالي 1200 ميل ويتفاوت عرضه ما بين 250 ميلاً في القسم الجنوبي إلى 130 ميلاً في القسم الشمالي، ويظهر في شكل حوض ضيق مستطيل من المياه يفصل سواحل شبه الجزيرة العربية عن السواحل الإفريقية، ويرتفع في الشمال إلى خليجي السويس والعقبة تفصلها شبه جزيرة سيناء، ويتصل في الجنوب بخليج عدن المفتوح على مياه المحيط الهندي.⁽⁴⁾ وتبلغ مساحته 17.800 ميل مربع ومتوسط اتساعه 170 ميلاً يضيق كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً، وأكثر مناطقه اتساعاً 195 ميلاً، تمتد في مصوع في إرتريا على الساحل الإفريقي، وجازان على ساحل الجزيرة العربية جنوب الحجاز، وأضييق مناطقه تبلغ 40 ميلاً بين عصب في إرتريا والمخا اليمن وينتهي جنوباً باب المندب.⁽⁵⁾ وقد ذكر الكثير عن أهمية البحر

الأحمر من بينها موقعه بين قارتي إفريقيا وآسيا في موقع ممتاز بين بحار العالم تتوسط فيه الأقاليم العديدة ليتنوع الإنتاج فأصبح معبراً تجارياً مهماً، كما أن سواحل طويلة مما يجعلها أكثر قدرة على التحكم في الملاحة.⁽⁶⁾ وأيضاً تحتوي المنطقة على عدد من الجزر والخلجان ذات أهمية استراتيجية، تتناثر على طول البحر الأحمر تختلف في درجة أهميتها من مجموعة لأخرى، وقيل إن عددها حوالي 380 جزيرة بعضها أهل بالسكان، ومن بينها جزيرة بريم في مضيق باب المندب، وجزيرة فرسان بالقرب من مدينة جازان، وجزيرة قمران أو كمران على الساحل اليمني وجزيرتا تيران وصنافير في مدخل خليج العقبة، ومجموعة جزر عند مدخل خليج السويس منها جزيرة شدوان وجزر جريان وجزر طويلة.⁽⁷⁾

كذلك يطل على البحر الأحمر عدد من الموانئ المهمة على طول سواحل منها؛ في الساحل الغربي السويس وسواكن وبورتسودان وجيبوتي وزيلع وبربرة، على الساحل الشرقي ينبع وجدة والحديدة والمخا وعدن.⁽⁸⁾ ومن هنا يتضح أن لكل جزء من البحر الأحمر أهمية خاصة فالمنفذ الشمالي عبر قناة السويس يضمن الاتصال بدول البحر المتوسط والعالم الخارجي والجزء الأوسط منه باتساعه يجعل لموانئه ومضائده أهمية خاصة، والمنفذ الجنوبي عبر باب المندب يفتح على بقية أجزاء العالم.⁽⁹⁾

كما أن خليج السويس ممر ملاحي مهم، وهو الامتداد الطبيعي لقناة السويس وفيه معظم آبار النفط المصرية وفي مدخله مضيق مهم هو مضيق جوبال أو مضيق باب المندب في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر فيمتد في المياه الإقليمية لثلاث دول هي اليمن وجيبوتي وإرتريا ويستمد أهميته من أنه المنفذ الوحيد المتحكم تماماً في البحر الأحمر من الناحيتين العسكرية والتجارية، وبالنسبة لخليج العقبة تكمن أهميته لمصر في وجود الخط الملاحي بين نويبع وميناء العقبة، ويعد المنفذ الوحيد للأردن، إضافة إلى ذلك يعد البحر الأحمر من أغنى مناطق الثروة المعدنية، تحتوي مياهه على نسبة مركزة من الأملاح المعدنية الضرورية للكثير من المعادن الثقيلة كالحديد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والمغنسيوم والكالسيوم.⁽¹⁰⁾ والجدير بالذكر أن البحر الأحمر من أفضل البيئات الصالحة لنمو الشعب المرجانية من حيث ارتفاع درجة الحرارة والأعماق الضحلة وصفاء المياه وارتفاع نسبة الملاحة، وتتركز الشعب المرجانية في النصف الجنوبي، من البحر الأحمر وكذلك في النصف الشمالي عند مدخل خليج العقبة.⁽¹¹⁾ ويقول ابن ماجد إن بحر القلزم أوسخ بحور الدنيا ويقصد بذلك الشعب المرجانية، والصخور في هذا

البحر ذات الرؤوس الحادة التي تتناثر حول الجزر الصخرية والرملية والتي تعيق الملاحة أحياناً، لذلك كانت السفن تسير نهاراً فقط، ويصف حوراني البحر الأحمر خاصة النصف الشمالي منه بأنه ينطوي على عقبات كأداء مشيراً إلى الشعاب المرجانية الضخمة التي تحف كل ساحليه.⁽¹²⁾ وقد سمي البحر الأحمر بعدة أسماء من بينها بحر القلزم نسبة إلى مدينة القلزم شمال السويس، وسماه العبرانيون هايم ومعناها البحر (يم : البحر، والهاء أداة تعريف) واسموه أيضاً بحر سوف أو سوفه وتعني بالعبرانية أعشاب ضارة أو حشائش، واسماه المصريون القدماء البحر الأخضر، كما سمي بحر أيله نسبة إلى مدينة أيله وعرف بالبحر الحجازي، وسمي ببحر النعام، وبحر عيذاب وذكره ابن جبير بالبحر الفرعوني، وابن رسته اسماه بحر جدة، والهمزاني اسماه بحر الحجاز، وعرف أيضاً ببحر اليمن، وعرف عند الجغرافيين الأغريق والرومان ببحر الحجاز والخليج العربي واسماه الأغريق كذلك ببحر إرتريا، والمحدثون اسموه البحر الأحمر لوجود طحالب ذات لون بني مائل للحمرة في طرفه الشمالي أضفت عليه ذلك اللون.

الرحلات عبر البحر الأحمر قبل القرن الخامس عشر الميلادي:

ركبت السفن أمواج البحر الأحمر منذ بدء الخليقة، ولعله من الأبحر الأكثر حركة وتطواف، فقد قصده الملاحون والمسافرون عابرين شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، بعضهم ضالاً وبعضهم مهتدي، وقد رصدت الكتب العديد من الرحلات وظل الكثير منها في طي الجاهل فلم تصل إليه يد المعرفة، وما زالت البحوث والمصادر تكتب عن هذا البحر ومقامراته، وفي هذه العجالة أذكر بعض مما كتبه المؤرخون عن الرحلات الأولى قبل الرحلات الأوروبية التي اجتاحت العالم في مطلع عصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي.⁽¹³⁾

فمن أقدم ما ذكر في أخبار هذه الرحلات اهتمامات الإسكندر المقدوني العلمية والتي عرف عنه توسعة في أراضي وبقاع واسعة، فقد أمر بصنع لوحة لامبراطوريته إقليمياً فأقليماً، أي نصف العالم المعروف حين ذاك ورسم الطرق فيها ضباط طوبوغرافيون أمثال باتون ورونيوس، كما أرسل مكتشفين للتعرف على طرق المواصلات الممكنة مع البحر الأحمر ومع البحر الأسود.⁽¹⁴⁾ ومن ذلك أنه في عام 510 ق.م. أرسل الملك دارا ملك إيران أحد اليونانيين ويدعي سلولاكس seylax لاكتشاف نهر السند وقد قيل إنه سار شرقاً في هذا النهر إلى أن وصل المحيط ومنه اتجه إلى البحر الأحمر، ويبدو أن هنالك خطأ في خط سير هذه الرحلة إذ إن النهر الذي سار فيه شرقاً هو نهر كابول وليس السند، ومن ثم فهناك الكثير من الشك في نتائج هذه الرحلة.⁽¹⁵⁾ ومعظم المصادر تتفق على أن أقدم رحلة طوافية هي تلك التي حدثت في القرن السابع قبل الميلاد للدوران حول إفريقيا، وكان ذلك في عهد الفرعون

المصري نياخو nichao الذي شق قناة بين النيل والبحيرات المرة للوصول إلى البحر الأحمر، وعن طريقها بعث بأسطول تحت قيادة أحد الملاحين الفنيقيين المعروفين بالمهارة الملاحية للدوران حول إفريقيا، وقد دون الرحلة المؤرخ الشهير هيردوت استناداً على أقوال البحارة بعد مئة عام من رحلتهم، وأوضح أنهم وصلوا إلى أعمدة هرقل (جبل طارق الحالي) بعد أن انطلقوا من البحر الأحمر بحثاً عن أراضٍ جديدة دون أن يعرفوا إلى أين يتجهون، وظلوا يحاذون السواحل فتجاوزوا رأس الرجاء الصالح ولم يدركوا ذلك إلا عندما رأوا الشمس على يمينهم بصورة دائمة، وهكذا كانت رحلتهم من مصر عن طريق هذا البحر الإترتي (البحر الأحمر) إلى المحيط الجنوبي، وعندما حل الخريف اتجهوا إلى السواحل وبذروا الأراضي بالبذرة وظلوا حتى نضج المحصول، وكانوا قد قطعوا مساحة بلغت 20.000 كيلو متر، وكان تحقيق هذا المشروع عملاً خطيراً ونجاحاً مدهشاً يحسب للشخصية الإفريقية.⁽¹⁶⁾

هذا وقد اشتغل الفراعنة بالبحر الأحمر بدرجة أكبر من ركوبهم للبحر المتوسط، حيث كان البحر الأحمر يمثل الطريق الملاحي التجاري الرئيس خلال عهد الأسرات الفرعونية المصرية، ومن بين تلك الرحلات التجارية الفرعونية الرحلة البحرية التي أمرت بها الملكة حتشبسوت. وهي من ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى بلاد بونت (الصومال الحالية) لاكتشاف مناطق جديدة، تستبدل معها السلع التجارية المصرية، ولجلب المواد اللازمة للكهنة والمعابد للقيام بالطقوس الدينية. وقد أكدت الوثائق التاريخية القديمة حقيقة الاتصال التجاري بين مصر الفرعونية وبلاد بونت خاصة في عهد الملك سجورع الذي أنشئت في عهده الموانئ البحرية على ساحل البحر الأحمر في مصر.⁽¹⁷⁾ وقد كان البحر الأحمر من أكثر البحار سفناً في التاريخ القديم وعكفت السفن منذ بداية صناعتها في الإبحار على طول هذا البحر شمالاً وجنوباً، وكانت بطبيعة الحال فيه مرافئ وموانئ ترسو فيها السفن المدفائية في بداية عهد الملاحة ثم السفن الشراعية بعد أن تم اختراع الشراع وكانت تقف في تلك المراسي للتزود بالماء والطعام وحمل المسافرين والمسافرين والبضائع من مرسى إلى آخر.⁽¹⁸⁾ ومن المتوقع أن تكون هذه السفن قد أبحرت أحياناً محاذية للشواطئ الشرقية، وأحياناً للشواطئ الغربية بحثاً عن الطرق الأكثر أماناً أو لمعرفة المجهول، أو سعياً وراء اللؤلؤ الذي اكتشفه الملاحون قديماً وسعوا حثيثاً للحصول عليه فامتطوا مراكبهم ويمم كثير منهم وجهه صوب مرسى دنقوناب شمالي بورتسودان الشهير بكثرة الصدف المحتوي على اللؤلؤ في باطنه، ولذا كان للإبحار من شرقي شواطئ البحر الأحمر على الجزيرة العربية سمة من سمات التاريخ.⁽¹⁹⁾

كما أن العرب اهتموا بدراسة المصطلحات المائية وتوزيعها وتميزت كتاباتهم عن البحر الأحمر والمتوسط وسواحل المحيط الهندي بالدقة إلى حد ما، ومما ساعد على ازدياد معلوماتهم عبر البحار والمحيطات اتساع مجال نشاطهم التجاري وامتداد رقعة العالم الإسلامي والتقاء المسلمين في مواسم الحج.⁽²⁰⁾

فمؤلفات ابن ماجد من أهم ما كتب في العصور الوسطى في مجال الجغرافيا الملاحية، ومن أهم مؤلفاته في هذا المجال كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، وقد تضمن اثنتي عشرة فائدة تتناول الجانبين العلمي والنظري لفن الملاحة وخصوصاً في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.⁽²¹⁾

عليه نجدهم خبروا البحر الأحمر وعرفوا أحواله، فتفادوا صعوبات الملاحة وتجنبوا أزمائها، فحددوا ميقات الإبحار، وقد كانت تهب على البحر الأحمر رياح موسمية دائمة شمالية وشرقية في فصل الصيف متجهة إلى الجنوب الغربي، وتهب في الشتاء من الجنوب الغربي إلى الشمالي الشرقي، لذا يفضل الملاحون الإبحار في فصل الصيف في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر، لترفع هذه الرياح السفن إلى باب المندب ومنه إلى المحيط الهندي وفي الجزء الشمالي تكون العودة في فصل الشتاء في شهر ديسمبر وفي الجنوب في شهري يناير وفبراير فارتبطت الملاحة في البحر الأحمر بالمخاطرة في العصور الوسطى، بالإضافة إلى خطر القراصنة الذين يتعرضون للسفن نهباً وقتلاً وسلباً، ويباع من يسجن في أسواق العبيد النساء والرجال.⁽²²⁾ ولذا نجد عرب الجزيرة يتحاشون الملاحة على الساحل الحجازي جنوباً طوال العام، ويضطرون إلى اتخاذ طرق برية للقوافل محاذية للساحل الحجازي تجنباً لمواجهة أهوال البحر.⁽²³⁾

فأصبحت التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى تشكل عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية في بلاد الشرق والحجم الأكبر منها يسير في طريقيين أولهما طريق البحر الأحمر إلى السويس ثم إلى القاهرة بالقوافل ومنها إلى السفن في فرع رشيد بالقرب من مدينة الرحمانية ومن هنالك إلى الإسكندرية، أما الملاحة في ترعة كانت تصل ما بين النيل والإسكندرية أو على ظهر الدواب، وثانيهما طريق الخليج العربي ونهر الفرات ثم إلى حلب ومنها إلى الموانئ الواقعة شرق البحر المتوسط.⁽²⁴⁾ ولم يكن البحر الأحمر مانعاً بين القارتين الإفريقية والآسيوية وبين شعبيهما بل كان جسراً للتواصل منذ قديم الزمان وعبره تدفقت الهجرات الأولى للسواحل الشرقية

بالقرن الإفريقي قبل أن تنتشر إلى السفوح الهضبية المجاورة وهي: إرتريا، والصومال، وكينيا وتنجانيقا وزنجبار بالإضافة لليمنية والحضارمة، وشقّ عرب كثيرون طريقهم إلى تلك السواحل كالعُمانيين والبحرانيين والحجازيين.⁽²⁵⁾ وظلت التجارة تشكل الرابطة التقليدية بين عرب الجزيرة والأفارقة الشرقيين حتى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وقد طبع الوجود العربي بصماته على الشريط الساحلي والسفوح الهضبية من خلال التنازع الذي أنجب عرقاً ملوناً مميزاً في خصائصه العرقية واللغوية.⁽²⁶⁾ والهجرات العربية للقرن الإفريقي خاصة هي أقدم من هجرة الإسلام، والمسيحية للمنطقة وقد بدأت في القرن العاشر ق.م ومن البصمات العربية الواضحة على المنطقة وعلى أجناسها⁽²⁷⁾ وكان عرب الحجاز يتاجرون بمصر والحبشة ويركبون البحر ويدل على ذلك قول الإمام الطبري أن أرض الحبشة كانت متجراً لقريش يتجرون فيها، ويجدون فيها رفعاً من الرزق وافيّاً ومتجراً حسناً.⁽²⁸⁾ وللتجارة فصول كبيرة في هذا البحر وذكر أن الفراعنة أيضاً كثيراً ما توغلوا في أراضي السودان، وكان الطريق عبر سيناء مفتوحاً للأفراد والجماعات لكي يسلكوه، وقد شوهدت إحدى هذه القوافل التجارية التي يقودها عرب من الجزيرة وهي تنقل التجارة بالجمال بين النيل وصعيد مصر وموانئ البحر الأحمر.⁽²⁹⁾

كذلك كانت قبائل البجة تنقل السلع من البحر الأحمر مثل ريش النعام، إذ مازال النعام يعيش في هذه المنطقة ولربما كان التجار يجدون طلبهم من عاج وبخور في موانئ البحر الأحمر مثل سواكن والعقيق، ولذلك طرقت أماكنهم قوافل التجارة النبطية والحميرية.⁽³⁰⁾

أما أهم حدث عبر هذا البحر فهي هجرة المسلمين عبر ميناء الشعبية الميناء الحجازي حين عبروا إلى الساحل الإفريقي في السنة الخامسة للبعثة، كانت مفتاحاً حديثاً لدور من أدوار هذا البحر، فأصبح معبراً للدعوة الإسلامية، فأسلم النجاشي اصحماً ملك الحبشة، ولما مات صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب.⁽³¹⁾ وهكذا كانت الروابط عميقة ومتراصة بين القارتين عبر هذا البحر الأحمر، فمنذ الهجرات الأولى ولم تنقطع ولم تضعف بظهور الإسلام بل ازدادت وأهمها التوحيد وبناء مجتمع ديني سياسي يتحلى بمثل عليا، وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة أولى هذه الروابط، وقد خرجوا في إحدى السفن الشراعية من ميناء الشعبية بالقرب من جدة، استأجروها مع غيرهم لتحملهم إلى شواطئ البحر الأحمر الغربية إلى الحبشة، وكان واضحاً أنهم اتجهوا إلى البحر تفادياً لطريق القوافل بين مكة وموانئ اليمن لطولها وخوفاً من وصول قريش إليهم فطريق البحر أسرع وأكثر أمناً،

فركبوا البحر وتقاضى منهم صاحبها مبلغ نصف دينار عن كل واحد، وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة.⁽³²⁾ واتجهت بهم السفينة من جدة وجنوبا إلى مصوع وفي الطريق توقفت في جزيرة عبري السودانية التي تسمى بجزيرة الريح ليتزودوا بالماء والراحة والتفريغ والتحميل، فعبروا إلى الحبشة واستجاروا بالنجاشي فأجارهم وأكرم مثواهم، وكان ذلك في السنة الخامسة بعد البعثة، وقضوا معه قرابة الثلاثة أشهر ثم عادوا إلى مكة ولكنهم وجدوا تعنت القرشيين يزداد، فعادوا مرة أخرى إلى الحبشة في هجرة ثانية.⁽³³⁾ وتتوالى الرحلات عبر هذا البحر في ما قبل قدوم الأوروبيين بما عرف بحركة الكشف الجغرافية والتي كانت في عصر النهضة الأوروبية لتمثل مظهراً من مظاهر المعرفة والازدهار الأوروبي بعد أن جثم عليهم الجهل في العصور المظلمة، وتتابع الرحلات عبر البحر الأحمر وجلها كانت من العرب والمسلمين. ومنها الحملة البحرية التي أمر بها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص واليه على مصر إلى ميناء باضع ثم مصوع على الساحل الإفريقي بقيادة أبي محجن الثقفي في السنة السادسة عشرة من الهجرة للتصدي لهجمات القراصنة الأحباش على سواحل تهامة في الحجاز.⁽³⁴⁾

حدث ذلك على الرغم من نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين من ركوب البحر خوفاً عليهم لأنهم لم يعتادوه. ولذلك أمر الخليفة عمرو بن العاص بحفر قناة بين النيل والبحر الأحمر، تمكنهم من نقل المؤن والطعام إلى الحجاز خاصة بعد أن أصاب أهل الحجاز مجاعة وقحط شديد في عام الرمادة الشهير.⁽³⁵⁾

فكل هذه الرحلات التي قام بها المسلمون عبر البحر الأحمر تمثل قاعدة أصيلة في انتشار الإسلام وتؤكد على علو كعبهم على غيرهم في مجال ركوب البحر والانتشار في العالم. وفي عهد الدولتين الأموية والعباسية وما يليهما نشطت أعمال القرصنة في البحر الأحمر ما بين العامين 630-640 م وقام القراصنة بشن غارات على ميناء جدة منطلقين من جزر دهل، وقطعوا الطريق البحري على الحجاج، كما شنوا غارات بحرية على جدة وهددوا بتدمير مكة المكرمة في العام 84هـ / 702 م، ولتأمين البحر الأحمر من ذلك الخطر جرد عبد الملك بن مروان حملة عسكرية إسلامية وأرسلها إلى الساحل الإفريقي احتلت جزر دهل الإترية ليصبح الأمويون أول من أنشأ إمارة إسلامية في إرتريا مما أسهم في استتباب الأمن ونشر الدعوة الإسلامية والازدهار الحضاري في تلك المنطقة وما جاورها. واستعملت فيما بعد كمنفى سياسي في عهد سليمان بن عبد الملك⁽³⁶⁾ وقد تمت الإشارة إلى هذا الأمر من

قبل توماس أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية حين ذكر أن من الكتب العربية التي تعرضت لانتشار الإسلام في شرق إفريقيا كتاب وجده البرتغاليون في مدينة كلوة حين اجتاحتها دون فرنسيسكو دليدا عام 1505م مبيناً أن هذا الكتاب أشار إلى هجرة عدد من أتباع زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين خشية ملاحقة الأمويين لهم في شرق إفريقيا كما هاجرت جماعات عربية أخرى إلى هذه المنطقة فساهمت في نشر الإسلام في إرتريا والصومال والحبشة والسودان⁽³⁷⁾ ولعل أهم الشواهد على إثارة الدعوات والهجرات والرحلات التجارية إلى شرق إفريقيا قيام دول الطراز الإسلامي التي تشكل طرازاً إسلامياً على ساحل البحر الأحمر⁽³⁸⁾. ومن الرحلات التوثيقية المهمة التي شهدتها هذا البحر الأحمر رحلات بن بطوطة، حينما مر على ساحل إفريقيا الشمالي ثم توجه إلى عيذاب على البحر الأحمر إلا أنه لم يتمكن من عبور البحر الأحمر بسبب الحرب بين الماليك والبجة، وعاد إلى الفسطاط ثم توجه إلى بلاد الشام ومنها إلى مكة، والرحلة الأولى استمرت أربعة وعشرين عاماً، ونجده قام بثلاث رحلات في الفترة ما بين 726-750هـ، 1325 - 1349م، وعبر هذا البحر مرة أخرى بعد مغادرته مكة إلى جدة ثم إلى الساحل الإفريقي. ثم عاد فيه إلى جنوبي الجزيرة العربية حتى الخليج العربي فزار عمان والبحرين والإحساء ثم زار مكة وحج حجه الثالثة⁽³⁹⁾.

الرحلات الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي: (حركة الكشف الجغرافية):

شهد القرن الخامس عشر رحلات بحرية واسعة قام بها بداية الأسبان والبرتغال، أسموها بحركة الكشف الجغرافية، من أهم نتائجها أزيح الستار عن سواحل القارات فعرفت أراض جديدة، واكتشف الأوروبيون طرقاً ملاحية لم تكن معروفة لديهم فوصل الأسبان إلى جزر الهند الغربية وإلى العالم الجديد⁽⁴⁰⁾ ومن الأفكار التي كانت شائعة عن إفريقيا أنها قارة مجهولة ومظلمة والواقع أنها ظلت إلى عهد قريب مجهولة بالنسبة للأوروبيين فقط ولكنها لم تكن مجهولة بالنسبة لأبنائها الذين عاشوا فيها منذ عصور قديمة، وتدل الحفريات القديمة على أن الشعوب الإفريقية كانت تعرف بعضها بعضاً وتتبادل ثمار الحضارة فيما بينها منذ آلاف السنين⁽⁴¹⁾. ولأن إفريقيا كانت وجهتهم فقد خاضوا البحر عن طريق المحيط الأطلسي جنوباً حول القارة بحثاً عن طريق الهند، فأخذوا يتحسسون الطريق الغربي يحدوهم الأمل نحو الشرق البعيد في آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح وكانوا لا يحطون رحالهم إلا للتزود ثم، يقلعون من جديد⁽⁴²⁾ وارتبطت القارات ببعضها البعض فوصلت

إلى إفريقيا سفن من الصين وأندونيسيا والهند للتبادل التجاري، وانتشر تدفق العرب على الساحل الشرقي حتى أصبح لهم السيطرة على طول ذلك الساحل من موزمبيق حتى نهايتها شمالاً بما في ذلك البحر الأحمر ثم أصبحت لهم السيطرة المطلقة على المناطق الداخلية من الساحل الإفريقي الشرقي إلى حوض نهر الكونغو الأعلى وقد أقام العرب محطات تجارية وفتحوا طرقاً للتجارة والقوافل وبقي الحال على هذا المنوال لعدة قرون ثم دخل الصراع في مرحلة جديدة بدخول البرتغال مع الأسبان والهندوس في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي فقد جاءوا إلى هذه المياه محاولين كشف طريق بحري للتجارة مع الهند والشرق الأقصى بعد أن تعطلت التجارة مع العثمانيين في القسطنطينية وسيطرتهم على موانئ ذلك الشاطئ.⁽⁴³⁾ وهنا نشير إلى أن البحر الأحمر موضوع الدراسة يربط بين قارتين هما إفريقيا وآسيا وكلتاها وقعتا في أيدي الغزاة الأوروبيين واستغلال خيرات الدول، وقد كتبت الكثير من المصادر عن هذه الموضوعات المتداخلة من كشوف جغرافية واحتلال للدول، ومن المؤكد أن الكثير من الرحلات اتخذت من البحر الأحمر معبراً أو مدخلاً للقارتين. وقد بدأت هذه الحركة الكشفية منذ القرن الخامس عشر وتواصلت فيما بعد ولعل البداية الفعلية كانت طواف البرتغاليين ورائدهم هنري الملاح حول القارة الإفريقية وإقامتهم قواعد حربية ونقط ارتكاز في أجزاء متفرقة من السواحل الغربية والشرقية وتوالى الرحلات من دول أوروبا العديدة وظهرت في هذا المجال أسماء كثيرة معروفة منهم؛ غوردون وستاني وسبيك ولوجارد ومارشان وسيسل روديس وبراذا، وقد كان كل منهم يخطط الحدود ويعيد ويزور معاهدات الحماية مع زعماء القبائل البسطاء أو الحكام الذين غلبوا على أمرهم أمام بنادق البارود.⁽⁴⁴⁾

الرحلات الأوروبية في القرن الخامس عشر:-

افتتح البرتغاليون الرحلات البحرية عبر البحار إلى قارات العالم في العام 1415م وكانت في ذلك الوقت تحت حكم الملك يوحنا الأول، وهنا سنتناول رحلاتهم عبر البحر الأحمر وفكرتهم الأساسية هي أن يحيطوا بالقارة الإفريقية ويصلوا إلى الهند.⁽⁴⁵⁾

ففي العام 1487م وصل إلى مصر الرحالة البرتغاليون بيروري كوفيلهام وكان يعمل لحساب الملك البرتغالي يوحنا الثاني قائداً عسكرياً أرسله على رأس حملة عبرت البحر الأحمر وباب المنذب وعبر إلى القرن الإفريقي وزار الإمارات العربية في الساحل الشرقي ومهد بذلك الطريق للرحالة من بعده ووفر لهم المعلومات الأساسية واستفاد منها فاسكو دي جاما في الدوران حول رأس الرجاء

الصالح.⁽⁴⁶⁾ وفي العام 1502م كلف دي جاما أحد قادته بالإقامة الدائمة على رأس قوة بحرية مؤلفة من خمس سفن حربية في مدخل البحر الأحمر لأنه يريد التحكم بالتجارة مع الهند واحتكارها، وفي عام 1503م هاجم الأسطول البرتغالي بقيادة دي جاما سبع سفن عربية واستولى عليها بعد قتل ركابها وأسر بعضهم الآخر، وفي 1507م احتل البرتغاليون جزيرة سوقطرة وأقاموا فيها حصناً منيعاً.⁽⁴⁷⁾ ومن أهم الرحلات في تاريخ الكشف الجغرافية البرتغالية طواف الأمير هنري الملاح في رحلة طاف بها رأس باجادور عام 1434م وفي عام 1445م أثمر تجوالهم عن اكتشاف الرأس الأخضر وتواصل البحر بمحاذاة الساحل الإفريقي جنوباً ففي عام 1471م وصلت رحلة برتغالية إلى أقصى الطرف الجنوبي وسماها ملك البرتغال رأس الرجاء الصالح استبشاراً بمستقبل هذا الطريق المكتشف، حتى جاءت رحلة فاسكو دي جاما متجهة إلى الهند الغربية وفي عام 1498م تحول طريق التجارة عبر المحيطات وأهمل طريق البحر الأحمر.⁽⁴⁸⁾ ولكن البرتغاليون فشلوا في احتلال عدن مما أضعف سيطرتهم فتمكن الماليك من اتخاذ جدة مقراً لهم عام 1515م وعقدوا مجاهدة مع حاكم عدن عام 1530 اعترف لهم بالسيادة عليها مقابل اعترافهم لسكان عدن بالملاحة في المنطقة وفي العقد الخامس من القرن السادس عشر بدأ نفوذ البرتغاليين في البحر الإرتري عام 1542 وبعد احتلال أسبانيا لها عام 1580-1640م. تقلص نفوذها لضعف مركزها وخرجت من البحر الأحمر بعد معركة 1642 مع البريطانيين والإرتريين.⁽⁴⁹⁾ وهكذا تمهد طريق الرحلات البرتغالية عبر البحر الأحمر ومروراً به إلى أراضي القارتين الإفريقية والآسيوية، وكانت تجارة الحبشة في أيدي أبناء قينيسيا لفترة من الزمن، وكانت لديهم معلومات جيدة عن هذه البلاد من الأهالي تحصلوا عليهم من بعض الرحالة أمثال كوفلهام من رحلته سابقة الذكر وفي ذات الوقت رأى البرتغاليون ضرورة بسط نفوذهم السياسي والحزبي علي الحبشة لتأمين طريقهم التجاري للهند، الأمر الذي أدى إلى زيادة المعلومات الجغرافية عن هذه البلاد.⁽⁵⁰⁾

وأيضاً من أهم ما يذكر في هذا الصدد البعثات التبشيرية البرتغالية وأثرها الكبير في الكشف الجغرافي في هذه المناطق ففي عام 1602م ذهب بيردو إلى الحبشة وزار منابع النيل الأزرق وتوصل إلى السبب الحقيقي لفيضان النيل، وفي عام 1604م ذهب بعثة تبشيرية أخرى إلى مصوع برئاسة انطونيو فيرنانديز.⁽⁵¹⁾ وأيضاً قام لوبير برحلة كان الغرض منها اكتشاف طريق جديد يصل الحبشة بالندي، وفي هذه المرحلة تتبع الساحل الشرقي الإفريقي في المنطقة المحصورة بين جزيرة باني ونهر جوبا وبعدها أدرك أنه لن ينجح في اكتشاف الطريق المزعوم إيجاده فقرر الذهاب إلى الهند ومن هناك عاد إلى البحر الأحمر

وذهب إلى فريمونا حيث اتخذها مراكزاً لرحلاته المختلفة في بلاد الحبشة.⁽⁵²⁾ ومن الدول الأوروبية التي تقدمت في مجال الكشف الجغرافية بريطانيا التي منحت ملكتها اليزابيث امتيازاً لشركة الهند الشرقية عام 1600م. لإقامة المشاريع التجارية وتوقيع الاتفاقيات، وشن الحروب باسمها وبعد ثلاث حملات فاشلة استطاع القائد البريطاني وليام كيلينج إقامة مركزاً للنشاط التجاري في مدينة أدهر اليمنية عام 1612م، وفي عام 1618م أنشأت بريطانيا وكالة للإشراف على مصالحها التجارية في منطقة البحر الأحمر وكان مقرها في اليمن، وفي عام 1777م أرسلت شركة الهند الشرقية السفينة روبية للقيام بمهمة استكشاف شواطئ البحر الأحمر.⁽⁵³⁾

بعد ذلك شعر العثمانيون أن النشاط البريطاني يهدد مصالحهم في البحر الأحمر، لكن هذا النشاط تزايد بعد حملة نابليون على مصر عام 1797م، فاحتلت بريطانيا جزيرة بريم عام 1799م للسيطرة على الملاحة في منطقة باب المندب وحماية مصالحها الاستراتيجية في الهند، ثم انسحبت منها، وفي عام 1883م احتلت جزيرة سوقطرة لأنها تقع على الطريق البحري إلى الهند، وعندما بدأ الحفر في قناة السويس عام 1856م عادت بريطانيا واحتلت بريم وفي عام 1876م عقدت بريطانيا معاهدات مع سلطان سوقطرة تعهد بموجبها بعدم البيع أو التنازل لأي دولة أخرى غير بريطانيا وبعد احتلال مصر عام 1882م بدأت بريطانيا تخطط للاستيلاء على الساحل الغربي للبحر الأحمر من خلال احتلال السويس وإثيوبيا بالإضافة إلى نشاطها في مناطق اليمن.⁽⁵⁴⁾ ومن الناحية الأخرى قلقت بريطانيا على مصالحها في الخليج العربي الذي كانت تعتبره يخضع لسيادتها المطلقة والسيطرة عليه وترفض أن يكون لها أي شريك فيه، وبعد ما فشلت محاولات الاتفاق بين محمد علي وبريطانيا قصفت السفن البريطانية مدينة المخا اليمنية عام 1826م وفي العام 1921م فرضوا معاهدات أعطت الرعاية البريطانية امتيازات واسعة في الخليج، وفي عام 1834م احتلوا جزيرة سوقطرة ومن ثم احتلوا عدن عام 1839م.⁽⁵⁵⁾ ومن ضمن من ولجوا في البحار تماشياً مع حركة الكشف الجغرافية التي اجتاحت أوروبا في تلك الفترة هولندا، وكانت بداية نشاطها بتأسيس شركة الهند الشرقية الاستعمارية في العام 1594م وفي العام 1614م وصل الأسطول الهولندي إلى البحر الأحمر قادماً من الهند لجمع المعلومات وقد فشل الهولنديون في إقامة مراكز عسكرية ثابتة قوية مع سواحل البحر الأحمر واستمرت هذه العلاقات وحتى عام 1763م في الخليج العربي، بدأت السادة تنقل من البرتغاليين إلى الهولنديين وذلك عندما سيطروا على عدد من موانئ إيران والخليج العربي، وقد تعاون الأسطول الهولندي والبريطاني لتدمير الأسطول البرتغالي، وامتد

النفوذ الهولندي عام 1672 في عهد الملك لويس الرابع عشر تراجع النفوذ الهولندي في الخليج وكان البريطانيون هم المستفيدون من ذلك ، وقد حصلوا على جزيرة مينورفا وعلى مضيق جبل طارق المتوسط.⁽⁵⁶⁾

أما إيطاليا، فلم تترك الفرصة لتقلت من بين يديها لتجد لها موطئ قدم في سواحل البحر الأحمر، كما فعلت رفيقاتها المستعمرات الأوروبية وقد أشارت بعض المصادر إلى أن نواة النفوذ الإيطالي في شرق إفريقيا ترجع إلى النشاط التبشيري في هذه الجهات ومن أشهر المبشرين في هذا المجال القس سابيتو وكان قد وفد إلى الحبشة في العام 1838م، وزار إقليم بوجوص وعاش بين القبائل هناك سنوات عدة، ومهد الطريق للقادمين من بعده وشرح أهمية البحر الأحمر في الملاحة خاصة بعد افتتاح قناة السويس للملاحة.⁽⁵⁷⁾

هذا وقد نما الأمر ورُعي من مدير شركة روباييتو الإيطالية للملاحة الذي كان يبحث مسألة إنشاء خط ملاحى للشركة بين البندقية وموانئ الهند الصينية عن طريق قناة السويس والبحر الأحمر، حينما كلف القس سابيتو بالتوجه إلى البحر الأحمر والبحث عن بقعة صالحة لتأسيس محطة تجارية للشركة الإيطالية لخدمة الخط الملاحى المفتوح وأن يقوم بشراء البقعة التي يقع اختياره عليها إذا تمكن من ذلك.⁽⁵⁸⁾

فبدأ النشاط الإيطالي في منطقة باب المندب في العام 1861م بناء على معلومات بعض المنتسبين للحكومة الإيطالية ونصحوا باحتلال بعض من الشواطئ الإفريقية للبحر الأحمر لمنافسة الفرنسيين والبريطانيين، وفي العام 1870 أقامت إيطاليا أول مستعمرة لها في ميناء عصب إلى الغرب من باب المندب، وفي العام 1885 احتلت القوات الإيطالية رهيفة إلى الجنوب من ميناء عصب بالقرب من باب المندب وفي العام 1885 احتلت ميناء مصوع وفي العام 1890 سيطرت على الساحل الإرتري وفي العام 1936 احتلت الحبشة، ووضعت إيطاليا وبريطانيا اتفاقية لتقاسم النفوذ في منطقة الحبشة عام 1938م⁽⁵⁹⁾ وأما فرنسا فلم تغب عن البحر الأحمر وسواحله بيد أنها تأخرت عن الحضور منافسة مع الدول الأوروبية الأخرى، فلم تجد لها مكاناً واسعاً كما تمنّت فاكتفت بالوقوف على منطقة باب المندب حينما قدمت أول البعثات الاستكشافية في الأعوام 1835-1837م وفكرت فرنسا في شراء جزيرة سوقطرة لكن الامبراطور نابليون الثالث قرر عام 1859م أن ينحصر نشاط فرنسا في الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر ولذلك حصلت فرنسا على امتياز لاستغلال جزء وافر من الساحل الإرتري على البحر الأحمر وفي العام 1882 استولت فرنسا على ميناء جيبوتي.⁽⁶⁰⁾

الخاتمة:

الحمد لله له الفضل والمنة أن وفقني لكتابة هذا البحث وهو محاولة للدراسة في موضوع البحر الأحمر وحركة الكشوف الجغرافية للمشاركة في موضوعات هذه الموسوعة الشاملة. والبحر الأحمر تتعدد أوجه دراسته لتشمل كافة العلوم وهنا بحثنا في تاريخه الطويل، بدأ بنشأته الأولى والتي ترجع لآلاف السنين وتكوينه الأخدودي الذي شكل هيئته الطولية حيث يضيق في جوانب ويتسع في أخرى ويبرز فيه لسانان يشكلان فيما بينهما شبه جزيرة سيناء وتطل سواحل على قارتي آسيا وإفريقيا في تسع دول، كل ذلك شكل أهمية هذا البحر الأحمر وجعله ظاهرة طبيعية تأثرت بها سياسات دول وعلاقات فيما بينها وبين العالم، منذ القرن الخامس عشر وحتى التاريخ المعاصر.

هذا وقد ذكر البحر الأحمر في كثير من الكتابات القديمة في كتب الرحالة والمغامرين والمستكشفين والمبشرين وكل اسماء بحسب رؤيته فتعددت أسماءه فمنهم من نسبته إلى المدن التي تطل عليه ومنهم من أسماه بالأعشاب التي تتكاثر في باطنه، حتى خلص به الأمر إلى البحر الأحمر نسبة إلى الشعب المرجانية التي أكسبته اللون المائل إلى الإحمرار. وعبر هذا البحر عبرت رحلات عديدة لأغراض كثيرة بعضها للمخاطرة وأخرى للتجارة وبعضها للسيطرة وأخرى للمعرفة وما حولها. ومن أقدم الرحلات محاولة الإسكندر المقدوني لاكتشاف المناطق ورسم خريطة لتحديد الطرق آنذاك وعلى الرغم من خطأ رجاله في وجهاتهم لكنهم عبروا عبر مياه البحر الأحمر، كذلك عبر الفراعنة في واحدة من أقدم الرحلات بأمر من الفرعون نيكخاو المصري الذي أمر بشق قناة بين النيل والبحيرات المرة للوصول إلى البحر الأحمر للدوران حول إفريقيا، كما تواصلت رحلات الفراعنة عبره إلى بلاد بونت. وهكذا كان البحر الأحمر وجهة ومعبر للرحلات القديمة فركبه العرب قبل غيرهم من شعوب الأرض وصار جسراً للتواصل وطريقاً أولاً للتجارة فعرفوه وخبروا شأنه وكتبوا حوله الأخبار لا سيما رياحه وهدوءه وطرقه ملاحظته. ومن أهم الهجرات عبره على الإطلاق هجرة أصحاب المصطفى ﷺ إلى الحبشة عن طريق ميناء الشعبية في جدة.

ثم توالى الرحلات عبر هذا البحر فكانت حركة الأوربيين الكشفية التي انطلقت في القرن الخامس عشر الميلادي وكانت أشبه بالظاهرة العامة شاركت فيها معظم الدول الاستعمارية إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا تتقدمها البرتغال، وتنافست كل منها لتجد لها موطئ قدم على سواحل البحر الأحمر بعد أن عرفوا أهميته في السيطرة على المعابر والمضائق والموانئ. وهكذا كانت أهمية البحر الأحمر ولا زال، معبراً ومنفذاً للدول وحلبة تنافس ومحاولات

للسيطرة وإنشاء علاقات وتواصل دبلوماسي، وتختلف باختلاف الأزمان، بدأت بالاحتلال وتطورت إلى السياسة والمصالح.

وفي كل الأحوال ظل البحر الأحمر صامتاً تحمل أمواجه السفن الشراعية والأساطيل والبارات وغيرها من أنواع العبارات ويدون التاريخ ويسيطر المؤرخون أخباره وأحداثه وجغرافيته ورياحه وهدوءه، ولعل هذا البحث هو محاولة للإدلاء في بحر المعرفة في عجالة أسأل الله أن تفيد المكتبة وقاصديها. والله أسأله التوفيق والسداد.

النتائج والتوصيات:-

أولاً: النتائج:

1. لم تكن سواحل البحر الأحمر بجانبها الإفريقي والآسيوي مجهولة في العالم ليكتشفها الأوروبيون في القرن الخامس عشر، وإنما هي مقدمة لحركة احتلال واسع اجتاحت العالم.
2. سبق العرب غيرهم في تمهيد الطرق البحرية وركوبها ومعرفة ميقات الملاحة الأنسب.
3. رحلات العرب والمسلمين في البحر الأحمر وعبره كانت هي الأكثر عدداً، وترتيب عليها العديد من الاكتشافات والمعلومات الجغرافية الفلكية والجمورفولوجية بيد أنهم لم يكتبوها ويدونها ويحفظوها إلا من بعض كتابات الرحلات.
4. البرتغال وهولندا وإيطاليا وفرنسا جميعها حاولت إيجاد أراضٍ يحتلونها تطل على البحر الأحمر.
5. سهّل البحر الأحمر كثيراً للمحتلين وساعدهم في حماية مستعمراتهم.

ثانياً: التوصيات:

توصي الدراسة بالبحث حول الموضوعات الآتية:

1. العلاقة بين قارتي إفريقيا وآسيا عبر البحر الأحمر.
2. التنافس الأوروبي في سواحل البحر الأحمر.
3. جغرافية البحر الأحمر ودورها في اقتصاد العالم في القرن التاسع عشر الميلادي.
4. تحليل الرحلات وكتابات الرحالة عبر البحر الأحمر.

المصادر والمراجع:-

- (1) أبو العينين، حسن سيد أحمد: جغرافية البحار والمحيطات، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، بدون تاريخ، ص35.
- (2) مهدي، محمد علي: جغرافيا البحار والمحيطات، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، 1982م، ص261-264.
- (3) الجوهري، يسري: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، الاسكندرية، د.ت، ص113.
- (4) الحميد، عبد اللطيف بن محمد: البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الاولى، ط1، الرياض، 1994م، ص11.
- (5) محمود، توفيق محمود: البحر الأحمر في التاريخ، ندوة في جامعة عين شمس نشر في منشورات البحر الأحمر في الاستراتيجية الدولية.
- (6) مدني، محمد عمر: البحر الأحمر واتفاقية الامم المتحدة لقانون البحار، ندوة البحر الأحمر، ص165.
- (7) عبدالله، أمين محمود: الجغرافيا التاريخية لحوض البحر الأحمر، المطبعة الحديثة اسيوط، 1971م، ص17 - 20.
- (8) محمود، توفيق محمود: البحر الأحمر والاستراتيجية الدولية . وصفي الدين، محمد: مورفولوجية الأراضي المصرية.
- (9) الحميد، عبد اللطيف بن محمد، مرجع سبق ذكره، ص13.
- (10) محمد، صالح محروس: ماهية الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر، مركز الفكر الاستراتيجي، أوراق سياسية 2017م.
- (11) الحميد، عبد اللطيف بن محمد: مرجع سبق ذكره، ص13
- (12) الحميد، عبد اللطيف بن محمد: مرجع سبق ذكره ص11
- (13) محمد، صالح محروس: مرجع سبق ذكره.
- (14) ابن حوقل: صورة الارض، ص-45 46.
- (15) جورج فاضلو: العرب والملاح في المحيط الهندي، ص25-26.
- (16) القيسي، عبد الحميد، وعبد الله الخفاف: البحر الأحمر الاهمية الاقتصاد والاستراتيجية، مركز دراسات الخليج، البصرة. 1986، ص40.
- (17) الشمري، محمد حمزة: مواني شبه الجزيرة العربية واثرها في النشاط التجاري قبل الاسلام، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، 2004م، ص121.
- (18) السلطان، عبد الله عبد المحسن: البحر الأحمر والصراع العربي الاسرائيلي التنافس بين استراتيجيتين، ط3، بيروت، 1988م، ص26.
- (19) المرجع السري: مرجع سبق ذكره، ص33.
- (20) رينية كلوزية: تطور الفكر الجغرافي، تعريب عبد الرحمن حميدة، دمشق، 1980، ص21 - 22.

- (21) أبو العيين، حسن سيد أحمد: مرجع سبق ذكره، ص46.
- (22) ضرار، صالح ضرار: هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل مصر والسودان، ط3، مكتبة التوبة ، المملكة العربية السعودية، 2008م، ص72.
- (23) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (24) محمددين، محمد محمود: التراث الجغرافي الاسلامي، مطبعة شريف وشركاه، الاسكندرية، 1401هـ، ص247.
- (25) المرجع السابق ، نفس الصفحة.
- (26) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص11-14.
- (27) جورج فاضلو: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص 25 - 26.
- (28-22) فهمي، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب واواخر العصور الوسطي، ص124.
- (29) اباطة ، فاروق: ص8
- (30-23) محمد أحمد، حسن مكي: اثيوبيا والتغير السياسي، مجلة دراسات أفريقيا، العدد 9، يوليو 1993، ص1.
- (31) الدومة، صلاح الدين بن عبد الرحمن: أمن القرن الأفريقي، ط1، الخرطوم، 2006م، ص23 - 24.
- (32) محمد احمد، حسن مكي: مرجع سبق ذكره،
- (33) المرجع السابق نفس الصفحة.
- (34) الامم والملوك، ح2، ص132.
- (35) ضرار، صالح ضرار: مرجع سبق ذكره، ص68 - 69.
- (36) نفس المصدر، نفس الصفحة.
- (37) الامم والملوك، ح2، ص132.
- (38) ابن الاثير، الكامل، ح2، ص144-145.
- (39) المرجع.السابق
- (40) الصادق، عابدين عبد الصبور: أرتريا والسودان تطور العلاقات الاستراتيجية، مركز الدراسات الاستراتيجية، الخرطوم، 2012م، ص34 - 35.
- (41) تاريخ الاسطول العربي، ص11 - 13
- (42) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح2، ص266-267.
- (43) الصادق، عابدين عبد الصبور: مرجع سبق ذكره ص39.
- (44) المرجع.السابق
- (45) غنيم، عبد القادر عبد الشافي: البحر الأحمر طريقا للدعوة الاسلامية، بحث ضمن مؤتمر البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس ، القاهرة، 1980م، ص79 - 92.
- (46) محمددين، محمد محمود: مرجع سبق ذكره، التراث الجغرافي الاسلامي، ص141 - 142.

- (47) الجوهرى، يسري : مرجع سبق ذكره، ص127.
- (48) اسحاق، محمد عبد العزيز: نهضة افريقيا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص47-48.
- (49) اقلاديوس، شوقي :ثورات في افريقيا، مكتبة الانجلو المصرية، 1960، ص12-13.
- (50) المرجع السابق، ص13
- (51) اسحق، محمد عبد العزيز: مرجع سبق ذكره، ص78.
- (52) ابراهيم، عبد الله عبد الرازق، والجمل، شوقي عطا الله: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص82.
- (53) عطا الله، عبد الخير: صفحات من النضال العربي ضد الاستعمار البرتغالي الخليج، مجلة الموقف العربي، عدد رقم(19)، ص121.
- (54) ابراهيم ، عبد الله عبد الرازق، الجمل، شوقي عطا الله، مرجع سبق ذكره ص82.
- (55) عطا الله، عبد الخير، مرجع سبق ذكره، ص121.
- (56) الحارثي، الشريف محمد بن حسين: الملاحه في البحر الأحمر، دراسة تاريخية .
- (57) شبيب، قصي كامل صالح: اهمية مضيق باب المندب في التاريخ العربي الحديث والمعاصر مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء 1994، ص34-41.
- (58) الجوهرى ،يسري، مرجع سبق ذكره،144-145.
- (59) المرجع السابق ،نفس الصفحة.
- (60) المرجع السابق، نفس الصفحة
- (61) لوتسكي؛ تاريخ الاقطار العربية الحديثة، موسكو ، دار التقدم، ص 180-182.
- (62) المرجع السابق، نفس الصفحات.
- (63) المرجع السابق نفس الصفحات.
- (64) شبيب، قصي كامل صالح: مرجع سبق ذكره، ص 54 -55.
- (65) ابراهيم، عبد الله عبد الرازق، والجمل، شوقي عطا الله: مرجع سبق ذكره، ص131-133.
- (66) ابراهيم، عبد الله عبد الرزاق، والجمل شوقي عطا الله، مرجع سبق ذكره، ص198.
- (67) الجمل، شوقي عطا الله: سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، القاهرة، 1974، ص201.
- (68) شبيب، قصي كامل صالح: مرجع سبق ذكره، ص 105 - 112.
- (69) المرجع السابق، ص 84 - 85.

موانئ وقرى البحر الأحمر في كتب الرحالة (دراسة في النشاط الاقتصادي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) (رحلة العياشي أنموذجاً)

أستاذة التاريخ الإسلامي- جامعة الأميرة
نورة- المملكة العربية السعودية

أ.د. منى بنت حسين بن علي آل سهلان القحطاني

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى رصد وتتبع مظاهر النشاط الاقتصادي في موانئ وقرى البحر الأحمر خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وذلك بالاعتماد على الرحلة العياشية الموسومة: بـ «ماء الموائد» (1072-1074هـ/ 1661-1663م) للرحالة الأديب أبي سالم عبدالله محمد العياشي، وتكمن أهمية رحلته وقيمتها العلمية في المشاهدات والموضوعات المتنوعة التي حفظتها رحلته، حيث دَوّن فيها وصفاً لطرق الحج ومنازله، ووصف الموانئ والقرى والمناطق الساحلية التي مر بها، وأوجه النشاط البشري، والازدهار الاقتصادي فيها، والأسواق، والمباني، والبضائع، والأسعار، وموازين البيع والشراء، كما ذكر مخاطر الطريق وامتداده والمسافات بين المناطق، وذكر الأشجار والنباتات والمناطق الزراعية، كما توقف كثيراً عند مصادر المياه والآبار، إضافة إلى رصد الظواهر الاجتماعية والسكانية، والحركة العلمية، والمشاهد العمرانية، فأصبحت هذه الرحلة نموذجاً اقتدى بالعياشي من جاء بعده.

Abstract:

The study aims to investigate and track the aspects of economic activity in the ports and villages of the Red Sea during the 11th Hijri corresponding to the 17th Gregorian depending on Arrihla Al Ayachiia known as Ma' al-Mawa'id (Table Water) (1072/1074-H/1661/1663-G) by Abu Salim 'Abd Allah ibn Mohammed al-'Ayyashi the well-known travel writer, author, and scholar. The significance and scientific value of Arrihla Al Ayachiia are demonstrated in the different scenes and subjects included and narrated. Whereas he described the roads and roadhouses of the pilgrimage (Hajj), ports, villages and the coastal areas he has been through, and the aspects of human activity and econom-

ic prosperity including markets, buildings, goods, prices, selling and buying scales, as well as describing the road dangers, extensions and distances between regions. He also described the trees, plants, and agricultural areas, as well as expanded on the details of water sources and wells, in addition to investigating the social and population phenomena, scientific activity and urban scenes. Arrihla Al Ayachiia is considered to be a model looked up to by whoever came after.

المقدمة:

تعد كتب الرحلات مصدراً مهماً من مصادر التاريخ، فهي سجل حافل وغني بالمعلومات الحضارية عن حياة الشعوب في مختلف الأزمنة، وفي شتى البقاع التي زارها الرحالة، وتكمن أهميتها في مدى التفاعل بين صاحب الرحلة، وبين ما شاهده، ووقف عليه، ورصده عن أحوال الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم، وكذلك والأحوال والمعتقدات الدينية، والأحداث السياسية، خلال مروره على المدن والمناطق، وهي رؤية ومشاهدات بعين الرحالة تختلف عن مشاهدات المقيمين بها؛ لذلك نجد أن الرحالة ينقلون الصورة والحدث بأسلوب أكثر مصداقية وقرباً من الواقع إلى حد كبير، لهذا فإن القيمة العلمية التاريخية لكتب الرحلات تكمن في أنها مصادر كتبت بأقلام أصحابها، وهم شهود عيان، ومعاصرون للحدث، إضافة إلى أنها غنية بمعلومات حضارية وسياسية قد لا توجد في مصادر التاريخ الأخرى. وقد شكلت الرحلة أهمية كبيرة لدى مسلمي الغرب الإسلامي منذ بداية الدعوة الإسلامية، حيث حفظت لنا المكتبة التاريخية عدداً كبيراً من الرحلات المغربية سواء رحلات لغرض الحج والعمرة، أو رحلات علمية وغيرها من الأسباب الدافعة للرحلة. وكان الرحالة المغاربة ينتهزون فرصة سفرهم لبلاد الحجاز للقيام بتأليف كتبهم واصفين الصعاب التي واجهتهم، والطرق التي سلكوها، والأراضي التي مروا بها، حتى وصولهم للأراضي المقدسة؛ لذلك تعد مصادر مهمة عن تاريخ الحجاز، وجسراً للتواصل بين المغرب الإسلامي، والحجاز والمشرق الإسلامي⁽¹⁾.

ومن أشهر هذه الرحلات رحلة أبي سالم العياشي، التي انطلقت سنة (1072هـ/1661م)، من مدينة سجلماسة ببلاد المغرب، لتصل إلى القاهرة مروراً بكل من الجزائر، وتونس، وطرابلس، والقاهرة متوجهاً نحو هدفه الأسمى مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ثم انتقل بعد ذلك إلى أهم المدن الشامية، غزة، والرملة، وبيت المقدس، والخليل، وقد سجل العياشي مشاهداته في كل المدن والبلدان التي زارها. وتعتبر رحلة العياشي المسماة «ماء الموائد»

نموذجاً للرحلة الحجازية التي ألفها علماء المغرب الإسلامي، وجاءت شاملة للكثير من الموضوعات المتنوعة مما أعطاه أهمية وميزة علمية من بين كتب الرحلات؛ فهي رحلة موسوعية شاملة، كما وصفها العياشي بأنها: ديوان علم وأدب، وتاريخ وأخبار وآثار، ترجم للعديد من الأعلام، وكشف عن عدد من المواقف والرجال، والطرق والزوايا، والكتب والأشعار، وسجل الوقائع والأحداث والمعارك، وصوّر الحياة اليومية والأسواق، والبيع والشراء، والتعاملات وغيرها، فجاءت رحلة شاملة موضوعية عن خصائص القرن الحادي عشر الهجري الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية⁽²⁾. ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة للمشاركة بها بإذن الله ضمن أبحاث موسوعة البحر الأحمر، والتي ستكون بعنوان: موانئ وقرى البحر الأحمر في كتب الرحالة (دراسة في النشاط الاقتصادي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي) «رحلة العياشي أنموذجاً».

وتتناول الدراسة الموضوع من خلال عدد من النقاط:

- المقدمة.
- التمهيد: التعريف بأبي سالم العياشي.
- المطلب الأول: طرق الحج والتجارة في رحلة العياشي ووصف مخاطرها.
- المطلب الثاني: موانئ وقرى البحر الأحمر كما وردت في رحلة العياشي.
- المطلب الثالث: التجارة والأسواق في موانئ وقرى البحر الأحمر.
- المطلب الرابع: مصادر المياه ومناطق الزراعة في موانئ وقرى البحر الأحمر.

أبي سالم العياشي نسبه ونشأته:

هو أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي، ينتسب إلى قبيلة عياش إحدى القبائل البربرية التي تسكن حدود الصحراء في الجنوب الشرقي للمغرب⁽³⁾.

وُلد سنة 1037هـ/1628م في قرية تازروفت الواقعة في الأطلس الكبير⁽⁴⁾، ويلقب بـ «عفيف الدين»، وصفه الأفراني بقوله: «هو أحد من أحيا الله بهم طريق الرواية بعد أن كانت شمسها على أطراف النخيل، وجدد من فنون الأثر كل رسم محيل»⁽⁵⁾، نشأ في بيئة صالحة صقلت موهبته، ورعت مداركه، وقوة شخصيته⁽⁶⁾.

تلقى أبو سالم العياشي تعليمه الأول منذ نعومة أظفاره بزاوية العائلة فدرس مبادئ اللغة العربية، والعلوم الدينية، كذلك اهتم بمطالعة علوم الفقه، والفرائض، والأصول، جالس علماء الصوفية وأخذ منهم، ثم سافر إلى فاس والتحق بجامع القرويين حيث تعلم العلوم الشرعية كالحديث، والفقه⁽⁷⁾.

لم يكتفِ أبو سالم العياشي بما أخذه عن علماء المغرب فتاقت نفسه إلى الشرق للالتقاء بعلمائها، والأخذ عنهم والتلمذ على يديهم، وقد شرح ذلك بقوله: «وكنيت في أول معاناتي للطلب، وتشبث بأذيال الأدب، كلفاً بالرواية، ومستروحاً إليها من أثقال الدراية، فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلاً، فلم يشفِ ما لديهم مما أجد غليلاً، ولا أبرأ غليلاً، لأنهم استغنوا عما غاب بما ظهر، فاقتصروا من الكتب على ما اشتهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار وعوالي الإسناد وغرائب الأخبار»⁽⁸⁾، لذا شد رحاله إلى المشرق في ثلاث رحلات، التقى خلالها بعلماء مصر، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وفلسطين، وطرابلس، والإسكندرية⁽⁹⁾. توفي يوم الجمعة 18 من شهر ذي القعدة سنة 1090هـ/1679م متأثراً بمرض الطاعون وعمره 53 سنة⁽¹⁰⁾.

رحلاته:

كانت أولى رحلاته إلى المشرق سنة 1059هـ/1649م قام بها وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره، أما رحلته الثانية قام بها في سنة 1064هـ/1653م، والرحلة الثالثة عزم عليها سنة 1069هـ/1658م، إلا أنه لم يتمكن من الخروج وقتها لظروف أمنية بسبب فتنة حدثت في المغرب، ولما استقرت الأمور سنة 1072هـ/1661م عزم على التوجه للحج فخرج مع الركب المغربي يوم الخميس ربيع الأول سنة 1072هـ/1661م، واستمرت رحلته حوالي سنة ونصف، حيث عاد إلى بلاد المغرب يوم الأربعاء 17 شوال سنة 1074هـ/1663م⁽¹¹⁾. وتعتبر هذه الرحلة الأخيرة من أهم الرحلات بالنسبة للعياشي، حيث انطلق من مدينته سجلماصة متنقلاً بين مدن المغرب وصولاً للقاهرة، ثم سار بطريق ساحل البحر الأحمر فوصل للعقبة السوداء، وينبع وجبل الرمل، ورابع، وعقبة السكر، ومر الظهران، والتنعيم حتى وصل إلى مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، ثم انتقل إلى أهم المدن الشامية، وغزة، والرملة، والقدس، ودمياط، ومصر، والإسكندرية، وطرابلس حتى وصل إلى بلاد المغرب في شوال سنة 1074هـ/1663م⁽¹²⁾.

أهمية رحلته وقيمتها العلمية:

تعتبر رحلة العياشي والتي ألف فيها كتابه «ماء الموائد» من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشاراً وتنوعاً وغزارة بالمعلومات، حتى أصبحت مصدراً مهماً لمن جاء بعد العياشي في الاستفادة منها⁽¹³⁾، وقد حدد العياشي الهدف من تأليفه لرحلته ومنهجه فيها، حيث قال في ذلك: «وقصدي من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب ممر وفكاهة، وإن وجد الأمران معاً فذاك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما وإن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التكوين فكل شيء عنه موقع ونفع، لا يوجد في غيره والله المسؤول»⁽¹⁴⁾.

أما القيمة العلمية لرحلة العياشي المدونة فتكمن في مضمونها الغني بالنهوض، والأشعار، والتراجم والأخبار، مما أضفى عليها الطابع الموسوعي، كذلك أضفى الهدف الديني السامي على الرحلة والمتجهة إلى الأماكن المقدسة وهجاً دينياً وروحانياً، فقد سجلت هذه الرحلة الكثير من الأحداث والعلوم، والقصائد الشعرية، واللمحات التاريخية، وانفردت دون غيرها من كتب الرحلة بعدد من النصوص، والرسائل، والخطب، والإجازات، فقد حاول العياشي أن تكون رحلته شاملة لكل علوم عصره، ويعطي صورة حقيقية عن الظروف السياسية، والاقتصادية، والعلمية، وقد لخص فوائد رحلته بقوله: «وأعددت لفوائد الرحلة عدداً كثيراً، فاتسع المجال في لقاء الرجال، ومذاكرة الإخوان في كل أوان، ومحاضر الأدباء، ومجالسة الظرفاء، وحصلت في تلك الرحلة المباركة ما حصلت لي به مع المرتحلين المشاركة، فعزمت على تدوين ذلك في مجموع تحصل به الإفادة لمن طلب الاستفادة، فإذا زبدة فائدته، وثمرة عائدته أسماء المشايخ وذكر مروياتهم، وذكر شيء من مصنفاتهم، وقد استوفيت جل ذلك لمن طلبه مني، ورام أخذه عني في كتاب اقتفاء الأثر بعد زهاب الأثر، فانصرف العزم عن كتابة ما سواه؛ إذ هو بدونه قليل جدواه، وصممت العزم على الرجوع، وجعلته أكبر همي في اليقظة والهجوم...»⁽¹⁵⁾، فنجد أن العياشي ينتقل في كتابه بين العلوم والمعارف إلى الأفكار والمعتقدات الدينية مروراً بالمشاهد الاجتماعية، فتعمق في الحياة اليومية للناس نتيجة لمخالطتهم والدخول معهم إلى الأسواق، والمساجد، والوقوف على المكتبات، والاحتفالات الدينية، والاجتماعية، ولم يغب عن باله كذلك تدوين ما شاهده ولمسه في الجانب الاقتصادي من خلال وقوفه على المعاملات التجارية، والبيع والشراء، وعمليات السمسرة، كما أشار إلى العوامل الطبيعية والبيئية وتأثيرها على الناحية الاقتصادية، والمياه كالآبار والعيون والأمطار، كما كانت رحلته فهرسة للشيوخ والعلماء الذين لقيهم خلال رحلته. هذا وقد ترك العياشي تراثاً علمياً قيماً لا يزال بعضه مخطوطاً، فكتب في التوحيد، وعلم العقائد، والتصوف، وفي الحديث والسيرة والمديح النبوي، والفقه، والرحلات، والفهارس، ومنها:⁽¹⁶⁾

- ماء الموائد المعروف بالرحلة العياشية إلى الديار النورانية.
- التعريف والإنجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز.
- اقتفاء الأثر بعد زهاب أهل الأثر.
- إظهار المنة على المبشرين بالجنة.
- المدائح النبوية.

طرق الحج والتجارة في رحلة العياشي ووصف مخاطرها
أشارت كتب الرحلات إلى الطرق التي سلكتها قوافل الحجيج الزاهبة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهي الطرق البرية، والطرق البحرية، فالطرق البرية هي التي يمر فيها ركب الحجاج القادم من بلاد الشام، ومصر،

والمغرب وغيرها من البلاد الإفريقية، والطرق البحرية وهي التي تعبر فيها ركب الحجاج للوصول إلى الموانئ البحرية عبر ساحل البحر الأحمر، والتي توقف عندها الكثير من الرحالة ووصفوها وتحدثوا عنها في رحلاتهم، كما أن هذه الموانئ البحرية استخدمت كطرق تجارية بحرية للتجارة عبر السفن التي تحمل البضائع والمؤن والبشر⁽¹⁷⁾. وقد نالت طرق الحج البحرية والبرية اهتماماً من الرحالة أبي سالم العياشي، حيث توقف كثيراً عند وصف الطرق وأحوالها، وطبيعتها الجغرافية والمناخية، ووصف مخاطرها والصعوبات التي تواجه المسافرين والمارين والحجاج الذين يسلكون هذه الطرق.

استمر الركب المغربي في طريقه البحري حتى وصلوا إلى منطقة تسمى النابعة⁽¹⁸⁾، وأشار إليها العياشي بقوله: «فلما تجاوزنا المدينة وخلصناها وراء ظهورنا، والبحر عن يميننا، نزلنا بعد الظهر بالنابعة»، ونجد هنا دقة الوصف لاتجاه الركب. والنابعة وإد كبير ذي رمل فيه أحساء⁽¹⁹⁾ كثيرة تزيد على المائة، وهي أرض غنية بالمياه الجوفية الباردة العذبة، والتي وصفها العياشي بقوله: «بل أينما حفرت مقدار وقفه أو أقل وجدت ماءً حلواً بارداً في غاية الحلاوة كأنه ماء النيل»⁽²⁰⁾، وهذه الأرض محطة تقف عندها الرواحل والناس لتستقي منها إبلهم، ويأخذون منها حاجتهم.

غادر الركب النابعة وسلك طريقاً بين جبال وأودية من الرمل، وهو طريق ممهد لا صعوبات فيها ولا مشقة، وكان الجو فيه بارداً جميلاً، والمياه عذبة مما عكس تأثيرها على الناس، «والناس ماشون على مهل منبسطون في غاية البسط»⁽²¹⁾، وقد ذكر العياشي أن هذا الدرب مخالف لبقية الدرب في سائر أوصافه، حيث إن طريق الدرب به خوف وحر شديد والمياه مالحة⁽²²⁾.

أما طريق العقبة⁽²³⁾ فقد كانت مختلفة تماماً عن طريق النابعة، فهي عقبة بها صعوبات وأرض مقفرة موحشة طويلة وعريضة معطشة، لدرجة أنه قد تموت فيها أرواح من شدة العطش، وقد يلجأ الناس إلى عصر ما في بطون الإبل من الفرث ليشربونه⁽²⁴⁾، وفي موضع آخر من الرحلة عاد العياشي واسترسل في وصف العقبة حيث قال: «وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، ولم لا وهي عقبة أيلة المشهورة، إلا أن الطريق بها منحوتة قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة وبنيت صافاتها ببناء متقن»⁽²⁵⁾.

وكذلك قوله في وصف جبال العقبة، ثم سرنا إلى العقبة، «وما أدراك ما العقبة، فكم بها من حذرات ومضيق وجبال في شكل الحمرة والبياض، وهي عقلة في الطريق، وصعود وانهباط، وعلو وانحطاط»⁽²⁶⁾، بعد ذلك يأخذ طريق العقبة في الاتجاه ناحية الجنوب على هيئة مسالك ضيقة بين البحر والجبال، وتكاد تتسع لمروء جمل وراء جمل، وقد شبه العياشي هذا الطريق بالصراط إلا أنه غير مستقيم⁽²⁷⁾.

أما منطقة بندر النخيل والتي وصلها العياشي صباحاً، فيبدو أنها منطقة كبيرة حيوية حيث وجد بها العياشي سوقاً كبيرة فيها أنواع كثيرة من الفواكه الشامية والتي جاء بها أهل غزة كالتفاح، واللوز وغير ذلك، وتعد أرضها غنية بالمياه والآبار⁽²⁸⁾.

وصل العياشي موضعاً يقال له عرقوب البغلة⁽²⁹⁾، ووصفها بأنها عقبة صعبة، وعلى جانب الطريق يوجد مسجد غير مسقف، بناه أحد أمراء الحج منذ زمن طويل، وكان لهذا الأمير آثار حسنة في طريق الحجاز، منها إزالة الأحجار من الطرقات، وقطع الأشجار، وحفر بعض الآبار، وتجديد البعض الآخر منها، ووصفه العياشي بصاحب الهمة العالية في تخليد المآثر حتى أجمع الناس على الدعاء له والثناء عليه⁽³⁰⁾، وقد تكون تلك الإصلاحات ابتغاء الأجر والثوبة من الله، أو للدعاية وكسب محبة الناس، أو لأسباب سياسية⁽³¹⁾. ومما سبق نستنتج أن الأفراد وأمراء الحج كانوا حريصين على القيام بإصلاحات الطرق البرية، وإنعاشها وترميم الآبار فيها، وبناء الحصون وغيرها من الإصلاحات لجذب الناس إليها.

ومن مخاطر الطريق ما ذكره العياشي عن تلصص الأعراب وحرابتهم في منطقة العقبة، حتى أن الناس تهيأوا لذلك وأخذوا حذرهم بإخراج أسلحتهم خوفاً من مباغته اللصوص، حيث إنهم كانوا غالباً ما يهاجمون الناس في هذه المنطقة لصعوبتها⁽³²⁾.

استمر العياشي في وصف مخاطر الطريق وكثرة تعرض القوافل والمسافرين لهجمات اللصوص التي تشدد أذيتهم وتعظم نكايتهم، فقال في ذلك: «ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل، ولا يمر فيه إلا جمل إثر جمل كأنه متن الصراط، إلا أنه غير مستقيم، كما يخلو هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب»⁽³³⁾.

وذكر العياشي أن الخوف يزداد في طريق الساحل خاصة في المناطق التي تخلو من سكن الأعراب، فيكثر الخوف ويعظم الضرر، خاصة عند نزول الليل، مما يستدعي خروج أمير الركب ومعه الرماة لحماية الناس الذين يذهبون للوادي لسقي الماء فيأخذون حاجتهم وترتوي إبلهم، ثم يرجعون لمحلاتهم بعد العشاء⁽³⁴⁾.

كما شبه العياشي بعض المرتزقة الذين صادفهم بطريقه بالشرذمة حيث كانوا يبيعون العلف، وقد أشار إلى أن أشد اللصوص الأعراب، وأكثرهم جرأة على السرقة هم الأعراب الموجودون في منطقة وادي العقيق على طريق العقبة الساحلي، وذكر أن اسم المنطقة لا يتناسب مع أخلاق عربيه حيث قال: «فعدلنا يميناً إلى الوادي المسمى على السنة الحجاج وادي العقيق، ولا مناسبة بين الاسم والمسمى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب لشدة جرأة أعرابه على السرقة، فهم أجراً الناس على ذلك»⁽³⁵⁾، كما أن هذه المنطقة من أكثر مناطق الحجاز الساحلية وعورة بالطريق وصعوبة العيش، لقلة المؤنة والأعلاف للماشية، فيبدو أنها منطقة جذباء، إضافة لشراسة أهلها حتى أصبحت مثلاً للحجاج، فيذكر العياشي: «ومن أمثال الحجاج: لا رجال إلا رجال الحوراء، ولا جمال إلا جمال الدوراء، ويعنون

بالدوراء الرجعة، يعني لا يعد صابراً من الجمال إلا من صبر في حال الرجوع من الحجاز، إذ هو آخر السفر ومحل قلة العلف»⁽³⁶⁾.

فيبدو أن هذا الطريق أصبح مقياساً لشدة صبر الرحالة الحجاج المارين عليه، حيث إنه آخر طريق السفر صعوبة وقلة العلف، وبالمقابل كانت تستوقف العياشي الطرق الممهدة التي لا خوف فيها ولا حر فيشير لها⁽³⁷⁾.

ولم يغفل العياشي عند وصف الطريق أن يصف حالة الجو، كما جاء في وصفه الطريق إلى الخضيراء⁽³⁸⁾، حيث ذكر أنه وادٍ كبير ضيق بين جبلين لا سعة فيه فإذا اشتد الحر حجبت الجبال عن الوادي هواء البحر، فينعكس غربياً، أو شرقياً صاعداً من الوادي، أو منهبطاً فيصير سموماً محرقاً ولا ماء هناك مما يؤدي إلى موت الناس، أو قد يتسبب في تسمم الأبدان لقبح الهواء مع حرارته، كما أن المؤنة تتلف، وكذلك الماشية وآلاف الخلق في أسرع مدة، ويتغير الهواء بعد أن يقطع الركب السبع وعرات وخرجوا إلى متسع من الأرض فيصبح الهواء بحرياً حتى وصلوا إلى ينبع⁽³⁹⁾ على الساحل⁽⁴⁰⁾.

ويسمى هذا الوادي كذلك وادي النار وأكد العياشي على ذلك عندما قال: «وهذا الوادي قد طابق الاسم فيه المسمى»⁽⁴¹⁾، دلالة على شدة الحر فيه.

كما وصف العياشي الطريق إلى الحوراء⁽⁴²⁾، فذكر أن الطريق إليها يمر على العقبة السوداء وهي عقبة صغيرة في أرض سوداء ذات أحجار وأشجار، وهي أرض سهلة فيها تباين للجبال وهي تشبه جبال الحجاز السود، وشاهد فيها الأشجار على ساحل البحر، ومياهها حفائر على الساحل، فيه ملوحة قليلة، وما حفر حديثاً أجود ونسبة الملوحة فيه أقل، ويفضل عدم الإكثار من الشرب منه لما يسببه من إسهال فلا يشرب منه إلى للضرورة⁽⁴³⁾.

لم يغفل العياشي ذكر حساب المسافات لكل مدينة ومنطقة يصل إليها، وكان دقيقاً في إعطاء حساب لتقدير هذه المسافة، وقد جاءت بعدة صيغ نذكر منها على سبيل المثال قول: «وميقات المسير إليه عشر ساعات على التمام»⁽⁴⁴⁾، وقوله: «ومدة المسير إليه اثنتي عشرة ساعة بالتحديد»⁽⁴⁵⁾، «ومدة المسير ثمان عشرة ساعة محررة»⁽⁴⁶⁾، وقوله: «مدة المسير ثلاث عشرة ساعة وخمس من الدرج في علم الصناعة»⁽⁴⁷⁾، وقوله: «ومدة المسير إليها ست عشرة محررة، وخمس من الدرج مقدرة»⁽⁴⁸⁾، «ومدة المسير إليها سبع عشرة وثلاثي ساعة بالإجماع»⁽⁴⁹⁾، وقوله: «ومدة المسير إليها تسع ساعات بتمامها، وثلاث ساعة ثابتة في أحكامها»⁽⁵⁰⁾، «ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان حررها أهل الإتيان»⁽⁵¹⁾.

موانئ وقرى البحر الأحمر كما وردت في رحلة العياشي

وصل الركب المغربي إلى مدينة السويس المصرية⁽⁵²⁾، التي وصفها بأنها مدينة صغيرة ذات أسواق، ومساجد، ووكالات مستطيلة على شاطئ البحر (الأحمر) المالح الذي يأتي من الهند، كما ذكر أنها مقامة على جبال شامخة، وهي مدينة تجارية ترسو على ساحلها السفن التجارية المحملة بالبضائع القادمة من جدة، ومكة، واليمن، ومنها تنقل إلى باقي المدن المصرية براً⁽⁵³⁾.

ومن أشهر الموانئ التي وردت في رحلة العياشي «العقبة»، و«المويلح»⁽⁵⁴⁾، و«الوجه»⁽⁵⁵⁾، و«رابغ»⁽⁵⁶⁾، و«جدة»⁽⁵⁷⁾.

فالعقبة وصفها العياشي بأنها قرية تقع على شاطئ البحر على سطح جبل، تشتهر بكثرة الآبار والنخيل، مما ساعد في ازدهارها اقتصادياً فانتعشت الأسواق بها والتي تخدم الحجاج، ويحضرها الكثير من الأعراب وأهل غزة⁽⁵⁸⁾، كما تميزت العقبة بوجود قلعة حصينة بها⁽⁵⁹⁾.

أما ميناء المويلح، والذي نزله الركب المغربي في يوم الجمعة الثالث عشر من شوال، وأقاموا به قرابة يومين فوصفه العياشي بأنه: يقع على شاطئ البحر، كما أن الناس خزّنوا ما يحتاجونه من الإياب إلى العقبة،⁽⁶⁰⁾ وبندر المويلح وصف العياشي ماءها، بأن فيها آباراً كثيرة وبساتين حسنة ونخل، وفيها حصن كبير عليها أمير وعسكر، ويخزن بالحصن الميرة والفول، كما توجد على باب الحصن سوق كبيرة متنوعة البضائع فيجد بها المحتاج ما يريده⁽⁶¹⁾، وهذا يدل على أن المويلح في تلك الفترة كانت منطقة تجارية مهمة، حيث اشتغل أهلها بالتجارة مع الحجاج يشاركونهم فيها الأعراب، كما يدل على ذلك وجود السوق الكبيرة فيها، وتعدد وتنوع البضائع حتى صارت نقطة التقاء الصادرات والواردات التجارية.

ومرسى المويلح ذكره العياشي بقوله: «وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من السويس، والقادمة من جدة ومن القصير»⁽⁶²⁾،⁽⁶³⁾، أما الهواء في المويلح فوصفه العياشي بأنه: «بحري بارد»⁽⁶⁴⁾.

وبالجملة من يوم خروج الركب من مصر إلى المويلح لم يصادفهم حر شديد، ولا مشقة فادحة، ولا خوف موحش، ولا عطش مؤلم، وختم كلامه بقوله: «ولم نزل نتعرف من الله الخير والبركة وغاية الرفق واللطف في أنفسنا وأموالنا ودوابنا، نسأل الله أن يكمل علينا بالخير»⁽⁶⁵⁾.

أما ميناء الوجه لم يذكر العياشي عنه إلا القليل، حيث اختصر الكلام عنه بأنه مركز لنزول الركب، وتخزين ما يحتاجونه في الإياب من طعام وعلف، فيبدو أنها من محطات التخزين والتزويد بالمؤونة⁽⁶⁶⁾.

كما يوجد في ميناء الوجه كذلك طائفة من العسكر لهم أمير، ويعتبر آخر البنادر كما أسماها العياشي في طريق الركب، وليس بعده عمارة إلى ميناء ينبع⁽⁶⁷⁾.

وصل ركب الرحلة المغربية إلى ميناء ينبع، وهي أول عمارة ببلاد الحجاز على الطريق⁽⁶⁸⁾، وقد وصفه العياشي بأنه مرسى على البحر ترسو به السفن المحملة بالبضائع المتجهة للمدينة المنورة⁽⁶⁹⁾.

وفي موضع آخر من الرحلة ذكر العياشي وصفاً عن ميناء ينبع فقال: «به حدائق، ونخيل، وعيون بين زروع تسيح وتسيل، وكان به سور منيع، وجامع مفرد وسيع، وبيوت فسحة الرحاب، فال أمرها إلى الخراب، وبه الآن سوق للحجاج يأخذون منه الذخيرة عند

الاحتياج، وبه أفران، وحيطان كبار، وعِشش تسقى فيها القهوة من أيدي الجواري»⁽⁷⁰⁾، كما أن جميع أسواق ينبع هي خارج المساكن، ويعم نفعها الساكن والطاعن⁽⁷¹⁾. كما وصف العياشي جبل رضوى المطل على ينبع بأنه أكبر جبال تلك المنطقة، كما أشار إلى مسجدها الجامع المسمى بمسجد «العشيرة»، وهو الذي صلى فيه الرسول ﷺ، كما توجد بالقرب من المسجد عين جارية توضع منها العياشي عند دخوله للمسجد للصلاة⁽⁷²⁾. وصلت رحلة العياشي إلى مدينة رابع، وهي قرية فيها نخل، وآبار كثيرة، في وادٍ يأتيه السيل من بعيد، وتزرع فيه مقانٍ كثيرة، ودخن، وذرة، وتعتبر أرض رابع من أخصب أودية الحجاز⁽⁷³⁾.

أما مدينة جدة فكان أكثر ما شد انتباه العياشي فيها هو تأنق رجالها في المجالس التي يبالغون في كنسها وتنظيفها ورش الماء أمامها، حيث اعتاد الناس فيها على الجلوس في مجالس مشرفة على الشاطئ، كما وصف أثاثها بأنها من الكراسي الكبيرة التي تشبه الأسرة المصنوعة من الخشب والألياف، كما أن أهلها اعتادوا على بناء دكاكينهم ووكالاتهم التجارية على شاطئ البحر، واستخدموا في بنائها الأخصاص، وقد روعي فيها السعة وانفتاحها من جهتين الأولى من ناحية البحر، والثانية من ناحية البر⁽⁷⁴⁾.

ومن وصف العياشي لأهل جدة ورجالها يتضح لنا أنهم على جانب كبير من التطور والرقى في معيشتهم ومساكنهم، وحتى في طريقة بنائهم لدكاكينهم ووكالاتهم.

التجارة والأسواق في موانئ وقرى البحر الأحمر

كانت حركة التجارة نشطة على امتداد الطرق البرية، والموانئ الساحلية للبحر الأحمر، حيث كانت السفن ترسو على سواحلها محملة بالبضائع والمعدات، كما أن هذه الطرق يقصدها المسلمون المتجهون لبلاد الحرمين، وأيضاً التجار حاملين معهم بضائعهم من بلدانهم. وقد انتشرت على طول هذه الطرق الكثير من الأسواق التجارية، وكانت هذه الأسواق عبارة عن عدة دكاكين متقاربة، وكانت حوانيت كل مهنة متجاورة، أما الحوانيت وملكيته كانت للتجار، وأرض السوق متاحة للجميع يأتي إليها التجار ويعرضون بضائعهم ولا يدفعون عليها أية رسوم⁽⁷⁵⁾.

وقد وصف العياشي أسواق جدة التي كانت ممتدة على طول شاطئ البحر، والتي كان أكثرها مبنية من الأخصاص، كما أنها كانت واسعة ولكل منها واجهتان، الأولى جهة البحر، والثانية جهة البلد، كما أن هذه الأسواق تستقبل كافة أنواع السلع والبضائع عن طريق وكالات تجارية⁽⁷⁶⁾.

أما أسواق مدينة السويس فكانت مشابهة لأسواق جدة عبارة عن حوانيت ووكالات ممتدة على طول البحر، وهي مليئة بالبضائع التي لا تُستقصى والسلع التي لا تُحصى، وتصلها من جدة، ومكة، واليمن عن طريق السفن التي ترسو على سواحلها، ثم تنقل إلى مصر عن طريق البر. وقد ذكرها بقوله: «هي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات

مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذي يأتي من الهند»⁽⁷⁷⁾.

ومن الأسواق الدائمة والموسمية في درب الحجاز، وصف العياشي أسواق العقبة، والتي ذكر أنها كبيرة وبضائعها متنوعة يأتي بها الأعراب مثل الإبل، والغنم، والسمن، والعسل، والعلف للدواب، كما يحضر إليها أهل غزة⁽⁷⁸⁾، الذين يحضرون معهم الفواكه وتباع في الأسواق بأسعار رخيصة ربما لكثرة الإنتاج، كما وجد العياشي أن الفول رخيص مقارنة بما هو في مصر⁽⁷⁹⁾.

وفي موضع قريب من العقبة يسمى شرفات بني عطية، «وبنو عطية هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت»⁽⁸⁰⁾، يوجد به سوق نزله العياشي وتسوق فيه، ووجد بعض نساء العرب يبعن اللبن وغيره، وقد يأتيهم بعض العرب بالماء ليبيعونه للركب المار عليهم⁽⁸¹⁾.

ويوجد في ميناء المويلح أسواق دائمة لخدمة الحجاج، ولتزويد المراكب التي ترسو على مرساها، وكذلك تستقبل البضائع القادمة إليها من السويس وجدة والقصير، كما يوجد سوق آخر يقام على باب الحصن الكبير الذي عليه أمير وعسكر، وقد خُصص هذا السوق لخدمة الحجاج وتزويدهم بكافة احتياجاتهم من الأكل وغير ذلك⁽⁸²⁾.

كما أن أسواق المويلح تصلها البضائع الطيبة التي شبهها العياشي بالنفيسة لتنوعها ولذتها، فيقول: «وإلى سوقها تساق نفائس البضائع من ثمار تجلبها العرب وزلاية عجينةا كاللجين، فإذا قلت أشبهت الذهب»⁽⁸³⁾، كما أن مخازن القلعة تودع بها الودائع.

وتعتبر قرية ينبع النخل مركزاً لتزويد الحجاج وأهالي القرى المجاورة بما يحتاجونه من الماء، والثمار، والفواكه والرطب، حيث توجد بها سوق كبيرة تجلب إليه الكثير من البضائع، ووصفه العياشي بقوله: «فغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج، وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان، ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير...»⁽⁸⁴⁾.

ويُفهم من كلام العياشي عن «ينبع النخل» أنها كانت عماداً اقتصادياً لباقي القرى المحيطة بها⁽⁸⁵⁾، حيث أشار إلى أن معظم أهالي القرى يأتون إليها للتسوق مع الحجاج المارين بها، كما أن الحجاج يخزنون فيها مؤنهم إلى حين العودة⁽⁸⁶⁾.

كما يشتهر سوق ينبع النخل بكثرة بيع الرطب الذي أكل منه العياشي، ووصفه بالجيد، حيث كان نزولهم في أول وقت جذاذ النخل⁽⁸⁷⁾.

أما قرية «قديد»⁽⁸⁸⁾ يوجد بها سوق تباع فيه الفواكه، والخضروات، التي تسقى بمياه الأمطار، وهي تباع بأسعار رخيصة⁽⁸⁹⁾، كما صادف العياشي سوقاً عند مروره بـ: مر الظهران⁽⁹⁰⁾ تباع فيه أصناف مختلفة من الفواكه والخضار⁽⁹¹⁾.

ومما سبق نستنتج أن الأسواق كانت منتشرة على طول ركب الحجاج، منها الأسواق الكبيرة الدائمة في الموانئ كالعقبة، والمويلح، وينبع، كما أن هناك أسواقاً صغيرة موسمية منتشرة في القرى الصغيرة، كما نلاحظ تنوع هذه الأسواق بالبضائع وجودتها، حيث أشاد بها العياشي، كما أن الأسعار جاءت متفاوتة ما بين القليلة والمتوسطة.

مصادر المياه ومناطق الزراعة في موانئ وقرى البحر الأحمر:

تطرق العياشي كثيراً لمصادر المياه والري في المناطق التي زارها على طريق ساحل البحر الأحمر، فعند وصوله لمنطقة النابعة والتي وصفها بالوادي الكبير ذي الرمل، وجد أرضها مليئة بالأحساء الكثيرة والتي تزيد على المائة، وتخزن المياه العذبة الباردة حيث تحتفظ ببرودتها في باطن الأرض، وهي مصدر سقيا للناس والدواب، فيقول في وصف مياه النابعة: «وهي وادٍ كبير ذي رمل فيه أحساء كثيرة تزيد على المائة، بل أينما حفرت مقدار وقفة أقل وجدت ماءً حلوًا باردًا في غاية الحلاوة كأنه ماء النيل، فلربما يتوهم أنه أحسن منه، وسقى الناس منه إبلهم، وأخذوا من الماء حاجتهم...»⁽⁹²⁾.

كما أشار العياشي لمياه العقبة حيث وجد بها مياهًا عذبة أنقذت الناس من العطش في تلك السنة، كما يوجد بها بئر كبيرة مياهها عذبة لا تنفذ يسقى منها الإنسان والدواب، وربما كانت الركب المارة بها تناوب في الاستسقاء من هذه البئر، حيث الزحمة عليها بالرغم من وجود غيرها من الأبيار، ولكن هذه البئر هي أكبرها، كما وصفها العياشي بقوله: «وهناك بندر حصين فيه بئر ماء عذبة، كبيرة لا تترج أبدًا، يسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن، وهي ثلاثة مثل البرك التي في عجروود، إلا أن هذه أعظم منها، وقد وجدنا الماء فيها فاضلاً عن الركب المصري، وأخذ الناس منه حاجتهم...»⁽⁹³⁾، وعلى امتداد طريق العقبة توجد مغائر ماءها عذب فرات⁽⁹⁴⁾.

وفي موضع يقال له «ظهر الحمار» تكثر به المياه الجوفية وهي أحساء منتشرة في وسط حدائق النخيل، وماءها رطب وكان يسمى في زمن العياشي بـ «مغائر النخل»⁽⁹⁵⁾.

وكما هو الحال في منطقة «مغائر شعيب» عليه السلام حيث تكثر به الأحساء بين جبلين، وصف العياشي ماءها فقال: «وماءها طيب جداً حلو خفيف نافع»⁽⁹⁶⁾، كما تكثر في أرض «مدين» المياه الغزيرة والتي ربما يكون مصدرها الأمطار⁽⁹⁷⁾.

كذلك أرض «عيون القصب» التي وصف العياشي ماءها بقوله: «وهو ماء حار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس، وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث...»⁽⁹⁸⁾.

أما «وادي الأراك» فقد شبه العياشي ماءه بأنه كالزعفران لطيبه، ولكنه قليل مما يؤدي إلى تراحم الناس عليه فيقع بينهم قتال⁽⁹⁹⁾.

كما يوجد في منطقة تسمى «الأكره» وهي قريبة من مياه الوجه، وادٍ كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة، وقد وصفه العياشي بأنه ماء قبيح، إلا أن يكون بعد سيل فيحسن⁽¹⁰⁰⁾.

أما مياه الحوراء فهي عبارة عن حفائر على ساحل البحر، وفيها ملوحة قليلة، كما لاحظ العياشي أن المياه التي حُفرت بعهد قريب هي أطيب في مذاقها من المياه التي طال الحفر إليها واستخراجها، كما أنها قد تكون مُضرة للاستخدام البشري، حيث تسبب الإسهال المفرط كغيرها من مياه «عجروود»، و«الأزلم»، و«الأكره»⁽¹⁰¹⁾.

كما تكثر العيون العذبة والبرك في مناطق مختلفة على طول طريق الساحل، كميناء ينبع⁽¹⁰²⁾، وبدر⁽¹⁰³⁾، وميناء رابغ التي وجد بها بركة كبيرة قد بنيت مملوءة ماء، وقد أعانت الناس في سقي الإبل، وفيما يحتاجون إليه في إحرامهم من غسل ثياب والالغسال⁽¹⁰⁴⁾، كما تكثر فيه حفائر المياه العذبة⁽¹⁰⁵⁾.

كما انتشرت الآبار على طول الطريق الساحلي الذي سلكه الركب المغربي، حيث كان بناء الآبار وإصلاحها من الأعمال المستحبة لدى الكثير من رجال الدولة، وموظفيها، وأمراء الحج، وبعض الأفراد؛ وذلك ابتغاء الأجر والثواب من الله، أو قد يكون لأسباب ومطامع سياسية، أو رغبة في كسب محبة الناس وخدمتهم⁽¹⁰⁶⁾، ومن هذه الآبار ما وقف عليه العياشي في منطقة العقبة الساحلية، حيث كانت للأمير رضوان المتولي آثار حسنة في طريق الحجاز، منها قطع الأشجار وإزالة الأحجار من الطرقات، وحفر بعض الآبار، وتجديد بعض البرك، وغيرها من الأعمال الخيرية التي طار بذكرها الناس، كما أثنى عليها العياشي بقوله: «فجزاه الله خيراً، فلقد كانت له همة عالية في تخليد المآثر، فكم بالغ في الثناء عليه كل لسان، وأعلن بالدعاء له كل إنسان...»⁽¹⁰⁷⁾.

كما أن ازدهار الطرق وانتعاشها تعتمد على وفرة المياه والآبار فيه، فقد تسلك بعض الطرق الطويلة بسبب وفرة المياه والعيون والآبار، بينما قد تهمل طرق أخرى أقصر منها بسبب قلة الماء فيها⁽¹⁰⁸⁾، كما كثير من القرى والمدن الصغيرة تنتعش وتنهض وتزدهر الأسواق بالبيع والشراء، والحركة البشرية بسبب وفرة المياه، وهذا ما وقف عليه العياشي عند وصوله لإحدى قرى العقبة من البندر، حيث كان بها آبار كثيرة فازدهرت الأسواق بها، يحضرها أهالي غزة والأعراب، حيث يعرضون بضاعتهم فيها⁽¹⁰⁹⁾، وتعد هذه الآبار مصدر سقيا للناس القادمين من مختلف الجهات⁽¹¹⁰⁾.

ويمتد انتشار الآبار حتى ميناء المويلح والتي قال عنها العياشي: «ولم نزل نساير إلى بندر المويلح ونزلناه بعد العصر، وماؤه كثير، وفيها آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل»⁽¹¹¹⁾. توقف الركب المغربي بعد خروجهم من منطقة الأزلم في مكان يسمى عند العرب «اصطبل عنتر»، وكان فيه ثلاثة آبار محكمة البناء، بنيت بحجر منحوت، وصف العياشي ماءها بقوله: «وماؤها حلو إلى الغاية إلا أنه خزين أنزحته الدلاء بسرعة، وبات الناس ليلتهم يتربضونه تربضاً ولأياً بعد لأي ما كفاهم للشرب»⁽¹¹²⁾، وعند وصول العياشي إلى وادي الأراك القريب من البحر وجد عدة آبار بعضها حسن وبعضها خشن، كما أن فيها بئراً بناها الأمير رضوان في آخر أيامه، واثنين بناهما مملوكه عندما تولى إدارة الحج بعد مولاه، والبرك الثلاث ملاصقة لسور البدر أوسط هذه الآبار وأكبرها هي للأمير رضوان⁽¹¹³⁾.

وذكر العياشي أنه عند مروره على «وادي العقيق»⁽¹¹⁴⁾، ومن ثم «النبط»⁽¹¹⁵⁾، وجد بها أربعة آبار محكمة البناء بالحجر، ماؤها عذب غزير بارد، كما أكد أن غزارة أودية مياه الدرب وعذوبتها سببها كثرة الأمطار، فلو أمطرت السماء مرة في السنة لوجد الماء، وقد جذب

هذا الوادي الكثير من الناس المسافرين والمارين ليسقوا من الوادي ويرتحلوا⁽¹¹⁶⁾. كما وجدت الآبار كذلك في ميناء «رابغ»⁽¹¹⁷⁾، و«قرية عسفان»، حيث يوجد بها عدد من الآبار والتي منها البئر التي يُذكر أن النبي ﷺ تفل فيها، فصار مأوها حلواً للغاية، وقد شرب منها العياشي تبركاً بآثاره ﷺ⁽¹¹⁸⁾، كما أشار العياشي إلى البئر التي وجدها في منطقة خليص والتي تفل فيها سيد البشر محمد ﷺ، فوصفها بقوله: «وهي بئر من شرب من مائها زال عنه الضرر»⁽¹¹⁹⁾. وبما أن الزراعة دائماً مرتبطة بالماء فأينما وجد الماء وجدت الزراعة، وقد شاهد العياشي الكثير من المناطق الزراعية على درب الحجاز الذي سلكه الراكب المغربي، حيث انتشر في هذا الطريق أشجار النخيل والأراك، والطلح وغيرها من الحقول والبساتين التي ذكرها العياشي في كتابه، كما ذكر طريقة ريها وسقيها، فأشار إلى كثرة النخيل وأشجار الأثل في منطقة العقبة⁽¹²⁰⁾، كذلك وفترته في «حفائر النخيل» الذي وصف رطبه بالجيد⁽¹²¹⁾، وتكثر منابت النخيل والحدائق والبساتين على امتداد ساحل البحر، إضافة لزراعة الفواكه في المناطق الداخلية حيث مياه الآبار والأودية العذبة⁽¹²²⁾.

أما منطقة «مغائر شعيب» فقد أشار العياشي بوجود النخيل، وبعض من الفواكه كالعنب الأسود الذي هو في «غاية الحلاوة»، وكذلك الرمان، كما تكثر زراعة الفواكه بمدينة «مدين»، وهي بلدة على ساحل البحر حيث تتوفر بها المياه العذبة»⁽¹²³⁾.

أما ميناء «المويلح» فشهد ازدهاراً زراعياً، حيث يشتهر بكثرة المزارع والبساتين، ووفرة النخل ذات الرطب الجيد⁽¹²⁴⁾، أما الأودية الممتدة بعد ميناء المويلح فتكثر بها أشجار الأراك؛ ولهذا سميت الأودية باسم «وادي الأراك»، على عدة أودية⁽¹²⁵⁾.

كما تنتشر على امتداد درب الحجاز الأنواع المختلفة من الأشجار منها شجر الطلح التي وصفها العياشي بقوله: «وهي من أنواع الكلاً الذي تراعه الإبل كثيراً»⁽¹²⁶⁾، وشجر الأثل والمقل⁽¹²⁷⁾، وكذلك الأشجار الملتفة⁽¹²⁸⁾.

أما ميناء «ينبع» فقد اشتهر بكثرة زراعة النخيل؛ لذلك سميت بينبع النخل، كما أن ما تنتجه من الرطب هو من أجود وألذ أنواع الرطب⁽¹²⁹⁾.

كذلك منطقة «رابغ» التي تكثر بها زراعة النخيل، والدخن، والذرة، كما تزرع بها مَقَاتٍ كثيرة، ووصفه العياشي بأنه من أخصب أودية الحجاز⁽¹³⁰⁾، وتمتد المساحات الزراعية من «رابغ» حتى قرية «قديد» التي تكثر بها زراعة الفواكه، والمقاتي التي تكون زراعتها إذا جاء السيل، حيث إن أكثر المقاتي في بلاد الحجاز إنما تزرع على مياه الأمطار في الأماكن التي يستنفع بها الماء، كما أخبر العياشي أن كثيراً منها بنيت في البرية من غير استنبات، كما يزرع الحبيب (البطيخ) والذي لا يكاد ينقطع شتاءً ولا صيفاً إلا في السنة الجذباء التي لا تهطل بها الأمطار⁽¹³¹⁾.

ومما سبق نستنتج أن أرض الساحل في أغلب مناطقها هي أرض صالحة للزراعة، والوجود البشري، والحيواني حيث إن أراضيها قد اختزنّت المياه الجوفية العذبة، وتعد

تربتها غنية خصبة للزراعة، وكذلك وفرة مياه الأمطار وجريان الأودية، وحرارة الجو، واتساع المناطق الرعوية، كل ذلك ساعد على ازدهار الزراعة، ووفرة المحاصيل، والجذب السكاني لها.

الخاتمة:

وبنهاية هذه الدراسة، ومن خلال رصد وتتبع ما كتبه الرحالة المغربي أبو سالم العياشي خلال رحلته إلى بلاد الحرمين في القرن الحادي عشر الهجري، يمكن تحديد أبرز النتائج التي خرجت بها الدراسة:

- الازدهار والانتعاش الاقتصادي لطريق ساحل البحر الأحمر والمدن والقرى الواقعة عليه؛ وذلك نتيجة لعبور الحجاج والمسافرين عليها حيث بنيت على امتدادها المساجد، والحصون، والآبار، والبرك، والدور، كما أقيمت فيها وعلى امتدادها الأسواق التجارية والدكاكين ليستفيد منها المار على هذه الطرق.
- هناك عدد من العوامل ساهمت في النشاط البشري، وقيام الزراعة، بسبب وفرة مصادر المياه كالمياه الجوفية، والآبار، والأودية، والعيون.
- الازدهار التجاري الذي حظيت به موانئ البحر الأحمر والمدن القريبة كميناء جدة، والموئيلح، وينبع، وغيرها نتيجة لرسو السفن التجارية المحملة بالبضائع على شواطئها، وكذلك لكثرة المسافرين من مختلف الأقطار الإسلامية حاملين معهم بضائهم ومنتجاتهم لبيعها في بلاد الحجاز، فنهضت الأسواق الكبيرة الدائمة والموسمية، التي تتوفر فيها البضائع الطيبة والتي شبهها العياشي بالنفيسة.
- دقة العياشي وحرصه أثناء وصفه درب الرحلة المغربية، بذكر المسافات، وتحديد الساعات بين كل قرية وقرية، والمدن التي مر عليها، وجاءت بعدة صيغ وعبارات واضحة ودقيقة.
- أعطى العياشي وصفاً عن تصميم الأسواق وبناء الدكاكين والوكالات في القرن الحادي عشر، والتي بنيت على الساحل بجانب بعضها البعض ومفتوحة من الجانبين جهة البحر، وجهة المدينة، كما ذكر المواد المستخدمة في بنائها.
- لم تخلُ طرق الحج من المخاطر والصعوبات التي يتعرض لها الحجاج، والمسافرون، والمارون عليها، منها كثرة اللصوص والمجرمين، ووعورة الطريق وصعوبته وعدم استوائه، كذلك ظروف الطقس من حرارة شديدة وقلة المياه، والتي قد تسببت في موت الدواب والبشر.

المصادر والمراجع :

- (1) إبراهيم بن إسحاق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، مطبعة المنتبى، بيروت، 1389هـ/1969م.
- (2) أبو الظاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المغامم المطابة في معالم طابة، د.ط، د.ت.
- (3) البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع، ط1، 1402هـ/1982م.
- (4) البلادي، عاتق غيث، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط1، 1402هـ/1982م.
- (5) بنهاض عبدالكريم، القيمة اللغوية للرحلات المغاربية الحجازية، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2017م.
- (6) صالح العلي، إدارة الحجاز في العصور الإسلامية الأولى، مجلة الأبحاث، مج(21)، 1968م، ج(2-3-4)، ص32-33.
- (7) عواطف بنت محمد نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (دراسة تحليلية نقدية مقارنة) دار الملك عبدالعزيز، 1429هـ.
- (8) العياشي، أبو سالم عبدالله محمد العياشي، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، (تحقيق: د. سعيد الفاضلي، د. سليمان القرشي)، ط1، 2006م.
- (9) العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ق208.
- (10) الكتاني، عبدالحى بن عبدالكبير، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشايخ والمسلسلات، 10عناء: د. إحسان عباس)، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1402هـ/1982م.
- (11) محمد الصغير محمد المراكشي، صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، الطبعة الحجرية.
- (12) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

المصادر والمراجع:-

- (1) بنهاض عبدالكريم، القيمة اللغوية للرحلات المغاربية الحجازية، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2017م، ص220؛ عواطف بنت محمد نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (دراسة تحليلية نقدية مقارنة) دار الملك عبدالعزيز، 1429هـ، ص39.
- (2) العياشي، أبو سالم عبدالله محمد العياشي، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، (تحقيق: د. سعيد الفاضلي، د. سليمان القرشي)، ط1، 2006م، مج1، ص13-14.
- (3) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص29؛ الكتاني، عبدالحى بن عبدالكبير، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشايخ والمسلسلات، (اعتناء: د. إحسان عباس)، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1402هـ/ 1982م، مج2، ص832.
- (4) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص30.
- (5) محمد الصغير محمد المراكشي، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، الطبعة الحجرية، ص191.
- (6) الكتاني، فهرس الفهارس، مج2، ص833.
- (7) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص29-30؛ الأفراني، صفوة من انتشر، ص192.
- (8) العياشي، اقتفاء الأثر بعد زهاب أهل الأثر، مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، رقم ق208، ص100-101.
- (9) العياشي، اقتفاء الأثر، ص100-101.
- (10) الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص833.
- (11) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص7.
- (12) عبدالكريم، القيمة اللغوية للرحلات المغربية والحجازية، ص142-144.
- (13) نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، ص53.
- (14) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص357-358.
- (15) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص53-54.
- (16) الأفراني، صفوة من انتشر، ص192؛ انظر: الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص834-835؛ نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، ص59.
- (17) نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، ص247؛ إبراهيم بن إسحاق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، مطبعة المتنبي، بيروت، 1389هـ/ 1969م، ص333.
- (18) النابعة: اسم الفاعل من نبع ينبع، موضع بقرب مدينة الرسول ﷺ.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج5، ص942.
- (19) أحساء: هو جمع حسي، وهو الماء القليل، الذي تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر العرب عنه الرمل.
- لحموي، معجم البلدان، ج1، ص111؛ البلاذري، عاتق غيث، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط1، 1401هـ/ 2891م، ص89.
- (20) ماء الموائد، مج1، ص275.
- (21) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص275.
- (22) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص275.

- (23) العقبة: منزل في طريق مكة بعد واقصة وقيل القاع لمن يريد مكة، وهو الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ منه، وهو طويل صعب إلى صعود الجبل والعقبة.
- الحموي، معجم البلدان، ج4، ص431.
- (24) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص275-276.
- (25) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (26) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص283.
- (27) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص283.
- (28) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص276.
- (29) عرقوب النخلة: والعرقوب جمعها عراقيب، وهو عقب مؤثر خلف الكعبين، والعرقوب من الوادي، منخفض فيه التواء شديد.
- الحموي، معجم البلدان، ج4، ص59.
- (30) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص280.
- (31) الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص333.
- (32) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص281؛ وانظر: ص285.
- (33) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص283.
- (34) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (35) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص295.
- (36) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص295.
- (37) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص275.
- (38) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص296.
- (39) ينبع: مأخوذة من لفظ ينبع الماء، حصن به نخيل وماء وزروع، وهي بين مكة والمدينة المنورة، وقيل إن ينبع من أرض تهامة غزاها النبي ﷺ، وتكثر فيه الأودية الغزيرة، وقال عنها الفيروزآبادي: «كانت تسكنها الأنصار وجهينة وليث، وهي اليوم لبني حسن بن علي، وفيها عيون مجذاب غزيرة، ولها منبر وهي قرية غناء».
- لحموي، معجم البلدان، ج5، ص054؛ أبو الظاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المغانم المطابة في معالم طابة، د.ط، د.ت، ص044؛ البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص143-043.
- (40) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص296.
- (41) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص296.
- (42) الحوراء: ذكرها القضاعي بأنها كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز، وهي مرفأ على ساحل البحر الأحمر الشرقي، ترسو به السفن المصرية إلى المدينة المنورة، مياهها مالحة وليس بها زرع، لم يبق بها اليوم سوى آثار في شمال أملج على بعد 31 كيلو.
- الحموي، معجم البلدان، ج2، ص613؛ البلادي، معجم المعاجم الجغرافية، ص67.
- (43) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص295.
- (44) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص279.
- (45) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص282؛ وانظر: ص311.

- (46) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص288.
- (47) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص289.
- (48) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص292.
- (49) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص293.
- (50) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص298.
- (51) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص298.
- (52) السويس: بلدة تقع على ساحل بحر القلزم من نواحي مصر، وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة المنورة، والمسافة بينه وبين القسقاط سبعة أيام في برية معطشة، تحمل إلى ميناء السويس الميرة من مصر، ثم تنزل في المراكب ويتوجه إلى الحرمين.
- الحموي، معجم البلدان، ج3، ص682.
- (53) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص274-275.
- (54) المولىح: اللفظ هو تصغير مالح، وهو ميناء على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، شمال مدينة ضبا، فيها إمارة وقلعة أثرية لا تزال آثارها قائمة.
- بلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع، ط1، 2041هـ/2891م، ج8، ص792-892.
- الوجه: هي منطقة تقع على ساحل البحر مأهولة بالسكان فيها إمارة وميناء جوي وبحري، ومبنى فيها محطة لتحلية البحر.
- البلادي، معجم معالم الحجاز، ج9، ص031.
- رابغ: وادٍ من دون الجحفة يقطعه طريق الحاج من دون عزور، ورابغ مأخوذ من العيش الناعم، أو الذي يقيم على أمر ممكن له.
- الحموي، معجم البلدان، ج3، ص11.
- (55) جدة: ميناء على ساحل البحر الأحمر، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال، وبين جدة وساحل الجحفة خمس مراحل، وهي اليوم من أكبر موانئ المملكة العربية السعودية على ساحل البحر الأحمر. وذكرها الأصبخري بقوله: «جدة فرضة أهل مكة على مرحلتين».
- الحموي، معجم البلدان، ج2، ص411-511؛ الاصبخري، إبراهيم بن محمد الفارس (ت643هـ)، المسالك والممالك، (تحقيق: محمد عبدالعال)، دار القلم، القاهرة، 1831هـ، ص32.
- (56) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص281.
- (57) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص281.
- (58) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص286.
- (59) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (60) القصير: بلفظ تصغير قصير، موضع قرب عيذاب بينه وبين قوص فرضة الصعيد خمسة أيام وبينه وبين عيذاب ثمانية أيام، وفيه مرفأ سفن اليمن. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص367.
- (61) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (62) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (63) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص291.

- (64) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص294.
- (65) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص292.
- (66) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص292؛ وانظر: 299.
- (67) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص297.
- (68) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص299 - 300.
- (69) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص300.
- (70) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص297.
- (71) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص306.
- (72) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص405.
- (73) صالح العلي، إدارة الحجاز في العصور الإسلامية الأولى، مجلة الأبحاث، مج(21)، 1968م، ج(4-3-2)، ص33-32.
- (74) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص405.
- (75) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص274.
- (76) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص281.
- (77) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص283.
- (78) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص284.
- (79) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص284.
- (80) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (81) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص289.
- (82) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص296.
- (83) نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز، ص294.
- (84) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص297.
- (85) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص296.
- (86) قرية قديد: بضم القاف وفتح الدال المهلة موضع قرب مكة، وذكرها في السيرة النبوية في طريق الهجرة، وهي وادٍ فحل من أودية الحجاز التهامية، يقطع الطريق من مكة إلى المدينة المنورة على نحو من 120 كيلاً، ثم يصب في البحر عند القضيمة، وفيه عيون وقرى كثيرة لقبائل حرب وبنو سليم. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص313؛ البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص249.
- (87) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص307.
- (88) مر الظهران: يعتقد أنه ثنية ظهر، الذي يتردد في السيرة، وهو وادٍ مشهور يقع شمال مكة، ويصب في البحر جنوب جدة بقرابة عشرين كيلاً، وفيه العيون والقرى منها حذاء، والجموم، وبحرة.
- البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص391-782-882.
- (89) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص308.
- (90) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص275.
- (91) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص276.
- (92) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص283.

- (93) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 283.
- (94) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 284.
- (95) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 284.
- (96) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 285.
- (97) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 291.
- (98) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 294.
- (99) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 294-295.
- (100) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 299.
- (101) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 304.
- (102) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 306.
- (103) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 309.
- (104) الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص 333.
- (105) ماء الموائد، مج 1، ص 280.
- (106) الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص 441.
- (107) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 281.
- (108) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 283.
- (109) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 285.
- (110) ماء الموائد، مج 1، ص 290.
- (111) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 291.
- (112) وادي العقيق: هو وادي بالقرب من ناحية المدينة المنورة، وفيه عيون ونخيل، وفي منطقة الحجاز عدة أودية تسمى وادي العقيق.
- البلادي، معجم معالم الحجاز، ج 6، ص 531.
- (113) النبط: ويقصد به الماء المستخرج بالحفر، وهو مكان يقع بين ينبع ووادي الحمض شمال ينبع.
- البلادي، معجم معالم الحجاز، ج 6، ص 91-02.
- (114) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 295.
- (115) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 306.
- (116) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 308.
- (117) ماء الموائد، مج 1، ص 310.
- (118) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 276-281-282-283.
- (119) العياشي، ماء الموائد، مج 1، ص 283.

- (120) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص283-284.
- (121) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص284.
- (122) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص285.
- (123) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص293.
- (124) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص294.
- (125) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص282.
- (126) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص294.
- (127) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص299.
- (128) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص306.
- (129) العياشي، ماء الموائد، مج1، ص307.

البحر الأحمر في التاريخ الحديث

أ. مشارك-قسم التاريخ - جامعة البحر الأحمر

د.أحمد محمد أحمد مركز

أستاذ التاريخ الحديث - قسم التاريخ - كلية الآداب -
جامعة النيلين

أ.د.ميمونة مرغني حمزة النصري

المستخلص:

هدفت الدراسة للتعرف علي مدى أهمية البحر الأحمر في التاريخ الحديث كساحة صراع بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، وكيف أن هذه الأهمية تضاعفت بعد افتتاح قناة السويس للملاحة. أيضاً هدفت الدراسة إلى استعراض الوسائل غير القانونية التي انتهجتها الدول الغربية من أجل النفوذ والسيطرة وكسب المعارك السياسية والدبلوماسية والعسكرية. اتبعت الدراسة منهج البحث التاريخي- الوثائقي في تحليل الوثائق وغيرها من المصادر والمراجع. أيضاً استخدمت الدراسة أسلوب المقارنة لمقارنة الأحداث مع بعضها البعض بهدف الأقتراب من الحقيقة التاريخية. وتوصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

برزت أهمية البحر الأحمر نتيجة لمجموعة من العوامل المتداخلة بالإضافة إلى مجموعة من الحقائق القديمة والمتغيرات الحديثة، اجتهدت الدولة العثمانية للحفاظ علي البحر الأحمر بعيداً عن أيدي الأوروبيين، تضاعفت أهمية البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس للملاحة الأمر الذي جعل الدول الأوروبية تتنافس حوله من أجل النفوذ والسيطرة متبعة جميع الوسائل، مع اعلان الحرب العالمية الأولى تحول البحر الأحمر إلى ميدان صراع مفتوح بين العثمانيين والبريطانيين.

Abstract:

The study aimed to know the extent of the importance of Red Sea in the modern history as an area of conflict between Ottoman empire and European countries and how this importance increased after opening Suez canal for shipping. The study is also aimed to present illegal methods which European countries followed to dominate and control political, military and diplomatic conflicts. The study used historical documentary method in analyzing documents as well as references. It used comparative method to compare events with each other with the aim of obtaining historical facts. The study findings are: The importance of Red Sea emerged due

to some factors, in addition, some ancient facts and modern changes. Ottoman empire exerted effort to keep Red Sea out reach of Europeans. The importance of Red Sea increased to an open conflict field between Ottomans and British.

مقدمة:

البحر الأحمر له مدلول خاص على مدى التاريخ ابتداءً من العصور القديمة مروراً بالحقب المختلفة إلى الآن. تأتي أهمية البحر الأحمر من خلال موقعه الممتاز مقارنة مع البحار الأخرى، علاوة على ما يحتويه من ثروات جعلت الدول المصلحة عليه تسعى بكل جهد لاحتكار مزاياه الإيجابية ومردودها الاقتصادي. كان البحر الأحمر مهداً للتجارة المحلية والعالمية منذ أيام الفراعنة، حتى الكشوف البرتغالية التي أدت إلى تحويل التجارة العالمية من البحر الأحمر إلى جنوب إفريقيا الأمر الذي كان له نتائج سيئة على الشعوب المصلحة عليه. في العصر الحديث برزت بريطانيا عندما احتلت عدن في 1839م واتخذتها قاعدة قبل أن تظهر دول أوروبية أخرى كمنافس أو متحالف مع بريطانيا بغرض الاستحواذ والاستعمار على حساب السيادة العثمانية.

مثلت قناة السويس التي افتتحت في العام 1869م نقطة تحول في تاريخ البحر الأحمر الذي تحول إلى شريان رئيس للتجارة الدولية، وأصبح يمثل حلقة وصل بين المحيط الهندي، والبحر الأبيض مما يجعله طريقاً بحرياً للأساطيل والقوات العسكرية، وتحول البحر الأحمر إلى بؤرة صراع كبير بين الدولة العثمانية ومختلف الدول الأجنبية، وبالتالي وقعت العديد من البلدان على جانبي البحر الأحمر فريسة للمطامع الاستعمارية.

برزت الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بشكل واضح في الحرب العالمية الأولى 1914-1918م، عندما أصبح البحر الأحمر شرياناً للأساطيل العسكرية، كما لعب دوراً في نقل الإمدادات الغذائية، والمؤن لقوات الحلفاء. أيضاً كان لشعوب البحر الأحمر دور مهم في الحرب العالمية عندما وضعت كل إمكاناتها البشرية، والعسكرية، والاقتصادية في خدمة الحلفاء الأمر الذي كان له أثر واضح في النتيجة النهائية لهذه الحرب وهو انتصار الحلفاء.

أهمية البحر الأحمر في التاريخ الحديث:

أ. مرت على البحر الأحمر فترات مختلفة من حيث الأهمية، ففي عصور فجر التاريخ كان عبارة عن بحر لا تتعدى وظيفته خدمة تجارة المناطق الواقعة على سواحه لكن أخذت تزداد حركة الملاحة على أيدي الفراعنة ثم الإغريق والعرب والرومان والأحباش⁽¹⁾.

بعد غزو التتار للعالم العربي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بدأت أحوال البحر الأحمر تتجه نحو الأفضل لأنهم قضوا على الطريق البري الذي يمر عبر العراق، الأمر الذي جعل البحر الأحمر يزدهر بازدهار التجارة عبر مياهه، لكن تراجعت أهميته مجدداً باكتشاف رأس الرجاء الصالح عام 1498م وأصبح البحر الأحمر مجرد بحر داخلي قليل الأهمية ونتج عن ذلك أن فقدت شعوبه الكثير من المكاسب التي كانت تجنيها في السابق، وإن ظلت التجارة المحلية بين سواحله مستمرة رغم غارات البرتغاليين من حين لآخر⁽²⁾.

في العصر الحديث دخلت الكثير من البلدان الأوروبية في حلبة الصراع للسيطرة على البحر الأحمر، وبرزت بريطانيا كدولة قوية بحكم ما تمتلكه من قوة عسكرية وأسطول بحري كبير، لذلك عملت إلى جانب فرنسا على إعادة إحياء طريق التجارة عبر البحر الأحمر، ففي عام 1798م احتلت فرنسا مصر، وبمجرد معرفة أحوالها أدرك نابليون⁽³⁾ أهمية برزخ السويس، لذلك قام بتكليف مجموعة من المهندسين للبحث عن إمكانية ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط وخلصت جهودهم إلى فكرة مشروع حفر قناة السويس، لكن ظل المشروع مجرد فكرة حتى عهد الخديوي سعيد باشا⁽⁴⁾ الذي سمح بتنفيذ المشروع، وبالفعل تم حفر القناة وفتحت للملاحة العالمية في 17 نوفمبر 1869م، مثلت قناة السويس علامة فارقة في تاريخ البحر الأحمر الذي اكتسب موقعاً بارزاً في خطط واستراتيجيات الدول⁽⁵⁾، وأصبح الشريان الرئيس للتجارة الدولية، والأساطيل الحربية، وظهرت أهميته بموانئه الشمالية والجنوبية، والأراضي المطلة على سواحله الشرقية والغربية، وأصبح ملتقى للأطماع الدولية العالمية⁽⁶⁾.

ب. استراتيجياً: تأتي الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر من خلال موقعه والأخذ بعامل سرعة النقل والمواصلات بين آسيا وأوروبا، علاوة على ما يحتويه من ثروات طبيعية كبيرة ومتنوعة ومتجددة كالثروة السمكية. أما الموارد غير المتجددة فتشمل: البترول، والغاز الطبيعي وهما المصدران الحيويان للإنسان والاقتصاد، أيضاً يحتوي البحر الأحمر على كثير من المعادن المهمة مثل: عقد المنجنيز، وغيره من المعادن الثمينة⁽⁷⁾.

يمثل البحر الأحمر كذلك معبراً للمواد الخام من المستعمرات بالشرق إلى المصانع بالغرب الأوروبي، الأمر الذي جعل منه هدفاً للدول الاستعمارية المختلفة.

ج. يتميز البحر الأحمر بموقعه على خط التماس مع عدة مناطق مهمة كمنطقة الخليج العربي⁽⁸⁾ والقرن الأفريقي⁽⁹⁾، كما أن هناك ارتباطاً وثيقاً بينه وبين الخليج العربي من خلال بحر العرب وخليج عدن كمنطقة استراتيجية تتحكم في مداخل ومخارج الخليج العربي والبحر الأحمر عن طريق بوابتيها «مضيق هرمز وباب المندب»، ومما يضاعف من الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر وجود قناة السويس في شماله وباب

المنذب والقرن الإفريقي في جنوبه، وهذان المدخلان يتحكمان في السيطرة والتحكم على الملاحة بالبحر الأحمر، وهناك ارتباط كامل بين هذين المدخلين، فكل منهما له مميزاته الحاكمة وخصائصه المحدودة حتى أصبحا معاً محط صراعات معقدة بين القوى الدولية والاستعمارية المتنافسة⁽¹⁰⁾.

د. يمثل البحر الأحمر حلقة وصل بين المحيط الهندي والبحر المتوسط الأمر الذي يجعل منه طريقاً بحرياً مهماً للأساطيل التجارية والقوات العسكرية بين مراكز تجمعها الأصلية في الشمال ومناطق انتشارها في أجزاء مختلفة من العالم⁽¹¹⁾.

نخلص إلى أن أهمية البحر الأحمر جاءت نتيجة لمجموعة من العوامل المتداخلة بالإضافة إلى مجموعة من الحقائق القديمة والمتغيرات الحديثة الأمر الذي جعل من البحر الأحمر بؤرة تنافس بين مختلف القوى من أجل السيطرة والاستحواذ عليه، كما أن البحر الأحمر يمثل مفتاح السيطرة والتحكم في حركة الملاحة البحرية والتجارب العسكرية، ومن خلاله يمكن فرض السيطرة على نقاط الاتصال بين مختلف الدول العربية، والإفريقية، والآسيوية التي تشاطئ البحر الأحمر.

النفوذ الأجنبي على البحر الأحمر وسواحله في العصر الحديث: ١ / التسابق الأوروبي للسيطرة على جنوب البحر الأحمر: أولاً: الدولة العثمانية:

كانت الدولة العثمانية أول دولة تسيطر على المناطق المطلة على البحر الأحمر في بدايات القرن السادس عشر الميلادي بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وتحويل النشاط التجاري إلى ذلك الطريق، قبل أن يتجهوا لفرض الحصار على القوى التجارية العربية ومحاولة القضاء عليها، قامت البرتغال باحتلال قواعد مهمة عند مدخل البحر الأحمر والخليج العربي بغرض إغلاق المنافذ الجنوبية لتجارة الشرق ومنعها من الوصول إلى مصر والشام، ونتيجة لذلك خرج المشرق العربي من تيار التجارة العالمية، وفقدت دولة المماليك مقومات وعوائد ضخمة كانت ترد إلى خزينتها⁽¹²⁾، لذلك حاولت دولة المماليك التصدي للخطر البرتغالي وخاضت ضدهم معركة ديو البحرية عام 1509م إلا أن أسطولها تعرض للهزيمة، وبالتالي أصبحت مسؤولية حماية البحر الأحمر وسواحله⁽¹³⁾ تقع على عاتق العثمانيين الذين بذلوا جهداً كبيراً للحفاظ عليه كبحيرة إسلامية، ومن هنا تبدأ جذور السياسة العثمانية في منطقة البحر الأحمر، وهي سياسة كانت تخدم مصالح القوى الإسلامية بالمنطقة⁽¹⁴⁾، وتعمل في نفس الوقت على التصدي للخطر البرتغالي، ومنعه من التقدم إلى داخل البحر الأحمر⁽¹⁵⁾.

استمرت الحملات البرتغالية بشدة على سواحل البحر خلال الأعوام 1520-1523م، قبل أن يتحالفوا مع الأحباش بهدف شل النشاط التجاري الإسلامي عن طريق تطويق العالم الإسلامي من ناحية الجنوب⁽¹⁶⁾.
اعتباراً من العام 1538م بدأ يتضاعف الاهتمام العثماني بالبحر الأحمر وأول خطواتهم العملية في هذا الاتجاه محاولة إخضاع اليمن بحكم موقعها المهم لتصبح خط دفاع متقدم وقاعدة في صراعهم ضد البرتغاليين⁽¹⁷⁾، وبالفعل أرسلت الدولة العثمانية حملة بقيادة سليمان باشا الخادم⁽¹⁸⁾، في سنة 1538م وتمكن بعد عدة حملات من الوصول إلى عدن⁽¹⁹⁾، والاستيلاء على الميناء وتحصينه بشكل مشابه لميناء جدة⁽²⁰⁾، الذي حصنه سليمان باشا في وقت سابق وجعل منه مركز قيادة عسكرية للدفاع عن البحر الأحمر. لاحقاً قرر العثمانيون إغلاق ميناء عدن في وجه السفن الأجنبية بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة⁽²¹⁾.

استمرت المجهودات العثمانية للدفاع عن البحر الأحمر من خلال إنشاء ولاية جديدة أطلقوا عليها اسم ولاية «الجيش» وقاعدتها مدينة سواكن²²، 1550-1555م وربطت بثغر جدة الإسلامي بإدارة واحدة وقّع على عاتقها تسيير ومتابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر بين الشاطئ العربي والشاطئ الإفريقي بغرض إحكام السيطرة عليه وإغلاقه في وجه البرتغاليين²³، علماً بأن العثمانيين بسطوا سيادتهم على الحجاز في العام 1517م، وجعلوا من مدينة جدة قاعدة لحكمهم ومقرّاً للوالي العثماني بالحجاز²⁴، حيث كان يخضع لسلطته شريف مكة الذي رحب بالحكم العثماني بعد فتح مصر مباشرة حينما أرسل ابنه «أبي نمي» حاملاً مفاتيح الكعبة إلى السلطان سليم الأول⁽²⁵⁾، كرمز للتبعية والتسليم⁽²⁶⁾.

استطاعت الدولة العثمانية إبعاد الخطر البرتغالي عن منطقة البحر الأحمر، قبل أن تجد نفسها محاصرة بالكثير من الصعوبات في توطيد حكمها باليمن حيث مثلت طبيعة المنطقة الجغرافية الصعبة ومجتمعاتها المعقدة عقبات أمام السيطرة العثمانية التي كانت غير مستقره تماماً. امتدت المرحلة الأولى من الحكم العثماني لليمن في الفترة من 1538-1635م بعدها انسحبت الدولة العثمانية من اليمن، لتبدأ المرحلة الثانية من علاقة العثمانيين باليمن ومثل العثمانيين خلال هذه المرحلة جنود أرسلهم والي مصر محمد علي باشا²⁷، في العشرينيات من القرن التاسع عشر الميلادي بتكليف من الباب العالي للقضاء على أتباع محمد بن عبد الوهاب²⁸، الذين هددوا أمن الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، وظلت القوات المصرية ترابط باليمن حتى خروجها بسبب القرارات الدولية في بداية العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي.

ثانياً: بريطانيا:

بعد أن سيطرت بريطانيا على الهند اتجهت نحو الخليج العربي والبحر الأحمر في محاولة منها لتأمين نفوذها على الهند. في الوقت الذي اتجهت فيه فرنسا إلى مصر في إطار تنافسها مع بريطانيا على طرق التجارة والمواصلات، ونجحت في احتلالها لفترة قصيرة امتدت من 1798-1801م⁽²⁹⁾، عملت فرنسا خلالها على تنظيم ميناء السويس بشكل جعل أنظار الدول الأوروبية تنظر للبحر الأحمر بوصفه طريقاً للوصول إلى الشرق الأقصى الغني بالثروات الطبيعية الضخمة. من ناحية أخرى قامت شركة الهند الإنجليزية بنشاط كبير من أجل إغلاق الطريق إلى الهند في وجه فرنسا، وفي خطوة تالية أرسلت حكومة الهند الإنجليزية قوة بحرية إلى ميناء القصير⁽³⁰⁾، لطرد الفرنسيين من مصر، وبالفعل هزمهم في موقعة أبي قير البحرية في عام 1801م بفضل معاهدة التحالف التي عقدها مع الدولة العثمانية⁽³¹⁾، في يناير 1799م، ثم المحاولة الفاشلة لاحتلال مصر في 1807م بواسطة حملة فريزر، أيضاً عقدت بريطانيا اتفاقية مع سلطان «لحج» في 1802م وبموجبها فتح ميناء عدن أمام السفن التجارية البريطانية، كذلك توصلت بريطانيا إلى اتفاق مع أمام صنعاء في 1821م سمح للوكيل البريطاني في ميناء «مُخا» أن يقوم بدور المندوب السامي البريطاني⁽³²⁾.

أيضاً كان على بريطانيا أن تتصارع مع الدولة العثمانية بالإضافة إلى مصر التي كانت تقع في مركز متوسط يجعلها تتحكم في طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب، كما أن النظام الاقتصادي الذي أنشأه محمد علي كان يتعارض مع المصالح الاقتصادية البريطانية وهي مصالح تقوم على أساس حرية التجارة والمساومة بهدف الحصول على أكبر ربح ممكن من الوطنيين⁽³³⁾.

بريطانيا كانت تخشى من امتداد النفوذ المصري خاصة بعد أن امتد إلى الجزيرة العربية، وبالتالي أصبح قريباً من الوصول إلى الخليج العربي الأمر الذي يعني الوصول إلى مياه الهند، يضاف إلى ذلك أن بريطانيا كانت تراقب بحذر نمو قوة عربية إسلامية أخرى في كل من شرق إفريقيا «زنجبار» ومسقط وهذه القوة بقيادة السلطان سعيد⁽³⁴⁾ الذي سيطر على الجزء الجنوبي من البحر العربي بالإضافة إلى شرق إفريقيا وهي أمور في مجملها يمكن أن تهدد المصالح البريطانية في الهند، وحتى تنفاد بريطانيا ذلك عملت على إنشاء قاعدة متوسطة لها في المنطقة تمكنها من فرض كلمتها على كل من مصر وسلطنة مسقط وتتحكم منها في اليمن، وكانت أصلح نقطة لذلك هي عدن

التي احتلتها بريطانيا في العام 1839م، وتتمتع عدن بأهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للبريطانيين كمحطة في طريق مواصلاتهم إلى الهند، فضلاً عن قربها من باب المنذب الذي يشكل المدخل الجنوبي للبحر الأحمر⁽³⁵⁾.

بعد أن احتلت بريطانيا عدن اتخذتها قاعدة للتوسع والانطلاق لبسط نفوذها في جنوب الجزيرة العربية وحوض البحر الأحمر⁽³⁶⁾.

بدأ التفوق البريطاني واضحاً لدرجة جعلته منافساً للنفوذ العثماني وبدأت تختفي السفن العثمانية في منطقة الخليج العربي الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تخشى على نفوذها في الجزيرة العربية التي تحتضن المقدسات الإسلامية وهي تعني الكثير للعثمانيين⁽³⁷⁾.

لم تدخر بريطانيا جهداً في سبيل السيطرة على المنطقة فقد اتبعت وسائل مختلفة اتسم معظمها بالمرونة إلا أنها لم تنس سياستها المعروفة «فرّق تسد» وذلك لإلهاء القبائل ببعضها البعض حتى لا تتوحد فتشكل عقبة في سبيل سيطرتها على المنطقة التي أصبحت بريطانيا صاحبة السيادة عليها وبالتالي لم تعد قلقة على مصالحها في عدن والمدخل الجنوبي للبحر الأحمر⁽³⁸⁾.

أما الجزء الشمالي من البحر الأحمر فقد شهد مستجدات تتناقض مع المخططات البريطانية وهي تولي محمد علي باشا لمقاليده الأمور في مصر عام 1805م، وعمل على بناء دولة حديثة تتصدى للأطماع الاستعمارية الأوروبية، وأراد لمصر أن تصبح قلباً لكتلة عربية تشمل مصر والجزيرة والسودان وبلاد الشام والعراق، وسنحت له الفرصة لتكوين الكتلة التي يحلم بها عندما استنجد به السلطان العثماني سليم الثالث⁽³⁹⁾، عام 1807م لإخماد الحركة الوهابية⁽⁴⁰⁾، والقضاء على الدولة السعودية الأولى التي هددت الدولة العثمانية، وجد محمد علي في هذه الدعوة فرصة ممتازة لبناء القوة البحرية والحربية التي يتطلع إليها قبل أن يشرع في إرسال الحملات الحربية المتتالية إلى شبه الجزيرة العربية في الفترة بين 1811-1818م ونجحت هذه الحملات المتلاحقة في القضاء على الدولة السعودية الأولى⁽⁴¹⁾.

على الرغم من أن الحرب الوهابية كلفت مصر الكثير من الأموال والجنود، لكنها كانت وسيلة لتوطيد مركز محمد علي باشا ورفع شأن مصر بين الدول، وبداية لتفكير محمد علي في الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال بمصر، وأخذ يعمل على تحقيق هذا الهدف عن طريق الحرب والفتح، لذلك تطلع إلى السودان التي كانت تربطه بمصر الكثير من الروابط الاجتماعية والاقتصادية والاستراتيجية، وبدأ في مشروع ضم السودان خلال الفترة من 1820-1823م، وفي خطوة لاحقة اهتم محمد علي بالموانئ السودانية

والصومالية بصورة أدت إلى انتعاشها بشكل واضح⁽⁴²⁾. نظرت بريطانيا إلى هذه التطورات بكثير من القلق لأنها تتناقض مع المصالح البريطانية، لذلك اجتهدت لإخراج مصر من تلك المناطق ووجدت الفرصة سانحة عندما ساءت العلاقات بين محمد علي والسلطان العثماني ووصلت إلى الصدام المباشر، تدخلت بريطانيا إلى جانب السلطان العثماني بحجة المحافظة على وحدة أملاك الدولة العثمانية، بالإضافة لتحجيم قوة محمد علي تمهيداً للقضاء عليه⁽⁴³⁾.

انتهى الصراع مع السلطان العثماني بهزيمة محمد علي عندما فرضت عليه الدول الأوروبية معاهدة لندن سنة 1840م، ثم بروتوكول لندن 1841م، وبموجب هذه العقوبات عادت مصر إلى حجمها السابق أي قبل ظهور محمد علي، وأصبحت تحكم وراثياً بوساطة محمد علي وأسرته من بعده تحت السيادة العثمانية. ونتيجة لمعاهدة وبروتوكول لندن أصدر السلطان العثماني فرمانات المنفذة لشروط المعاهدة من خلال ترتيب الوراثة وتحديد المال «الميري» السنوي الذي تدفعه مصر للباب العالي، بالإضافة إلى تحديد قوة الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي فقط، وصدرت هذه فرمانات في 13 فبراير وأول يونيو 1841م بموافقة وضمن الدول الأوروبية⁽⁴⁴⁾. نلاحظ بأن معاهدة لندن قد فرضت على مصر الوصاية الدولية بعد أن تم تجريدها من كل ممتلكاتها وعادت مصر إلى مجرد ولاية عثمانية، لكن مع ذلك كانت سلطة الباب العالي عليها ضعيفة بسبب تدخل الدول الأوروبية التي كانت تضمن معاهدة لندن.

بعد أن توطدت أقدام البريطانيين في عدن اتجهوا إلى السيطرة على الجزر المتناثرة في المنطقة التي تحيط بـ عدن في البحر الأحمر، أيضاً احتل البريطانيون جزيرة بريم⁽⁴⁵⁾ في 1857م التي تقسم باب المندب إلى قسمين ومن يسيطر عليها يصبح في مقدوره أن يتحكم تماماً في الدخول والخروج في باب المندب، ولعلّ الهدف البريطاني من احتلال هذه الجزيرة هو قطع الطريق أمام الفرنسيين حتى لا يمدوا سيطرتهم على المنطقة الجنوبية من البحر الأحمر، بالإضافة إلى تأمين الخطوط البحرية البريطانية التي تمر بموازية الساحل الغربي جنوب باب المندب⁽⁴⁶⁾.

تمثل جزيرة بريم للبريطانيين أهمية كبرى بحكم موقعها الاستراتيجي وقربها من القاعدة البريطانية في عدن، وبالتالي فهي تتيح للبريطانيين فرصة التحكم في البحر الأحمر والموانئ الإفريقية المقابلة لعدن.

مثلت المنافسة البريطانية تهديداً كبيراً للمصالح الفرنسية في تلك الجهات، خاصة بعد أن نجحت بريطانيا في الاستيلاء على عدن وحولتها إلى

مدينة حصينة، وقامت حكومة بمباي بإرسال الكابتن وليام كورنواليس هاريس William Cornwallis Harris مزوداً بكافة الصلاحيات لعقد اتفاقية صداقة وتجارة باسم الملكة فيكتوريا مع سهلا سلاسي ملك شوا والجالا، وتم توقيع هذه الاتفاقية بتاريخ 6 نوفمبر 1841م⁽⁴⁷⁾.

ثالثاً: فرنسا:

تخوفت فرنسا من ازدياد النشاط البريطاني في المحيط الهندي وخليج عدن وعند مداخل البحر الأحمر الجنوبية، لذلك بدأت بدراسة الموقف لتقدير مدى الخطر البريطاني، وقامت بعدة حملات استكشافية بغرض التعرف على سواحل البحر الأحمر، وتوصلت هذه البعثات إلى ضرورة عدم السماح للدول الأخرى في أن تسبق فرنسا في احتلالها لتلك المناطق، وبعد محاولات كومب Combes وتاميزيه Tamiser سنة 1835-1837م، قامت حملات فرية Ferret وجالينية Gal linier وروجيه Roger سنة 1839-1840م بالإبلاغ عن سرعة نجاح الإنجليز في تلك البلاد، وكانت هذه البعثات مقدمة لإرسال البعثة الرسمية الفرنسية برئاسة الكابتن دي فوسيه Desfosses سنة 1846م. علماً أن هذه البعثات لم تصادف النجاح في بداية أمرها⁽⁴⁸⁾.

في عام 1846م وصل فوسيه Des Fosses المنطقة وقصد بلاد الدناكل بمصوع ورأى أنها مناسبة لإقامة مستعمرة فرنسية، ودعا حكومته للإسراع في مطالبة محمد علي باشا الذي تربطه علاقات جيدة مع فرنسا بالتنازل عن مصوع، ويعتقد فوسيه بعدم ممانعة محمد علي عن التنازل عنها لفرنسا لكن كان فوسيه مخطئاً لأن محمد علي باشا في تلك الآونة كان يسعى للحصول على فرمان الوراثة في حكم مصر والمناطق التابعة لها⁽⁴⁹⁾.

لم ترتح بريطانيا للنشاط الفرنسي على سواحل البحر الأحمر لذلك طلبت شركة الهند الشرقية من هنيز⁽⁵⁰⁾ المقيم البريطاني في عدن أن يرسل ضابطاً بريطانياً إلى زيلع لإحباط محاولات الفرنسيين⁽⁵¹⁾، ولعل القلق البريطاني يعود إلى الخوف من مقدرة الفرنسيين في إقناع بعض هؤلاء الرؤساء والزعماء في التحالف معها ضد بريطانيا خاصة وأن بعضهم سعى فعلاً لكسب ود الفرنسيين⁽⁵²⁾، ولما كان المبدأ السائد هناك هو البيع لمن يدفع أكثر كان على فرنسا أن تسخر شيوخ ورؤساء المناطق في تنفيذ سياستها بمعنى أن تشتري الرؤساء وهم بدورهم يسخرون الأهالي لخدمة المصالح الفرنسية وهو ما يسميه الفرنسيون بالدعامة الخلفية أو الأدبية، وكان من السهل على فرنسا أن تشتري ولاء أمثال النجاشي وأبوبكر إبراهيم في تاجورة خاصة وأن بريطانيا كانت تناصبهم العداء الأمر الذي دفعهما للارتقاء في أحضان فرنسا.

من ناحية أخرى استمرت البعثات الاستكشافية الفرنسية في ارتياد المنطقة ومن أهم تلك البعثات في هذه الفترة، بعثة راسل Rassel في عام 1859م التي كان هدفها استكشاف سواحل البحر الأحمر الغربية وفي 28 ديسمبر 1859م أرسل تقريره إلى وزارة الجائر والمستعمرات، ذكر فيه أن خليج عادولي يمثل مرفئاً ممتازاً وصالحاً للسفن الكبيرة، أما جزيرة ديسك القريبة من الساحل فتصلح لأن تكون مركزاً عسكرياً على درجة كبيرة من الأهمية لذلك أوصى حكومته بالاستيلاء على هذين الموقعين⁽⁵³⁾.

بالنسبة لبريطانيا تابعت بحذر التحركات الفرنسية التي يمكن أن تهدد مصالحها بشكل أو آخر، لذلك عملت على قطع خط الرجعة على فرنسا ومنعها من الاستيلاء على جزيرة ديسك ليس بشكل مباشر إنما عن طريق لفت نظر الباب العالي إلى نشاط الفرنسيين في البحر الأحمر، وأشارت عليه بضرورة تأكيد حقوقه على زيلع ومصوع، وبالفعل أرسل الباب العالي ضابطاً تركياً لاحتلال عادولي وجزيرة ديسك⁽⁵⁴⁾.

الملاحظ أن بريطانيا عندما لجأت إلى هذه الخطوة لم تكن تعترف فعلياً بحقوق الباب العالي في المنطقة لأنها هي نفسها سبق وأن انتهكت حقوقه في المناطق التي احتلتها دون إذن، ومع ذلك لجأت للباب العالي للحيلولة دون أن تضع فرنسا يدها على المنطقة، وفي هذه الحالة يصبح الباب العالي في خدمة الاستراتيجية البريطانية وحماية مصالحها في المنطقة وهو الأمر الذي نجحت فيه بريطانيا آنذاك.

رابعاً: إيطاليا:

دخلت إيطاليا كطرف ثالث وحاولت هي الأخرى أن تجد لها موطئ قدم في المنطقة. بدأت إيطاليا علاقاتها بسواحل البحر الأحمر عن طريق البعثات التبشيرية الكاثوليكية برئاسة المبشر دي جاكوبي de Jacobi الذي استقر في مصوع دون أن تمنعه السلطات المصرية صاحبة السيادة من ممارسة نشاطه الديني بالمنطقة⁽⁵⁵⁾.

في عام 1866م طلبت غرفة جنوه التجارية من الحكومة أن تقوم بالاستيلاء على أحد الموانئ الإفريقية حتى يتمكن الإيطاليون من العمل تحت حماية دولتهم، وفي العام التالي تأسست الجمعية الجغرافية الإيطالية بفلورنسا، كما ظهرت الجمعية الإفريقية في نابولي وهدف الجميع الوصول إلى أفضل الطرق التجارية للاستفادة من إفريقيا خاصة وأنهم كانوا يدركون بأن أهمية البحر الأحمر ستزداد بعد فتح قناة السويس، وقامت هذه المجموعات بإجراء مجموعة من الدراسات انتهت باقتراح استغلال ميناء عصب⁽⁵⁶⁾ لإقامة محطة لتزويد السفن في رحلاتها بين جنوه والهند، ومع افتتاح قناة السويس سارعت الحكومة

الإيطالية بتخصيص ميزانية من عدة ملايين من الليرات لشراء السفن اللازمة للملاحة في البحر الأحمر في الوقت الذي كان فيه سابيتو⁽⁵⁷⁾، يفاوض الشيوخ المحليين على سواحل البحر الأحمر لشراء الأرض اللازمة لإيطاليا، لصالح شركة «روباتينو» التي كانت تعمل جاهدة لإنشاء خط ملاحى بين جنوه وبومباي، وفي 11 مارس 1870م نجح «سابيتو» في توقيع اتفاقية مع كل من عبد الله شاهين وأبناء أعمامه حسن وإبراهيم بن أحمد لشراء الأرض الواقعة بين رأس لومه وجبل «جنجا» تشمل ميناء عصب مقابل ثمانية آلاف ريال⁽⁵⁸⁾. وبعد ظهر يوم 18 مارس 1870م وصلت سفينة «سابيتو» إلى رأس دميره وتحدث سابيتو مع برهان بن محمد شيخ «رهيطه» الذي وافق على بيع جزر أم البقر ورأس الرمل في أرخبيل «الدرمكية» لمدة عشر سنوات مقابل ستمائة ريال، وبعد توقيع العقد رفع «سابيتو» العلم الإيطالي على رأس «لومه» ووضع لافتتين عند الحدود الشمالية والجنوبية للأراضي التي اشتراها كتب عليها «ملك روباتينو» بعدها عاد إلى بلاده على ظهر السفينة فيديتا Vedetta⁽⁵⁹⁾.

هكذا نلاحظ أن مسألة عصب بدأت كمشروع لأفراد، كما أن شركة «روباتينو» اعتبرت الشيوخ المحليين الذين اشترت منهم هذه الأراضي شيوخاً مستقلين وحاولت أن تعطي حقوق ملكيتها للحكومة الإيطالية ولعلّ هذا السيناريو مكرر بين مختلف الدول الاستعمارية التي تبدأ مسلسل استيلائها على الأرض بالمبشرين ثم الشركات التجارية قبل أن يؤول الأمر في النهاية إلى الدولة التي تمثل الحلقة الأخيرة في مسلسل الاستعمار. واعتقد «سابيتو» المبشر الذي تحول لمستعمر اعتقد أن عصب يمكن أن تلعب دوراً مميزاً في التجارة بين أوروبا والحبشة⁽⁶⁰⁾.

التنافس الأوروبي على البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس: أولاً: فرنسا:

كانت آمال فرنسا كبيرة في البحر الأحمر خاصة وأنها كانت تطمح في الحصول على بضعة ملايين من الأميال المربعة في شرقي السودان ووادي النيل وإثيوبيا، لذلك أرادت أن تكون لها محطة بحرية على البحر الأحمر حتى لا تقع تحت سيطرة بريطانيا في عدن خاصة إذا تأزمت الأمور بين الدولتين⁽⁶¹⁾، كما قام الفرنسيون بدور آخر في منطقة الشيخ سعيد الواقعة غرب عدن وتطل على مضيق باب المندب من ناحية الشرق، وقاموا بشرائها من الشيخ ثابت الحكمي مقابل أربعين ألف ريال، وكان الهدف إقامة وكالة فرنسية في تلك المنطقة ترعى مصالحهم في البحر الأحمر أسوةً بما فعله البريطانيون في

عدن. لكن رد الفعل البريطاني كان عنيفاً من حاكم عدن وحاكم جزيرة بريم الذي ادعى أن هذه المنطقة تابعة للحكومة العثمانية، كما أن السفير البريطاني بالأستانة أشار إلى أن السلطان العثماني هو صاحب السيادة والسلطة الشرعية في بندر الشيخ سعيد، ولعل هذه النقطة توضح بجلاء مدى النفاق البريطاني الذي طالما استغل السيادة العثمانية والمصرية لإبعاد منافسيه في الوقت الذي جعلت بريطانيا من نفسها وصياً على نفس الممتلكات لكن مما لا شك فيه أن هدف الحكومة البريطانية يتلخص في محاولة منع فرنسا من إقامة مستعمرة في الشيخ سعيد التي تجاور عدن تماماً، الأمر الذي يشكل تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية هناك. لكن في النهاية وجدت فرنسا أن الشيخ سعيد لا تصلح كميناء لأسباب فنية وتخلت عنها من تلقاء نفسها وليس رضوخاً للإدارة البريطانية⁽⁶²⁾.

غير أن المشروع الاستعماري الفرنسي مشروع البحر الأحمر- المحيط الأطلسي لم يكلل بالنجاح نتيجة لوقوف بريطانيا بقوة ضد فكرة السيطرة الفرنسية على المنطقة لأن ذلك يشكل تهديداً خطيراً لوجودها في عدن ومدخل البحر الأحمر حتى أن بريطانيا فضلت استيلاء إيطاليا الأقل قوة ومعارضة على جزء من المنطقة بدلاً من استيلاء فرنسا عليه⁽⁶³⁾.

ثانياً: إيطاليا:

فتحت قناة السويس المجال أمام الأطماع الإيطالية في البحر الأحمر واندفعت بسفن أسطولها البحري لتبحث عن مراكز لها على البحر الأحمر، وبالمقابل كانت بريطانيا بعد احتلالها لمصر في سنة 1882م حريصة على تقوية بعض العناصر على حساب العناصر الأخرى تبعاً لمطالبات المصالح البريطانية، لذلك نراها في البداية تعارض النشاط الإيطالي في المنطقة لكنها ما لبثت أن عدلت عن سياستها وبدأت تعمل على استرضاء إيطاليا خشية من التحالف الفرنسي- الحبشي الذي يمكن أن يهدد المصالح البريطانية في المنطقة⁽⁶⁴⁾.

كان للأزمات التي مرت بها مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي من العوامل القوية التي يسرت لإيطاليا تحقيق أهدافها الاستعمارية في ساحل البحر الأحمر الغربي⁽⁶⁵⁾، ففي عام 1870م أسست إيطاليا مستعمرة تجارية في عصب واتخذت منها قاعدة ومحطة لتمويل السفن الإيطالية على طول طريق الملاحة الجديد الذي يمر عبر قناة السويس، وذلك على الرغم من شمول السيادة المصرية- العثمانية على المنطقة إلا أن بريطانيا تواطأت مع إيطاليا وتبادلت معها عدداً من المذكرات الدبلوماسية واتضح من خلالها عدم معارضة بريطانيا على سيطرة إيطاليا على هذه المناطق على

الرغم من إقرار بريطانيا لعدم ملكيتها للمناطق المذكورة⁽⁶⁶⁾. في أواخر عام 1879م أرسلت الحكومة الإيطالية المبشر الإيطالي «سابيتو» إلى إقليم عصب لشراء المزيد من الأراضي بحجة استخدامها لأغراض تجارية، لذلك قام بعقد اتفاقية جديدة مع الشيخ برهان بن محمد سلطان «راجيتا»، في 30 ديسمبر 1879م احتلت بموجبها شركة «روباتينو» جزر أم البقر ورأس أم الرمل ومجموعة جزر دار مكياء. وفي 15 مارس 1885م عقد سابيتو اتفاقاً آخرًا مع الشيخ برهان الذي تنازل للإيطاليين عن الجزر الواقعة في خليج عصب، واستمرت إيطاليا في عقد اتفاقيات مع الشيوخ، وتطورت السياسة الإيطالية لاحقاً من اتفاقيات التنازل والبيع والشراء إلى عقد اتفاقيات الحماية، ففي 20 سبتمبر 1880م عقد سابيتو معاهدة حماية مع برهان بن محمد وضعته وبلاده تحت رحمة وخدمة إيطاليا، وعلى كل توضيح هذه الاتفاقيات مدى جهل هؤلاء الزعماء الذين أهدروا كل حقوقهم الوطنية مقابل المال والاحتفاظ بمقاعدهم⁽⁶⁷⁾.

استمرت إيطاليا في استكمال مستعمراتها في ساحل خليج عصب، لذلك أصدرت أمراً وزارياً في 24 ديسمبر 1880م قضى بتعيين مفوض سياسي إيطالي في عصب وتم اختيار السنيور «برانكي» لهذه المهمة ليعمل على تثبيت دعائم السيطرة الإيطالية في المنطقة، واتخذت إيطاليا من عصب مستعمرة وقاعدة عسكرية ومحطة لتمويل السفن الإيطالية على طول طريق الملاحة الجديد الذي يمر عبر قناة السويس⁽⁶⁸⁾. اختارت إيطاليا الوقت المناسب لتنفيذ سياستها التوسعية في الساحل الغربي للبحر الأحمر، فمصر كانت تعاني من مشاكل مختلفة جراء التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية، بالإضافة إلى الضغط البريطاني الذي توج باحتلال مصر وإجبارها عن الانسحاب من سواحل البحر الأحمر والسودان بحجة قيام الثورة المهدية، هذا فضلاً عن الأزمة المالية الطاحنة التي كانت تعانيها مصر مما يجعلها غير قادرة على استمرار إدارتها بتلك الأصقاع، أيضاً رأت بريطانيا أنه من مصلحتها موانئ السياسة الإيطالية في التوسع على حساب أملاك مصر في ساحل البحر الأحمر الغربي بهدف أن تكون إيطاليا حارساً لتلك البقاع⁽⁶⁹⁾.

أما مصر فقد حاولت بشتى السبل الدبلوماسية والعسكرية أن تحتج على التناول الإيطالي على ممتلكاتها، لكن انتهت مساعيها إلى الفشل خاصة وأن بريطانيا كانت تقف إلى جانب إيطاليا كما أسلفنا. لذلك استمرت إيطاليا في توطيد سلطانها بالمنطقة وعقدت اتفاقية جديدة مع سلطان عصب ورئيس الدناكل في 15 مارس 1883م⁽⁷⁰⁾، أيضاً عقدت اتفاقية مع ملك شوا حصلت

بمقتضاه إيطاليا على الكثير من المكاسب التي تشمل الامتيازات التجارية والجمركية وحرية الإقامة والعبور وتعيين الدبلوماسيين، بالإضافة إلى حماية الساحل المقابل للممتلكات الإيطالية، فضلاً عن تولي إيطاليا للشؤون الخارجية لملكة شوا⁽⁷¹⁾.

استمرت إيطاليا في التوسع حيث قام السنيور «ماتشيني» وزير الخارجية الإيطالي بإبلاغ المقيم الإيطالي في عصب بتاريخ 23 يناير 1885م بقرار الحكومة الإيطالية بإرسال حامية إلى عصب لتدعيم النفوذ الإيطالي هناك، أيضاً قررت الحكومة الإيطالية السيطرة على ميناء «بيلول» الواقع شمال عصب بعد انسحاب الحامية المصرية منه، وقامت فرقة بحرية إيطالية باحتلال الميناء في 25 يناير 1885م، وبرر سفير إيطاليا بالأستانة هذا الإجراء بضرورة وضع حد للفوضى الضاربة في «بيلول» والتي يمكن أن تهدد المستعمرة الإيطالية في عصب، وفي اليوم التالي مباشرة قام «ماتشيني» بإبلاغ ممثلي إيطاليا في كل من برلين ولندن وباريس وبطرسبرج وقينا بمبررات إيطاليا لاحتلال «بيلول» على نحو ما فعل سفيره بالأستانة⁽⁷²⁾.

مهما يكن من أمر فإن إيطاليا بعد أن ثبتت أقدامها في عصب تطلعت نحو الشمال لاحتلال مصوع بتنسيق كامل مع بريطانيا التي رأت أن احتلال إيطاليا لمصوع هو لفتة ودية منها تجاه بريطانيا⁽⁷³⁾، الأمر الذي يشير إلى مدى التناغم والتنسيق بين الدولتين الاستعماريتين لنهب الممتلكات المصرية-العثمانية. استكملت إيطاليا مخطتها بإرسال سفينتين حربيتين لاحتلال مصوع وانتزاعها بالقوة من مصر في 5 فبراير 1885م⁽⁷⁴⁾.

احتجت الحكومة المصرية على احتلال إيطاليا لمصوع، وكذلك الحال بالنسبة للباب العالي الذي اعتبر الخطوة الإيطالية تعدياً على حقوق السيادة العثمانية وانتهاكاً للفرمانات السلطانية وهدد باستخدام القوة المسلحة لطرد الطليان من مصوع، لكن في نهاية الأمر استمر نشاط إيطاليا في تأسيس مستعمرتها في كل من عصب ومصوع على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر⁽⁷⁵⁾. وفي 25 يوليو 1888م أعلنت إيطاليا سيادتها على مصوع بحجة أن إخلاء السودان وسحب القوات المصرية منه يعني تخلي مصر عن حقوق سيادتها في تلك البقاع وبذلك تصبح مصوع ملكاً مباحاً Res Nullius ولعل نظرية الحكم المباح تعتبر قفزاً على الحقوق التاريخية والقانونية التي تعلمها إيطاليا جيداً، لكن إيطاليا كانت تستند فقط على الدور الذي لعبته بريطانيا في منطقة البحر الأحمر وذلك عندما أرادت تمكين إيطاليا في عصب ومصوع لكي تضرب بها أطماع الفرنسيين هناك حتى لا يشكلوا خطراً على المصالح البريطانية في عدن وطريقها إلى الهند

عبر البحر الأحمر، في نفس الوقت تحالفت بريطانيا مع إيطاليا بموجب اتفاق تم عقده في 1887م نص على أن تقوم أي من الدولتين بتأييد الأخرى إذا قامت حرب بين إحداهما وفرنسا، ولاحقاً انضمت ألمانيا إلى هذا التحالف⁽⁷⁶⁾.

بعد أن استقر الأمر لإيطاليا في مصوع بدأت التوسع تجاه الحبشة فاحتلت العديد من المناطق بطرق مختلفة تتراوح بين استخدام القوة المسلحة، وأحياناً عن طريق البعثات العلمية والتجارية، ففي 7 يوليو 1887م عقدت اتفاقية مع سلطان الدناكل⁽⁷⁷⁾، وبعد نحو شهر واحد عقدت معه اتفاقية أخرى تكفل لها المزيد من الامتيازات⁽⁷⁸⁾.

استمرت إيطاليا في تحقيق طموحاتها التوسعية إلى أن بلغت الدبلوماسية الإيطالية أوج نجاحها في شرق إفريقيا في القرن التاسع عشر بإبرام معاهدة «أوتشالي» في 2 مايو 1889م⁽⁷⁹⁾، وذيلها الإضافي في أول أكتوبر 1889م⁽⁸⁰⁾، مع «منليك الثاني» مما أظهر الحبشة أمام الدول الأوروبية كمنطقة نفوذ إيطالية، كما دعم مركز إيطاليا السياسي في أملاكها على ساحل البحر الأحمر الغربي، وفي أول يناير 1890م أصدر ملك إيطاليا «همبرت» مرسوماً ملكياً وحد فيه الأملاك الإيطالية في ساحل البحر الأحمر الغربي في إقليم واحد أطلق عليه مستعمرة ارتريا ERITREA، كما نظم الإدارة المدنية في هذه المستعمرة، وفي 5 مايو 1894م عقدت معاهدة بين الدولتين أقرت فيه بريطانيا ما أخذته إيطاليا على حدود البحر الأحمر⁽⁸¹⁾.

ثالثاً: بريطانيا والسودان:

حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي لم تنظر بريطانيا إلى السودان كقوة مهددة لمصالحها في المنطقة، أو في الشرق الأقصى، بعد الاحتلال البريطاني لمصر في 1882م أدركت بريطانيا أن للسودان أهمية استراتيجية واقتصادية وسياسية ليس فقط بالنسبة لوضعها في مصر، فحسب بل بالنسبة لسياستها في إفريقيا والشرق الأوسط بأكمله، وهو ضروري أيضاً لاحتفاظ بريطانيا بمركزها في مصر كما عبر عن ذلك اللورد كرومر⁽⁸²⁾. وقد أوضح ونجت باشا هذا الهدف فيما بعد حين كتب يقول: (طالما أن السودان في قبضتنا فأنتنا نمسك بمقاليده الأمور في مصر لأننا نسيطر على مصادر مياهها⁽⁸³⁾).

من الناحية الاقتصادية يمثل السودان مخزناً لإمداد بريطانيا بالمواد الخام ويمكن أن يكون سوقاً طيبة للبضائع البريطانية⁽⁸⁴⁾. ويسمح كذلك لبريطانيا التحكم على السواحل الغربية للبحر الأحمر التي تطل على مصر والسودان، ويضمن الأمن اللازم لخط مواصلاتها مع الهند⁽⁸⁵⁾.

هكذا كان السودان عظيم الفائدة لمشروعات بريطانيا الاستعمارية المختلفة، لكن قيام الثورة المهدية هدد تلك المشروعات بالفشل الأمر الذي جعل بريطانيا تسعى سعياً حثيثاً للمحافظة على مصالحها الحيوية في المنطقة ومن ثم إبعاد الخطر المهدوي عنها.

بعثة ستوارت:

رغم أن بريطانيا كانت تزعم قبل هزيمة «هكس» بأنها لا تريد أن تتدخل في شؤون السودان، لكن السبل التي سلكتها بعد هذا الإعلان تتناقض بشكل كبير مع ما سبق وأن أعلنته، ولعل أول بادرة في هذا الاتجاه جاءت من خلال المذكرة التي قدمها الكولونيل تشارلس ولسن⁽⁸⁶⁾، إلى المندوب السامي البريطاني بالقاهرة «إدوارد مالت» في يوم 19 سبتمبر 1882م أي بعد الاحتلال البريطاني لمصر بقليل، وصف فيها الموقف في السودان بأنه متناهٍ في الاضطراب، واقترح ولسون إرسال ضابطين من الضباط البريطانيين إلى السودان وتكليفهما بكتابة تقرير عن حالته الراهنة وما يلزم من الوسائل لتوطيد دعائم الأمن في ربوعه⁽⁸⁷⁾. وبالفعل تم اختيار ستوارت لهذه المهمة، ووصل الخرطوم في 9 فبراير 1883م ومكث بها بعض الوقت قبل أن يغادرها في مارس 1883م عائداً إلى القاهرة عن طريق سنار، كسلا ومصوع. وكانت نتيجة هذه البعثة ذلك التقرير الذي وضعه عن السودان وهو بالخرطوم، وبعث به إلى «إدوارد مالت» وهو بدوره بعث به إلى اللورد جرانفيل في 6 مارس 1883م. وفي هذا التقرير اقترح الإصلاحات التي يرى إدخالها حتى يتسنى إقامة الحكومة النافعة والقوية في السودان، أيضاً تضمن التقرير توصيات ستوارت لمعالجة الموقف الناشئ عن قيام الثورة المهدية⁽⁸⁸⁾.

في سبتمبر 1883م تم تعيين أفلينج بيرنق «لورد كرومر» مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر وقد كان أكثر التزاماً بسياسة عدم التدخل من سلفه وحثه جرانفيل بضرورة توقي الحذر فيما يتعلق بموضوع السودان، ولكنه لم يلبث أن تراجع عندما كلف كرومر بتأييد مشروع بناء خط حديدي يربط بين سواكن وبربر⁽⁸⁹⁾.

نخلص إلى أن إعلان بريطانيا لسياسة عدم التدخل في قضية السودان، إعلان يتناقض بشكل كبير مع ما يقوم به ممثلوها في القاهرة وما يظهر في المكاتبات التي تمت مبادلتها بينهم وبين وزارة الخارجية البريطانية تحمل الدلائل التي تثبت تدخل الحكومة البريطانية في شأن السودان ومحاولاتها المستمرة لتوجيه الأمور إلى الاتجاه الذي يخدم مصالحها، ويمكن القول أن بريطانيا تفاعلت مع أحداث السودان منذ احتلالها لمصر فهي التي أرسلت

ستيوارت وأعقبته بتعيين هكس، ووضعت الحكومة البريطانية بالتنسيق مع ممثلها في القاهرة كل الترتيبات التي من شأنها خدمة مصالحها في المنطقة بالطريقة التي تراها مناسبة، فبعد هزيمة هكس أخذت السياسة البريطانية تتجه نحو مزيد من التدخل عندما أجبرت الحكومة المصرية على قبول سياسة الإخلاء واختارت غردون بعد جدل طويل كي يقوم بالتنفيذ⁽⁹⁰⁾.

السياسة البريطانية في شرق السودان :

في الوقت الذي اقترحت فيه بريطانيا سياسة الإخلاء في شمال ووسط السودان لم تشأ أن تطبق ذات السياسة على شرق السودان وسواحل البحر الأحمر بل احتفظت بها وذلك حرصاً منها على سلامة طريقها إلى الهند⁽⁹¹⁾، أيضاً قصدت بريطانيا منع عبور الثورة المهدية إلى منطقة الحجاز للحيلولة دون الاتصال المباشر بين القبائل التي تقطن على جانبي البحر الأحمر شرقاً وغرباً الأمر الذي سيكون له نتائج خطيرة على مصالحها في المنطقة⁽⁹²⁾.

عقب اشتعال الثورة المهدية في شرق السودان بقيادة عثمان دقنه⁽⁹³⁾، في عام 1883م أرسلت الحكومة البريطانية «فالتاين بيكر» إلى شرق السودان بسلطات كاملة عسكرية ومدنية على أساس أن يكسب ود القبائل في المنطقة بكافة الأساليب من إغداق النياشين والمال والوظائف وغيرها، وعهد إليه أيضاً بفتح الطريق بين سواكن وبربر وتأمينه هذا فضلاً عن القضاء على عثمان دقنه⁽⁹⁴⁾.

قاد «بيكر» قواته إلى طوكر حيث دارت بينه وبين عثمان دقنه معركة «التيب الثانية» في 4 فبراير 1884م وانتهت بهزيمة بيكر هزيمة ساحقة⁽⁹⁵⁾.

على صعيد آخر استولت الحكومة البريطانية على ميناء سواكن وعينت الأميرال هويت Hewett حاكماً عسكرياً على سواكن ولم تبلغ الخديوي نبأ هذا الاحتلال إلا بعد وقوعه، وهو أمر يتناقض بشكل كبير مع سياسة الإخلاء. فهي تتطلب من مصر إخلاء السودان في الوقت الذي تضع فيه يدها على سواحل البحر الأحمر، وعندما اعترضت تركيا على هذا الإجراء البريطاني أجابها «اللورد دفرين» سفير بريطانيا بالأستاتنة «بأن حوادث السودان أجبرت الحكومة البريطانية على اتخاذ بعض الوسائل الوقائية لحماية ثغور البحر الأحمر ولكنها عازمة عندما تعود السكينة ألا تعمل شيئاً قبل مشورة الباب العالي⁽⁹⁶⁾.

كرد فعل لهزيمة بيكر قررت الحكومة البريطانية القيام بعمل حاسم يرضى الرأي العام البريطاني بالرغم من اعتراض غردون وجلاستون على هذا الإجراء إلا أن الحكومة قررت إرسال أربعة آلاف جندي بريطاني بقيادة جراهام⁽⁹⁷⁾، للانتقام لهزيمة «بيكر» واحتلال شرق السودان بالإضافة إلى فتح طريق سواكن وبربر⁽⁹⁸⁾.

هكذا انجرفت السياسة البريطانية في تناقض واضح فالإخلاء واتباع السياسة السلمية في شمال ووسط السودان، وحروب دامية في الشرق لكن يبدو أن المصالح البريطانية كانت وراء هذا التناقض في سياستها تجاه السودان. وصلت حملة جراهام سواكن في أواخر فبراير 1884م ومنها أبهرت إلى «ترنكتات» فوصلتها في 28 فبراير 1884م وبعث جراهام يتجسس أخبار طوكر التي سلمت للأنصار منذ 24 فبراير 1884م⁽⁹⁹⁾، فقاد قواته نحو طوكر وخاض واقعة «التيب الثالثة» وانتصر فيها، قبل أن يخوض معركة «تاماي» في 13 مارس 1884م وانتهت أيضاً لصالح القوات البريطانية. لكن مع ذلك لم يستطع جراهام أن يحقق الأهداف التي أرسل من أجلها، وفي 3 إبريل 1884م عاد جراهام إلى مصر ولحقت به قواته. في 10 مايو 1884م عينت الحكومة البريطانية الماجور تشرمسيد Chermiside حاكماً على سواكن وكانت تحت قيادته قوات مصرية وإنجليزية لحماية سواكن⁽¹⁰⁰⁾.

في عام 1886م عينت السلطات البريطانية كتشنر حاكماً على سواكن وشواطئ البحر الأحمر وفي يناير 1888م قاد كتشنر حملة إلى «هندوب» مقر دقنة الذي تمكن من صد الهجوم، ولكنه هزم في ديسمبر 1888م بعدها أخذ موقف دقنة في التدهور خاصة بعد وفاة الشيخ الطاهر المجذوب الذي كان له دور بارز في تعبئة قبائل المنطقة للحرب إلى جانب المهدي لذلك عقب وفاته قررت الحكومة البريطانية القيام بعمليات عسكرية ضد عثمان دقنة، فاحتلت هندوب في يناير 1891م ثم زحفت قواتها إلى «ترنكتات» ثم إلى معسكر دقنة في «عفافيت» حيث هزمت دقنة قبل أن تحتل مدينة «طوكر» وبعدها غادر دقنه منطقة البحر الأحمر وأقام معسكره في منطقة «أدارما» على نهر عطبرة الأمر الذي أدى إلى انحسار نشاط الثورة في المنطقة التي آل أمرها للبريطانيين⁽¹⁰¹⁾.

في الخرطوم أخذ يتحرج موقف غردون إثر الحصار المفروض على المدينة من قبل أنصار المهدي، ومع تشديد الحصار وبعد الكثير من الجدل والنقاش بين البرلمان والصحافة والرأي العام والحكومة طرح البرلمان التصويت على إرسال حملة إنقاذ غردون أيدها أكثرية ساحقة⁽¹⁰²⁾، وفي 7 أغسطس 1884م قررت الحكومة البريطانية إرسال حملة إنقاذ غردون تحت قيادة ولسي وحددت أهدافها في إنقاذ غردون والمساعدة في إنقاذ الحاميات. لكن رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها الحملة في سبيل الوصول إلى الخرطوم إلا أنه مع ذلك لم تحقق المهمة التي كُلفت بها وهي إنقاذ غردون الذي قُتل على أيدي الأنصار الذين اجتاحتهم الخرطوم في 26 يناير 1885م، وعندما علمت لندن بنبأ مقتل غردون وقع الخبر وقوع الصاعقة هناك واضطرت الحكومة

أمام إلحاح الرأي العام وولسلي في طلب التعليمات المفصلة عن الخطة الواجب اتباعها بخصوص السودان⁽¹⁰³⁾، اضطرت الحكومة إلى تغيير هدف الحملة وأصدرت تعليماتها إلى ولسلي بأن مهمته الجديدة تتلخص في إنقاذ غردون لو كان حياً أو التأكد من موته ومن ثم إيقاف تقدم المهدي⁽¹⁰⁴⁾، كان رأي الحكومة البريطانية أن المخاطرة في العمليات العسكرية ليست ضرورية في ذلك الوقت، ولكنها مع ذلك أبدت استعدادها لإرسال أي إمدادات يطلبها ولسلي وذكر هارتنقتون أن هدف الحكومة البريطانية هو هزيمة المهدي في الخرطوم وعلى ولسلي أن يحدد زمن الهجوم والإمدادات التي يحتاجها⁽¹⁰⁵⁾.

هكذا قررت الحكومة البريطانية أن تتدخل بشكل سافر في السودان لكن أدى تدخل روسيا في أفغانستان إلى تجميد هذه السياسة وكتبت الحكومة البريطانية إلى ولسلي بأن تطورات المسألة الشرقية⁽¹⁰⁶⁾، حالت دون تمكن الحكومة من وضع سياسة شاملة لمستقبل سياستها في السودان⁽¹⁰⁷⁾.

نخلص إلى أن الحكومة البريطانية بالرغم من أنها حددت في البداية بأن مهمة الحملة تنحصر في إنقاذ غردون والمساعدة في إنقاذ الحاميات، إلا أن الحكومة البريطانية إثر مقتل غردون تخلت عن الأهداف المعلنة وانحازت تماماً إلى جانب التدخل في السودان وهزيمة المهدي، لكن نتيجة للتغيرات السياسية التي طرأت على الحكومة البريطانية والتي تمثلت في سقوط حكومة جلادستون وإحلال حكومة سالسبوري، بالإضافة إلى الخطر الروسي على أفغانستان، قررت الحكومة البريطانية الانسحاب، ولكن هذا القرار كان وليد ظروف معينة الأمر الذي لا يشير إلى أن بريطانيا قد تخلت عن السودان أو التدخل في شؤونه وتوجيه مساره إلى الاتجاه الذي يخدم مصالحها في المنطقة. في تاريخ لاحق تخلت بريطانيا بشكل نهائي عن سياسة عدم التدخل في السودان متعلقة بأن السودان أصبح هدفاً ومطمعاً للعديد من الدول الأوروبية الأخرى، فبعد أن فرغت من تدريب الجيش المصري، وتأكدت من ضعف الدولة المهدية بعد هزيمة قواتهم في معركة توشكي 3 أغسطس 1889 م، بدأت فعليا بإعادة احتلال السودان، واكتملت عملية الاحتلال عندما تمكنت قواتها بقيادة كتشنر من هزيمة الجيش المهدي في معركة أم درمان قبل أن تتمكن من قتل الخليفة عبد الله في معركة أم ديبكرات وبذلك انتهت عملياً دولة المهدية في السودان الذي آل أمره للمستعمر البريطاني⁽¹⁰⁸⁾. وبذلك تمكنت بريطانيا من التحكم على السواحل الغربية للبحر الأحمر التي تطل على مصر والسودان، وضمنت أمن خط مواصلاتها مع الهند فضلاً عن إحكام قبضتها على مصر من خلال السيطرة على نهر النيل بالإضافة إلى العديد من الفوائد الاقتصادية والسياسية والعسكرية وغيرها.

نخلص إلى أن منطقة البحر الأحمر ومداخله المختلفة حظيت بدرجة كبيرة من الأهمية التي تضاعفت كثيراً بعد حفر قناة السويس وافتتاحها للملاحة الأمر الذي جعل من البحر الأحمر شرياناً للملاحة العالمية، لذلك لم يكن من المستغرب أن تلتقي فيه أطماع الدول الأوروبية ففرنسا دخلت المعترك ولكنها لم تحقق نجاحات كبيرة». أما إيطاليا فقد كانت حليفاً لبريطانيا التي ساندتها بغرض تحجيم أطماع فرنسا في المنطقة، لذلك حصلت على إترتيا على الساحل الغربي للبحر الأحمر. أما بريطانيا فقد سبقت غيرها من الدول الأوروبية وسيطرت على عدن ذات الموقع الاستراتيجي المهم لمصالحها في الهند، ومنها انطلقت إلى أماكن أخرى لتضع يدها على مواقع مختلفة تتمتع بذات الأهمية كباب المندب وملحقاته والقرن الإفريقي ومصر والسودان وقناة السويس ليصبح البحر الأحمر بحيرة بريطانية.

الجدير بالذكر أن هذه الدول الأوروبية تنوعت وسائل سيطرتها بين الحروب وغيرها من أساليب الغش والخداع على السيطرة على منطقة البحر الأحمر ومداخله مستغلةً في كثير من الأحيان جهل وسذاجة الزعماء والشيوخ وافتقارهم للوعي السياسي، مع العلم أن جميع تلك المعاهدات لم تكن شرعية لأن المنطقة التي تم توزيعها بين هذه الدول كانت ملكاً للدولة العثمانية أو مصر.

البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى: الدور الاستراتيجي للبحر الأحمر:

حرصت بريطانيا للسيطرة على مداخل ومخارج البحر الأحمر حتى تتحكم وتطمئن على مصالحها في طريق مستعمراتها إلى الشرق الأقصى، لذلك اجتهدت لتكون صاحبة الكلمة العليا في منطقة البحر الأحمر متبعةً شتى الوسائل لإبعاد كل من يهددها أو يمس مصالحها في المنطقة، فعلى مستوى الدول الأوروبية تصدت للطموح الفرنسي في الوقت التي ساندت فيه إيطاليا لأنها التي لا تشكل تهديداً صريحاً لبريطانيا التي انتهجت طرق شتى بهدف المحافظة على مصالحها في منطقة البحر الأحمر الذي أصبح بحيرة بريطانية خالصة وذلك من خلال الخطوات الآتية:

أولاً: العلاقات العثمانية البريطانية:

يرى جورج لتوفسكي أن سجل علاقات بريطانيا مع الدولة العثمانية يتسم بكثير من النفاق فبينما كانت تدعي بريطانيا أن سياستها تقوم على تكامل الدولة العثمانية⁽¹⁰⁹⁾، كانت تتعاطف مع المسيحيين الذين يعيشون داخل أرضي الدولة العثمانية⁽¹¹⁰⁾، وهو أمر يتعارض ويتناقض مع سياسة بريطانيا

المعلنة تجاه الدولة العثمانية الأمر الذي يعكس منهج السياسة البريطانية في تحقيق مصالحها بشتى الطرق والوسائل التي تتناقض مع بعضها البعض. وربما كانت هناك عوامل محددة أدت إلى ذلك التحول في العلاقات العثمانية - البريطانية خاصة بعد ظهور أهمية مصر بعد افتتاح قناة السويس، ثم الاحتلال البريطاني لمصر وهو حدث عمق من أجواء العداء المشترك بين الدولتين، أعقب ذلك امتياز خط سكة حديد بغداد في 1903م وشعور البريطانيين بأن إنجاز هذا الخط يهدد المصالح البريطانية في الخليج، كل هذه العوامل مثلت بداية تحول في العلاقات العثمانية - البريطانية.

في ظل الظروف التي بدأت فيها العلاقات العثمانية - البريطانية تتجه نحو العداء أخذت الدولة العثمانية تبحث عن صديق وحليف جديد يمكن أن يعينها على القضاء على مخاوفها، ووجدت في ألمانيا ما كانت تبحث عنه وبدأ الألمان في التعاون الفعلي مع العثمانيين وقدموا لهم بعض الخدمات وتبني الألمان مسألة إعادة تنظيم الجيش العثماني في عام 1882م ثم تلت ذلك الزيارتان المشهورتان اللتان قام بهما الامبراطور الألماني غليوم الثاني إلى الدولة العثمانية في عامي 1889م و 1898م وكان لهذه الخطوات دوراً في اطمئنان السلطان العثماني الذي اعتقد بأنه وجد الحليف المناسب الذي يمكن أن يستعين به ضد الدول الأخرى وعلى رأسها بريطانيا⁽¹¹¹⁾، التي بدأت تخشى من تهديد ألمانيا لمصالحها في إفريقيا ومنطقة البحر الأحمر⁽¹¹²⁾.

بالنسبة للسلطان العثماني فقد رأى بأن ظهور ألمانيا القوية والمتطورة تجارياً وعسكرياً كفيل بالإخلال بالتوازن الأوروبي الأمر الذي يمكن أن يصب في مصلحة الدولة العثمانية.

ثانياً: العلاقات بين الدولتين في المنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى:

تظهر أبعاد العلاقة بشكل واضح في المناطق الحدودية التي تحد مناطق نفوذ كل منهما في اليمن وعدن وأطراف الجزيرة العربية. يعتبر العثمانيون الجزيرة العربية جزءاً من أملاك السلطان العثماني⁽¹¹³⁾، الأمر الذي جعلهم يرفضون وجهة النظر البريطانية التي تعتبر القبائل التسع من جنوب الجزيرة العربية منطقة مستقلة وسبق لبريطانيا أن ربطت هذه المناطق بمعاهدات منعت بموجبها هؤلاء الزعماء والشيخوخ من الاتفاق مع أي قوة خارجية إلا بعد معرفة وموافقة بريطانيا⁽¹¹⁴⁾، وكان الهدف هو إجبار الدولة العثمانية⁽¹¹⁵⁾، على تحديد الحدود، وبعد شد وجذب ونجح المفاوضات من الطرفين العثماني والبريطاني في تحديد خط الحدود الذي بلغ طوله 138 ميلاً يمتد من يافع العليا من الشمال الشرقي إلى مسافة قصيرة من الشيخ سعيد والساحل في الجنوب الغربي⁽¹¹⁶⁾.

في هذه الأثناء كانت الثورة اليمنية ضد العثمانيين في أوج اشتعالها لكن مع سيطرة العثمانيين على اليمن أمنوا طرق القوافل الأمر الذي دعم المصالح البريطانية في عدن، أيضاً كان للوجود العثماني في اليمن كبير الأثر في منع أي دولة أوروبية أخرى من احتلالها الأمر الذي يخدم ويحافظ على المصالح البريطانية في البحر الأحمر وطريق مواصلاتهم إلى الهند⁽¹¹⁷⁾.

الأوضاع القائمة في الجزيرة العربية⁽¹¹⁸⁾، قبل قيام الحرب العالمية الأولى:

ساهم الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية بقدر وافر في تفتيت وتشردم مجتمع الجزيرة العربية خاصة بعد أن أدركت بريطانيا أهمية الجزيرة العربية في تأمين طريق مواصلاتها إلى الهند، لذلك تبسط نفوذها على السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية لا سيما بعد افتتاح قناة السويس التي أصبحت صلة الوصل بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق الأقصى⁽¹¹⁹⁾.

إذاً أدى التدخل البريطاني في شؤون الجزيرة العربية إلى تفتيت وحدتها السياسية إلى جانب عوامل التفتيت الداخلية الموجودة أصلاً⁽¹²⁰⁾. الجدير بالذكر أن الأتراك الذين أداروا دفة الحكم في الدولة العثمانية بين عامي 1908 و 1909م كانوا قد استهلوا علاقاتهم بالجزيرة العربية بعملين لهما أهميتهما فيما يتعلق بسياسة البريطانيين في البحر الأحمر أولهما: افتتاح سكة حديد الحجاز رسمياً في شهر سبتمبر سنة 1908م وكان الخط قد بلغ المدينة المنورة⁽¹²¹⁾. وثانيهما: الموافقة علي عودة الشريف حسين بن علي إلى منصبه أميراً على مكة. وترجع أهمية هذين العملين إلى النتائج العملية التي ترتبت عنهما، فوصول خط سكة حديد الحجاز إلى المدينة⁽¹²²⁾، معناه تأكيد السيادة العثمانية في كل من الحجاز واليمن، كما أن تعيين الشريف حسين كان له أهميته وخطورته في نفس الوقت⁽¹²³⁾، فالاتحاديون الأتراك كانوا يطمعون في أن يصبح الشريف حسين أداة طيعة في أيديهم. لكن سارت الأحداث في اتجاه معاكس لتوقعات الأتراك خاصة بعد اتجاه الشريف حسين نحو بريطانيا لتحقيق طموحاته الشخصية⁽¹²⁴⁾.

أدى وجود زعامات محلية في الجزيرة العربية إلى تحديد الخطوط العامة لخارطتها السياسية. لكن ظلت الدولة العثمانية إلى جانب بريطانيا تمثلان القوتين الرئيسيتين في تاريخ الجزيرة العربية والساحل الشرقي للبحر الأحمر. فبينما كان الشريف حسين في الحجاز مُراقباً من خلال الحامية العثمانية الدائمة بالمدينة المنورة، كان الأمراء من آل الرشيد من حائل يعترفون بسيادة العثمانيين عليهم وكثيراً ما استنجدوا بالأتراك ضد عدوهم عبد العزيز آل سعود⁽¹²⁵⁾، الذي كان هو الآخر في عدااء دائم مع العثمانيين الذين كانت لهم

السيادة العسكرية في الإحساء إلا أنها لم تدم طويلاً، ففي ربيع 1913م انقض عبد العزيز آل سعود على الإحساء واستولى على الهفوف، ثم استولى على «القطيف» وأخرج منها الأتراك الذين كانوا يقيمون بالمنطقة لأكثر من أربعين سنة وبعدها مباشرة بدأ ابن سعود محاولاته للاتصال بالبريطانيين والاستعانة بهم على الأتراك وقام أمير الكويت بدور الوسيط بين الطرفين⁽¹²⁶⁾.

اليمن وعسير: أولاً/ اليمن:

تعددت أنظمة الحكم وتنوعت في بلاد اليمن بشكل كبير، ففي بعض المناطق كانت تحكمها الدولة العثمانية مع وجود بعض القبائل المتمردة وأهمها حزام⁽¹²⁷⁾، أما في المناطق الساحلية تتوزع السلطات بالتساوي تقريباً بين العثمانيين والإمام يحيى⁽¹²⁸⁾، ومن هنا فالسلطة المحلية المتمثلة في الإمام يحيى تستمد ثقلها على الساحة السياسية من القبائل الموالية للإمام⁽¹²⁹⁾. سعت الدولة العثمانية إلى تقوية نفوذها على اليمن⁽¹³⁰⁾، الذي طالما ألحق المتاعب بالعثمانيين عن طريق الثورات والحروب المتصلة لذلك كلفت الدولة العثمانية قائدها في اليمن أحمد عزت⁽¹³¹⁾ ومنحته صلاحيات واسعة لإقرار الأمور في الولاية، فرأى عزت باشا بما تحلت به أخلاقه من شجاعة أدبية ضرورة الاجتماع مع الإمام يحيى الزيدي للتفاوض من أجل التوصل إلى صلح، بالفعل توجه عزت باشا نحو دعان⁽¹³²⁾، وبرفقته عدد من القواد والقضاة وأصحاب الجاه، كان في استقبالهم آلاف الجنود لتحيتهم، بالمقابل كان الإمام يحيى يبذل كل الجهود الحربية والسلمية على السواء للوصول لعقد صلح مع الدولة العثمانية والتفاوض معها. إذ كان للجانبين رغبة في إقرار السلام خاصة وأن هناك عوامل أخرى لعبت دوراً في حمل الأطراف على الإسراع بعقد الصلح سنة 1911م⁽¹³³⁾. أول هذه العوامل تدخل بعض المعنيين بالأمر كوسطاء لتقريب وجهات النظر أمثال أحمد العبدلي سلطان لحج والشريف حسين الذي بذل جهداً كبيراً من أجل إقناع الإمام يحيى بالجنوح للسلام ومصالحة العثمانيين.

أما العامل الثاني الذي كان ذا أثر فعّال في الإسراع بعقد الصلح هو الهجوم الإيطالي على طرابلس الغرب⁽¹³⁴⁾، واحتلالها في وقت كانت تفتقر فيه طرابلس إلى العدد الكافي من الجنود الذين يستطيعون الدفاع عنها خاصة بعد أن سحبت الحكومة العثمانية عدة آلاف من حاميتها وأرسلتهم إلى اليمن لحرب الإمام يحيى، وكان هذا العامل من العوامل التي دفعت الباب العالي للإسراع في

عقد الصلح مع الإمام يحيى. أيضاً كان لأحمد عزت القائد التركي دور مميز في عقد الصلح فقد اتسم عزت بالحنكة الإدارية والسياسية والمهارة العسكرية إلى جانب سعة الأفق وحسن النية الأمر الذي هيا له الوصول إلى اتفاق مع الإمام يحيى تضمن عشرين بنداً توزعت خلالها الصلاحيات والمصالح بين الطرفين وأعطت كل منهما مكانته ووضعيته⁽¹³⁵⁾.

على الرغم من أن هناك العديد من الآراء حول هذا الاتفاق بين مؤيد ومعارض⁽¹³⁶⁾، إلا أن الاتفاق ساعد في استقرار أوضاع اليمن، كما وضع العلاقة بين العثمانيين والإمام يحيى في إطارها الصحيح، أيضاً حل الاتفاق القضية اليمنية وأعطى انطباعاً بأن الدولة العثمانية ترغب في حل قضايا ولاياتها النائية حتى تتفرغ لحل مشاكل أكبر، كما أن الدولة العثمانية كسبت إلى جانبها ولاء بلاد مهمة تشكل جزءاً مهماً في سياسة واستراتيجية البحر الأحمر⁽¹³⁷⁾.

على الرغم من اتفاق العثمانيين مع الإمام يحيى عام 1911م، إلا أن بريطانيا ظلت تخشى من امتداد نفوذ الإمام يحيى جنوباً حيث المناطق الحدودية الحساسة بالنسبة للبريطانيين الذين وافقوا على العرض العثماني للتصديق على اتفاقية عام 1905م⁽¹³⁸⁾، ومن جانب الدولة العثمانية فقد رأت بأن الاتفاق ضروري لمصالحها خاصة وأنها كانت محاصرة بالعديد من المشكلات الداخلية والخارجية الأمر الذي كان له أثر واضح في قبول الدولة العثمانية الدخول في مفاوضات فعلية بشأن الحدود وتم توقيع الاتفاق في 9 مارس 1914م بلندن⁽¹³⁹⁾.

ثانياً: عسير:

أما عسير⁽¹⁴⁰⁾ الواقعة غرب الجزيرة العربية والتي تمتد بين اليمن والحجاز، فقد أطلقت لفظة عسير على تهامة ونجران ليشمل كل المنطقة بين الحدود الجنوبية للحجاز، وقد قام محمد علي الإدريسي⁽¹⁴¹⁾ بانتزاعها من الأتراك وأقام عليها إمارة الأدارسة في عام 1910م، أما ساحل عسير على البحر الأحمر فإن وادي عين يقسم أراضي الإدريسي من تلك التي يسيطر عليها العثمانيون.

تميزت بلاد عسير بطبيعة جغرافية معقدة وتعدد قبائلها، لذلك كان من الصعب أن يحتفظ الحاكم بولاء تام من جميع الرعايا، ومع ذلك كان للإدريسي آمال كبيرة لتكوين دولة وتأسيس ملك مستعينا بالإيطاليين الذين كان لهم وجود في إرتريا على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر⁽¹⁴²⁾.

كانت عسير خاضعة للدولة العثمانية إلا أن علاقاتهم باليمنيين لم تكن مستقرة، صعد نجم حاكمها محمد الإدريسي وأصبح شخصية قوية اعتباراً

من 1907م، مع أن الدولة العثمانية لم تهتم لأمره مع بداية ظهوره وكذلك الحال بالنسبة للشريف حسين الذي اعتبرته طفرة سرعان ما ينتهي أمره، لكن تطور الأحداث العالمية ساعدت الإدريسي على الظهور بسبب مساندة إيطاليا له ضد الدولة العثمانية⁽¹⁴³⁾.

سبق لإيطاليا أن احتلت طرابلس في عام 1911م كما مرّ كذلك وجدت في عسير فرصتها وحرّضت الإدريسي على محاربة الأتراك وقدمت له دعمها المادي والحربي، وقام الأسطول الإيطالي بضرب الموانئ اليمنية في العام 1912م⁽¹⁴⁴⁾، ومحاصرتها حتى لا ترسل تركيا تعزيزات إلى ميناء القنفذة في الحجاز⁽¹⁴⁵⁾.

وعندما شعر الإدريسي بأن إيطاليا استنفذت أغراضها من التحالف معه بعد احتلالها لليبيا بحث عن حليف جديد لأنه يعلم سلفاً بأن تركيا لن تغفر له تحالفه مع الإيطاليين، لذلك أسرع لتلبية نداء بريطانيا في بداية الحرب العالمية الأولى. كان الإدريسي واضحاً في معاداته للأتراك وزاد حقه عليهم بعد أن فرقوا بينه وبين حليفه السابق الإمام يحيى بعد أن عقدوا معه صلح 1911م⁽¹⁴⁶⁾، وبموجبه اعترفت تركيا للإمام يحيى بمكانته شمال الهضبة اليمنية بين أتباعه الزيديين واقتنع الإمام بأن هذا الصلح سيدعم مركزه تمهيداً لأن يرث حكم الأتراك إذا ما انسحبوا من اليمن⁽¹⁴⁷⁾.

أما نفوذ العثمانيين في الساحل الجنوبي والشرقي للجزيرة العربية فقد كان ضعيفاً إذ أصبح البريطانيون أصحاب النفوذ الفعلي في هذه الجهات بفضل معاهدات الحماية التي عقدوها مع شيوخ وزعماء المنطقة وعن طريقها أصبحت بريطانيا صاحبة الحل والعقد في المنطقة على حساب النفوذ العثماني⁽¹⁴⁸⁾.

الاستراتيجية العثمانية- البريطانية في منطقة البحر الأحمر بعد إعلان الحرب:

أدى قيام الحرب العالمية الأولى إلى تأثيرات عميقة على أوضاع منطقة البحر الأحمر⁽¹⁴⁹⁾، التي أصبحت ساحة للصراع بين دول الوسط، ودول الوفاق، وكانت عدن مركز محوري ونقطة تمويل البريطانيين للانطلاق في البحر الأحمر وطريق مواصلاتهم إلى الهند، وزادت أهمية عدن الاستراتيجية أثناء فترة الحرب الأمر الذي ضاعف تشبث البريطانيين بها⁽¹⁵⁰⁾، سبق للدولة العثمانية أن عقدت مع ألمانيا معاهدة دفاعية سرية في الثاني من أغسطس 1914م، قبل أن تقوم كل من فرنسا وبريطانيا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في اليوم الثاني من نوفمبر 1914م إثر هجوم الأسطول العثماني على الموانئ الروسية، أما الدولة العثمانية بدورها فقد أعلنت الحرب على الدولتين في 3 نوفمبر 1914م، وفي نفس اليوم أعلنت انضمامها إلى ألمانيا⁽¹⁵¹⁾.

تحولت منطقة البحر الأحمر لأحد الميادين المهمة للحرب وإن انحصر فيها الصراع بالدرجة الأولى بين العثمانيين والبريطانيين، وأصبح موقف العرب ذا أهمية مباشرة للوسط للدرجة التي جعلت الألمان يعملون جاهدين لتصحيح سير العلاقة بين العرب والدولة العثمانية واضعين في الاعتبار أهمية العرب وما يمكن أن يقدموه للوسط من دعم في الحرب⁽¹⁵²⁾، أيضاً يلعب العرب نفس الدور بالنسبة لدول الوفاق ولبريطانيا على وجه التحديد، مع العلم بأن الدولة العثمانية تستطيع أن تهدد مصالح بريطانيا في كل من قناة السويس التي تمثل المدخل الشمالي للبحر الأحمر، أيضاً يستطيع العثمانيون انطلاقاً من الجزيرة العربية اتخاذ مراكز عديدة على طول سواحل البحر الأحمر لبث الأغلام التي تدمر البواخر البريطانية، ويمكنهم من هناك إرسال الرسل إلى مصر والسودان لإمداد الأهالي بالسلاح والأموال وإثارة مشاعرهم ضد دول الوفاق⁽¹⁵³⁾.

هذا فضلاً عن وجود حامية عثمانية في اليمن يمكن أن تهدد البريطانيين في عدن⁽¹⁵⁴⁾، وأكبر ما يخيف البريطانيين هو الخليفة العثماني الذي يستطيع أن يعلن الجهاد وتحويل الحجاز إلى مركز لبث الدعاية المهيجة لإثارة المسلمين داخل وخارج الجزيرة العربية، عليه فإن منطقة البحر الأحمر والجزيرة العربية كانت مسرحاً للمنافسة في المجالين الحربي والدبلوماسي والديني أثناء الحرب العالمية الأولى مما جعل كل من البريطانيين والعثمانيين يستميتان من أجل كسب ود الزعماء المحليين⁽¹⁵⁵⁾.

لا بد من ملاحظة أن النفوذ العثماني في الجزيرة العربية كان يمتد على مساحات واسعة، في حين أن بريطانيا اهتمت بالمواقع الاستراتيجية بغض النظر عن اتساعها، ولهذا يمكن القول بأن الجزيرة العربية كانت خاضعة للنفوذ العثماني أساساً، في حين كان النفوذ البريطاني لا يمثل إلا منافساً زاحفاً يحتل نقاطاً معينة لحماية خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية⁽¹⁵⁶⁾. غير أن النفوذ الفعلي للعثمانيين في الجزيرة العربية كان ضعيفاً بوجه عام⁽¹⁵⁷⁾، ومع ذلك فقد توزعت الحاميات العثمانية في أربعة فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن، أي على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وأيضاً كان يعتمد العثمانيون على تأييد الشريف حسين لتجديد البدو للقتال إلى جانبهم، أما بالنسبة للنفوذ الإدريسي في عسير فلم يكن له قيمة عسكرية في مطلع الحرب العالمية الأولى إلا في نطاق حدوده المحلية. أما الإمام يحيى في اليمن فقد أعلن حياده إلا أنه مع ذلك كان يخشاه البريطانيون، وربما شكوا في دعمه للعثمانيين للهجوم على عدن⁽¹⁵⁸⁾، أما موقف ابن الرشيد في شمر فقد كان مؤيداً للأتراك⁽¹⁵⁹⁾، أما ابن سعود في نجد فلم يكن موقفه واضحاً بدقة حتي إعلان الحرب العالمية الأولى⁽¹⁶⁰⁾.

بعد أن أعلنت الحرب بين الدولة العثمانية وبريطانيا بدأ العثمانيون في رسم خططهم بالتعاون مع حلفائهم الألمان على النحو الآتي:

أولاً: إعلان الجهاد:

أصدر شيخ الإسلام في استانبول في 17 نوفمبر 1914م فتوى أعلن فيها أن الواجب المفروض على جميع المسلمين خاصة الخاضعين لحكم بريطانيا وفرنسا وروسيا هو الجهاد ضد هذه الدول أعداء الإسلام ورفض مساعدة الحلفاء في هجومهم على الدولة العثمانية، كما أرسلت الدولة مبعوثين من قبلها إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي⁽¹⁶¹⁾، من أجل حرض المسلمين على الجهاد⁽¹⁶²⁾، وكان هدف العثمانيون أن يتأثر العالم العربي بدعوة الجهاد فينحاز أمير مكة والعرب مختارين إلى صفوفهم ضد الحلفاء⁽¹⁶³⁾، ونشر في صحف بلاد الشام بلاغاً عن الاحتفال بإخراج راية الرسول صلى الله عليه وسلم ونقلها إلى دمشق لمباركة الجيش الزاحف إلى مصر⁽¹⁶⁴⁾. أيضاً أصدر والي صنعاء منشوراً لأهالي اليمن أوضح فيه أن بريطانيا وفرنسا وروسيا قد اتفقت على تقسيم بلاد الإسلام وأن اليمن ستكون من نصيب الإنجليز⁽¹⁶⁵⁾.

وهكذا فإن إعلان الجهاد وبث شعور الرابطة الإسلامية لتلبية نداء الخليفة العثماني وهي اللبنة الأولى وحجر الزاوية في سياسة الدولة العثمانية في مطلع الحرب العالمية الأولى.

ثانياً: استكمال الاستعدادات لغزو مصر وإغلاق القناة⁽¹⁶⁶⁾:

يشير الجنرال علي فؤاد⁽¹⁶⁷⁾ أحد الأعضاء البارزين في الحملة العثمانية لغزو القناة إلى أن أساس الفكرة تم بإيحاء من المعسكر الألماني بهدف فتح مصر وبالعقد إعاقه الجيوش البريطانية التي تنقل عبر القناة من آسيا إلى الساحات الأوربية⁽¹⁶⁸⁾.

في المقابل كانت السلطات البريطانية في مصر ترصد هذه التطورات وترسل التقارير المفصلة عن هذه التحركات، حيث أفادت بعض هذه التقارير عن تجمع قوات عثمانية كبيرة في جدة لتعبر إلى القناة⁽¹⁶⁹⁾، أيضاً بدأت السلطات العثمانية في اليمن، بعض التحركات العسكرية في الحديدة، وعززت القوات العثمانية على طول خط السواحل اليمنية، ووصل إلى اليمن خلال هذه الفترة بعض ضباط أركان الحرب وقاموا بالطواف على الحدود مع بعض المشايخ، ومن ناحية أخرى أرسل أنور باشا تعليمات مشددة بضرورة إغلاق راحة البريطانيين في عدن حتى يتم منع الإمدادات القادمة من الهند إلى مصر الأمر الذي يمكن أن يساهم في نجاح حملة أحمد جمال باشا إلى مصر⁽¹⁷⁰⁾.

ويؤيد هذا ما ورد في بعض التقارير البريطانية عن إرسال العثمانيين لعدة آلاف من عرب إقليم تعز إلى حدود عدن⁽¹⁷¹⁾.

على العموم احتوت الخطط العثمانية على قدر كبير من الدقة والخطورة لأنها هدفت أساساً إلى ضرب بريطانيا في أهم نقاط تمركزها على البحر الأحمر وهي مصر والقناة عند المدخل الشمالي، وعدن عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر.

ثالثاً: تنفيذ بعض الإجراءات العسكرية في البحر الأحمر:

قام وزير البحرية العثماني بوضع موانئ البحر الأحمر تحت إشراف قنصلان البحر الأحمر حتى تسهل عملية مراقبتها، أيضاً تعهد العثمانيون بإنشاء خط حديدي بين الحديدية والمخا وصنعاء بموافقة الإمام يحيى، وبدأ العثمانيون في حصار موانئ الإدريسي «جيزان وحائل» بهدف الضغط على الإدريسي⁽¹⁷²⁾. الجدير بالذكر أن الخطط العثمانية في البحر الأحمر أعدت قبل شهور من بداية الحرب الأمر الذي يشير إلى أن السلطات العثمانية أخذت فترة كافية نسبياً في التعبئة والاستعداد قبل إعلان انضمامها إلى ألمانيا.

رابعاً: الاتصال بالعرب:

أدركت الدولة العثمانية أهمية دور العرب لتحقيق الانتصار في الحرب خاصة، ولذا قبل بداية الحرب الفعلية بقليل بذلوا جهودهم للحصول على دعم العرب ضد بريطانيا وحلفائها، ولهذا أرسلوا برسلكهم إلى مختلف أرجاء الجزيرة العربية يحملون الهدايا والعبارات المعسولة إلى أمراء العرب وزعمائهم، وأثمرت محاولاتهم مع ابن الرشيد إلا أنهم لم ينتفعوا كثيراً من الإمام يحيى الذي أعلن حياده، كما يئس الأتراك من الإدريسي قبل نشوب الحرب⁽¹⁷³⁾، أيضاً لم يخرج رسل الأتراك من ابن سعود بجديد لأنه تعلل بعدم إعطائهم وعداً قاطعاً لخوفه من أن يشن البريطانيون هجوماً على سواحله في الخليج العربي وكان هذا الرد مجرد مراوغة منه لأن هواه كان مع بريطانيا⁽¹⁷⁴⁾.

كان يأمل الأتراك في أن ينضم إليهم الشريف حسين غير أن علاقته بالأتراك كانت تتحدد برغبته الشخصية في الاستقلال⁽¹⁷⁵⁾، ربما نقطة الضعف الرئيسية في محاولة الدولة العثمانية لاستقطاب العرب هي أن العلاقة بين الطرفين شابها الكثير، ورأى بعض العرب أن بريطانيا أكثر عدلاً وصلاً من الأتراك المسلمين⁽¹⁷⁶⁾، الأمر الذي ساهم في فتور استجابة العرب للانضمام للدولة العثمانية. أما مصر فقد اتصل العثمانيون بفريد⁽¹⁷⁷⁾ بك رئيس الحزب الوطني المصري وتناقشوا معه حول خطة غزو الأراضي المصرية.

سياسة بريطانيا في المنطقة بعد إعلان الحرب:

بمجرد إعلان الحرب بين الدولتين عملت بريطانيا على مناهضة وإبطال مفعول مجهودات العثمانيين في المنطقة، ومحاولة تحقيق الانتصار بمساعدة ومعاونة العرب وفقاً للإجراءات الآتية:

أولاً: محاولة كسب الجمهور الإسلامي أو على الأقل عدم إثارة المسلمين، لذلك قامت حكومة الهند بتكليف من لندن بنشر إعلان عام بأن القوات البريطانية لن تهاجم الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية⁽¹⁷⁸⁾. أيضاً تعهدت بريطانيا بعدم إعاقة وصول المواد الغذائية إلى الأماكن المقدسة⁽¹⁷⁹⁾.

اجتهدت بريطانيا في إقناع العرب والمسلمين ببطلان إدعاءات تركيا عن الإسلام وأصدرت بياناً مطولاً تحدثت فيه عن علمانية الحزب الاتحادي، وعن ممارساته التي لا تمت للإسلام بصلة، كما تحدثت عن تعاطفها مع المسلمين وعن بناء المساجد والمدارس والخلوي⁽¹⁸⁰⁾، كذلك تحدثت عن صداقتها الدائمة للعرب وسعيها للوقوف معهم حتى تتحقق أمانهم. لم تكتف بريطانيا بذلك بل شنت حملة دعائية مضادة ضد الألمان حلفاء تركيا ونشرت وثائق ألمانية تبين مقاومة الألمان لنشر الدين الإسلامي في إفريقيا الشرقية⁽¹⁸¹⁾.

على الرغم من أن بريطانيا لم تكن صادقة تماماً في كل ما ذهب إلىه من أقوال وأفعال، لكن مع ذلك صادفت حملتها ضد الألمان والعثمانيين نجاحاً كبيراً عندما توالى رسائل التأييد لبريطانيا من الشيوخ والزعماء⁽¹⁸²⁾، الأمر الذي يوضح نجاح بريطانيا في إحباط الحملة المشتركة لتركيا وألمانيا.

ثانياً: الاتصال بالعرب:

سبق لبريطانيا أن تلقت اتصالات من بعض المصادر العربية إلا أنها حرصت على عدم البت فيها إلا مع بداية الحرب، ففي 24 أغسطس 1914م أرسل تشيتمام برقيه إلى لندن بشأن نشاطات عزيز علي المصري في القاهرة إلا أن السلطات البريطانية أمرت بتجميد نشاطاته مؤقتاً، وعلى كل كان يسعى عزيز المصري إلى معرفة موقف الحكومة البريطانية في حال طالب العرب بدولة مستقلة عن الدولة العثمانية⁽¹⁸³⁾. أيضاً في 31 أكتوبر 1914م أرسل وزير الدولة البريطاني إلى نائب الملك في الهند يخبره بأن قادة الرابطة العربية Pan-Arab في القاهرة أرسلوا مبعوثيهم إلى مختلف الأقاليم العربية، وسيقوم هؤلاء بزيارة المقيم البريطاني في الكويت للتباحث معه، واقترح تشيتمام على وزير خارجية بلاده أن تقوم بريطانيا بإمداد القيادات العربية بالسلاح والمال⁽¹⁸⁴⁾.

وعندما أعلنت الحرب العالمية صدرت التعليمات للسلطات البريطانية بمصر في 14 نوفمبر 1914م بتشجيع الحركة العربية بأي طريقة ممكنة وتقديم الضمانات اللازمة لها، لأن دعم هذه الحركة يعتبر نقطة ارتكاز أساسية في سياسة بريطانيا بالمنطقة خلال هذه الفترة⁽¹⁸⁵⁾.

استمرت الجهود البريطانية في المنطقة العربية من خلال الاتصال بزعماء المنطقة ومحاولة كسبهم إلى جانبها، لذلك اتصلت في المرحلة التالية بكل من الإدريسي وابن سعود والشريف حسين على التوالي⁽¹⁸⁶⁾.

كان محمد الإدريسي أول من لبي دعوة البريطانيين فحالفهم في 30 إبريل 1915م⁽¹⁸⁷⁾، ثم تلاه في ذلك ابن سعود الذي عقد معهم معاهدة في ديسمبر 1915م، أما الشريف حسين فقد كان ثالث الأمراء العرب الذين تحالفوا مع البريطانيين من خلال المحادثات والمراسلات المعروفة في التاريخ بمحادثات «الشريف حسين-مكماهون» والتي انتهت بموافقته على إعلان الثورة العربية ضد الأتراك وهو ما حدث بالفعل في يناير 1916م⁽¹⁸⁸⁾.

كان تحالف البريطانيين مع الشريف حسين الأكثر فعالية، وذلك نظراً لما يتمتع به المذكور من مكانة مرموقة بين العرب الذين اعتبروه زعيماً للنضال العربي ضد الاستبداد العثماني⁽¹⁸⁹⁾.

بالعودة إلى النقطة الجوهرية في علاقات بريطانيا المتناقضة مع حلفائها العرب يمكن القول: أن بريطانيا استفادت من الأوضاع التي كانت ماثلة أمام كل من الشريف حسين وابن سعود، فالأول: كان يسعى لتكوين دولة مستقلة عن الأتراك ويحتاج إلى من يساعده في تحقيق هدفه، والثاني كان يسعى إلى تثبيت ملكه وسط مجموعة من الأعداء والمنافسين، كما كان يخشى كذلك من مخاطر الحرب العالمية على مستقبل إمارته الناشئة لذلك وافق على معاهدة بريطانيا التي كانت تسيطر على منافذه البحرية.

مهما يكن من أمر فإن بريطانيا قد ضمنت جانب كل من الشريف حسين وابن سعود وجعلت من نفسها قاسماً مشتركاً بينهما، ولكن كان عليها أن تجد حلاً لما وقعت فيه من تناقض خاصة بعد اعتراف البريطانيين بالشريف حسين ملكاً على الحجاز في وقت كان يصر فيه الشريف حسين بأنه ملك لكل العرب⁽¹⁹⁰⁾.

أدركت بريطانيا ضرورة أن تجعل من نفسها حافظاً للتوازن بين القوتين لأن مصالحها تقتضي ذلك، فهي لا تؤيد عبد العزيز بن سعود في حربه ضد الشريف حسين زعيم الثورة العربية التي ستعمل على تصفية الوجود التركي في الجزيرة العربية، وتريد لعبد العزيز بن سعود بأن يوجه قوته لابن الرشيد حليف الأتراك في المنطقة، وبالتالي يصبح كل منهما في خدمة بريطانيا التي تسعى للانتصار في الحرب وبعدها ستتركهما لتصفية حساباتهما العالقة.

ثالثاً: حماية مصر وقناة السويس والمناطق المهمة:

تمثل قناة السويس المجال الحيوي لحماية طريق مواصلات بريطانيا إلى الهند وتثبيت مركز بريطانيا في مصر لذلك رأى تشييتهم ضرورة تحصين القناة بجلب قوات بريطانية من مالطة والهند لصد أي هجوم عثماني محتمل⁽¹⁹¹⁾، أيضاً قامت السلطات البريطانية بوضع استراتيجية دفاعية

معقدة لحماية بورتسودان وسواكن من أي هجوم محتمل يمكن أن تشنه قوات الوسط. هذا إلى جانب السيطرة على فنارات البحر الأحمر. أيضاً عينت السلطات البريطانية الجنرال جون ماكسويل⁽¹⁹²⁾ كي يقوم بكل الاحتياطات والخطط الدفاعية اللازمة لحماية قناة السويس من أي هجوم بري أو بحري، أو محاولة تخريب أي جزء من القناة، وقامت السلطات العسكرية البريطانية في مصر بسحب الرعايا البريطانيين من شبه جزيرة سيناء إلى الداخل بعد أن قامت بردم كل آبار المياه في المنطقة⁽¹⁹³⁾.

الجدير بالذكر أن هذه الإجراءات والاحتياطات البريطانية اتخذت وفقاً لمعلومات صحيحة جمعتها الاستخبارات البريطانية عن الدولة العثمانية التي تسعى لضرب بريطانيا في مقتل من خلال محاولة الاستيلاء على مصر وقناة السويس التي تمثل شرياناً حيوياً للحلفاء بشكل عام ولبريطانيا على وجه التحديد.

رابعاً: تحديد نوعية العمليات الحربية ضد العثمانيين في البحر الأحمر:

بعد مناقشات مطولة بين رجال البحرية البريطانية والخارجية البريطانية تم الاتفاق على حصر نطاق العمليات على محاصرة البحر الأحمر ومنع إمداد الحاميات العثمانية عبره⁽¹⁹⁴⁾، ورأت السلطات العسكرية البريطانية ضرورة السيطرة على جزر فرسان ذات الموقع الحيوي دون مناقشة الإدريسي الذي تتبع له هذه الجزر. أيضاً تم الاتفاق بين السلطات البريطانية على تكوين دوريتين بريطانيتين في البحر الأحمر، الأولى من جده إلى السويس، والثانية من جدة إلى عدن لتقوم بالمهام الآتية:

1. إيقاف الإمدادات للحاميات والموانئ العثمانية كالحديدة والمخا والliche.
 2. منع الدولة العثمانية من زرع الألغام في البحر الأحمر.
 3. إيقاف إرسال مبعوثين لمصر أو السودان.
 4. تأمين الاتصال البريطاني بأمرأء ومشايخ العرب من الجزيرة العربية.
 5. تم السماح عند الضرورة بتوجيه بعض العمليات ضد القوات العثمانية في البحر واعتبار جدة وينبع مدناً خارجة عن نطاق الأماكن المقدسة، وهذا يخالف تعهد سابق لبريطانيا بعدم الاعتداء على جدة باعتبارها تتبع للأراضي المقدسة⁽¹⁹⁵⁾.
- خامساً: رصد تحركات ألمانيا ومنع تعاونها مع الدولة العثمانية، ونلاحظ أن هنالك العديد من الوثائق التي تناولت هذه الناحية لأن بريطانيا كانت تدرك جيداً مدى خطورة الأطماع الألمانية على بريطانيا وحلفائها في المنطقة⁽¹⁹⁶⁾.

إذا توقفنا عند الإجراءات والسياسات التي اتبعتها كل من بريطانيا والدولة العثمانية بالمنطقة بعد إعلان الحرب بينهما، نلاحظ أن هناك الكثير من التشابه على الأقل في شكل الإجراءات المتبعة خلال الفترة المذكورة، لكن

اختلفت نتائج النجاح التي مالت لصالح بريطانيا التي أفلحت في إجهاض محاولات العثمانيين لتقوية نفوذهم، وربما تفوقت بريطانيا على الدولة العثمانية في بعض النقاط، فعلى سبيل المثال اعتمدت بريطانيا على تقوية نفوذها على أسطول قوي واقتصاد كبير، وكثير من الذكاء والخبث، في وقت كانت تعاني فيه الدولة العثمانية من مشاكل الشيخوخة، كما أنها فقدت الكثير من رعاياها خاصة العرب، أيضاً اعتمدت بريطانيا في إصدار قراراتها على التشاور وإبداء الرأي بين جميع الذين يعينهم الأمر، بينما اعتمدت الدولة العثمانية على مركزية السلطة التي انحصرت في عدد محدود من الأفراد، لذلك كانت كثير من قراراتهم غير صائبة الأمر الذي ساهم بقدر كبير من الفشل والإخفاق الذي لازم الدولة العثمانية خلال هذه الفترة.

المعارك العسكرية بين البريطانيين والعثمانيين في منطقة البحر الأحمر: أولاً: العمليات الحربية في شمال وجنوب اليمن:

أمرت بريطانيا الإديسي بمهاجمة ميناء اللحية والاستيلاء عليه بمساعدة الأسطول البريطاني من البحر، رد العثمانيون بمهاجمة قوات الإديسي في دير حسين وانتصروا عليهم لكنهم لم يتمكنوا من استعادة ميناء اللحية إلا أنهم مع ذلك حققوا عدداً من الانتصارات على قوات الإديسي التي كانت بعيدة نسبياً عن البحر الأحمر⁽¹⁹⁷⁾، لكن مع ذلك تراجعت الأعمال الحربية في شمال اليمن بين العثمانيين والإديسي، واستمرت بريطانيا في إمداد الإديسي بالمساعدات التي حددتها معاهدة 30 إبريل 1915م⁽¹⁹⁸⁾. أيضاً عقدت بريطانيا مع الإديسي معاهدة ثانية في 22 يناير 1917م اعترفت فيها بريطانيا باستقلال الإديسي في جميع ممتلكاته بما في ذلك جزيرة فرسان⁽¹⁹⁹⁾.

ثانياً: العمليات الحربية في جنوب اليمن:

سبق بأن قامت بريطانيا بفرض حصار بحري على السواحل اليمنية وسواحل الحجاز بغرض شل القوات العثمانية هناك ومنعها من المساهمة في حرب الحلفاء بالميادين الأخرى، وعلاوة على ذلك كان لاتفاقية بريطانيا مع ابن سعود، دور في تشديد الحصار على العثمانيين في الحجاز واليمن، ثم اكتملت دائرة الحصار بإشتعال الثورة العربية بقيادة الشريف حسين، وبذلك تم قطع الطريق الصحراوي الوحيد الذي كان يربط بين الحجاز واليمن، ولذلك اتجه العثمانيون بكامل استعداداتهم لمهاجمة لحج ومحاولة غزو عدن بهدف ضرب البريطانيين في المناطق البرية البعيدة عن الساحل حيث تضعف نسبياً جيوشهم. كان الهدف من هذه العملية هو فك الحصار عن اليمن، وأهم من ذلك محاولة احتلال عدن وجزيرة بريم وكلتيهما تشرفان على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، ويعتبر

هذا الهجوم جزءاً من خطة الوسط التي تهدف إلى مهاجمة البريطانيين في مصر والاستيلاء على قناة السويس وقطع الشريان الحيوي في خطوط مواصلاتها الامبراطورية إلى الهند والشرق عبر البحر الأحمر⁽²⁰⁰⁾.

على الرغم من صعوبة تنفيذ ونجاح الخطة العثمانية للاستيلاء على عدن المحصنة، لكن كان في الإمكان أن يشغل العثمانيون البريطانيين بالدفاع عن عدن عن إرسال قواتهم إلى مصر وقناة السويس وهو نفس الأسلوب الذي اتبعته بريطانيا مع العثمانيين في الجزيرة العربية مع اختلاف نسب النجاح لصالح بريطانيا مقارنة مع نجاح الدولة العثمانية في جنوب الجزيرة العربية. أدركت بريطانيا من جانبها خطورة مهاجمة العثمانيين لعدن والمحميات التسع، لذلك عملت على إرهابهم لإيقاف زحفهم على عدن، وأمرت قواتها في 10 نوفمبر 1914م بضرب منطقة الشيخ سعيد⁽²⁰¹⁾، وتدمير الآبار والحصون والمستودعات العثمانية فيها، غير أن العثمانيين عاودوا زحفهم واحتلوا الشيخ سعيد وتوجهت قواتهم إلى لحج واحتلوها دون مقاومة تذكر، كان سلطان لحج وبعض أفراد عائلته من ضمن الضحايا وتركت بريطانيا سلطان لحج وبلاده يقعان فريسة في أيدي العثمانيين رغم تعهداتها بحمايته من أي عدوان⁽²⁰²⁾، ونتيجة لذلك فقدت بريطانيا الآلاف من حلفائها من قبائل الحواشب، واليوافع، والصبيحة، الذين انضموا للعثمانيين طوعاً وكرهاً حتى يتفادوا المصير الذي آلت إليه سلطنة لحج وسلطانها بسبب عدم وفاء بريطانيا بتعهداتها لهم بحمايتهم.

تحصل العثمانيون وحلفاؤهم من رجال القبائل اليمنية على الكثير من الغنائم والأسلاب، كما ساهمت لحج بما تملك من موارد في تخفيف الحصار البريطاني على الحاميات التركية في اليمن.

لكن مع ذلك تمكن البريطانيون من استرجاع الشيخ عثمان في 21 إبريل 1915م بعد أن وصلت إلى عدن نجده عسكرية بريطانية من مصر وأخرى فرنسية من مدغشقر، ويوضح هذا أهمية عدن بالنسبة لبريطانيا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى⁽²⁰³⁾.

كان استرجاع الشيخ سعيد آخر العمليات الحربية المهمة بين البريطانيين والعثمانيين عدا المناوشات بين الحين والآخر وقد استمرت الأوضاع على هذا النحو في جنوب اليمن بأكمله حتى إعلان الهدنة العامة في عام 1918م⁽²⁰⁴⁾.

ثالثاً: المشروع العثماني لفتح مصر وقناة السويس:

الهجوم العثماني على مصر والقناة كان أحد الخطط الرئيسية في استراتيجية الدولة العثمانية وحليفها ألمانيا الأمر الذي حتم على بريطانيا سحب رعاياها من سيناء إلى داخل مصر التي اتخذتها قاعدة عسكرية لتجميع

القوات البرية والبحرية، واستخدمت بريطانيا كل موانئ مصر الشمالية والشرقية كقواعد لتجميع بحري كبير بقصد تطهير البحرين المتوسط والأحمر من سفن ألمانيا وتركيا، وتجمعت للحلفاء في مصر⁽²⁰⁵⁾، جيوش من خمسة وعشرين بلداً في فترة الحرب وهو أكبر تجمع متعدد في تاريخ مصر، ومثلت هذه القوات عبئاً ثقيلاً على مجتمع واقتصاد مصر التي أجبرتها بريطانيا على وضع كل مواردها البشرية الطبيعية والاقتصادية في خدمة الحلفاء الذين سخروا مليون عامل مصري في خدمتهم ومات الكثير منهم بسبب المعارك⁽²⁰⁶⁾، كما أنها وضعت الجيش المصري نفسه في الصفوف الأولى للدفاع عن مصر وقناة السويس⁽²⁰⁷⁾. اهتمت المخابرات البريطانية بتوفير المعلومات الكافية عن الحملة العثمانية التي تولى جمال باشا وزير البحرية قيادتها إلى جانب عدد آخر من الضباط العثمانيين والألمان، وذكرت بعض التقارير البريطانية أن الخديوي عباس حلمي الثاني «المخلوع» قد اشترك في هذه الحملة إلا أن هذه التقارير لم تكن دقيقة⁽²⁰⁸⁾.

تجمع عدد كبير من القوات في سوريا من شتى ولايات الدولة العثمانية⁽²⁰⁹⁾، ووضع الضباط الأتراك والألمان الخطط العسكرية المفصلة لعملية الهجوم ونقل الجنود والسلاح وتحديد طرق المواصلات، وكان من ضمن الخطة الاتصال بالسفوسيين في برقة غرب مصر ليقوموا بالهجوم على مصر من الغرب بالتزامن مع الهجوم الرئيس للقوات العثمانية من الشرق⁽²¹⁰⁾، في محاولة لخلق أكبر قدر من الإرباك لقوات الحلفاء المدافعة عن مصر والقناة في نفس الوقت تتم إثارة رعايا السلطان في مصر⁽²¹¹⁾.

راقبت بريطانيا التحركات العثمانية عن كثب، ونجحت في جمع حوالي سبعين ألف جندي من البريطانيين والحلفاء والرعايا، إلى جانب حوالي عشرين ألف جندي من القوات المصرية والسودانية⁽²¹²⁾، وكانت طائراتها تقوم بعمليات الاستطلاع اللازمة لاستكشافات ورصد تحركات الجيش المهاجم⁽²¹³⁾، يضاف إلى ذلك حفر الخنادق على طول جبهة الضفة الغربية للقناة، فضلاً عن تمركز عدد من السفن البريطانية والفرنسية في النقاط المهمة للقناة⁽²¹⁴⁾، وهذا يعني أن البريطانيين اختاروا خطة الدفاع السلبي بمعنى التحصن حول القناة دون القيام بالدفاع الإيجابي الذي يعني التقدم لمواجهة القوات المهاجمة في سيناء خارج القناة⁽²¹⁵⁾.

بحلول 15 يناير 1915م عزز الأتراك قواتهم في سيناء والعريش والقسيمة، وفي أول فبراير بدأ الأتراك هجومهم الرئيس بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة، وبلغ عدد القوات المهاجمة حوالي خمسة عشر ألف جندي بمساندة مختلف

الأسلحة، وتصدت لهم القوات المصرية والبريطانية والفرنسية المدافعة عن القناة واستمرت الاشتباكات دون نصر حاسم لأحد الطرفين حتى انسحاب الأتراك شرقاً إلى عمق سيناء، الأمر⁽²¹⁶⁾ الذي يشير إلى إخفاقهم في تحقيق الهدف الرئيس من هذا الهجوم وتعود أسباب الإخفاق إلى العوامل الآتية:

- أن قيادة الجيش العثماني كانت تدرك قوة الاستحكامات الانجليزية على القناة الأمر الذي أدخل الشك إلى نفوسهم بصعوبة الانتصار.
- تأخر عملية العبور عن الوقت المحدد.
- كان الجيش العثماني منهكاً بسبب قطعه لمسافة طويلة في صحراء جرداء قاحلة.
- كان لطائرات الاستكشاف دور مميز في نقل وكشف كل تحركات العثمانيين، كما أن هجوم السنوسي لم يتزامن مع الهجوم العثماني.
- فارق التسليح كان لصالح البريطانيين.

بعد إخفاق العثمانيين الأول لم يهدأ لهم بال وأخذوا في الإعداد لهجوم ثانٍ على مصر والقناة وحاولوا بقدر الإمكان الاستفادة من الأخطاء وأوجه القصور في الخطة الأولى، كما أن الألمان والنمساويين أمدوا العثمانيين بطائرات الاستطلاع إلى جانب بطاريات ميدان لتكون عاملاً مساعداً للعثمانيين في الهجوم الثاني الذي تولى قيادته الضابط الألماني فون فوكس Phone Fox⁽²¹⁷⁾. أما بريطانيا فقد عينت ارشيبالد موراي⁽²¹⁸⁾، Archibald Murray قائداً عاماً لقوات الحلفاء المدافعة عن مصر والقناة، وشرع موراي في تغيير خطط الدفاع السلبي إلى الإيجابي، بمعنى تأسيس الدفاعات عن القناة في داخل سيناء بدلاً عن الدفاع من داخل القناة، إلى جانب ذلك عملت بريطانيا على إعاقة العثمانيين من خلال تحريك رعاياهم العرب للثورة ضدهم⁽²¹⁹⁾.

بدأ العثمانيون هجومهم الثاني في 24 يوليو 1916م ولكن كان لدفاعات الانجليز خارج القناة دور حاسم في إحباط الهجوم العثماني على الرغم من نجاح القائد الألماني كريس في الانسحاب إلى العريش، ولكن لم يتحقق لدول الوسط الأمل الكبير بإغلاق القناة والسيطرة على وادي النيل بعد القضاء على الوجود البريطاني هناك⁽²²⁰⁾، ويُرجع جمال باشا سبب الإخفاق الثاني إلى تمركز البريطانيين في سيناء بدلاً عن القناة، إلى جانب قيام الثورة العربية التي كانت ضربة قاضية لحملة العثمانيين، هذا فضلاً عن هجوم الروس على أرضروم في آسيا الصغرى في فبراير 1916م والذي أدى إلى تشتيت جهود الأتراك بين الدفاع والهجوم⁽²²¹⁾.

نخلص إلى أن النجاح البريطاني في الدفاع عن القناة يعود بالدرجة الأولى إلى الأهمية القصوى للقناة بالنسبة لهم، لذلك وفروا كل الإمكانيات المتاحة

للدفاع عنها إلى جانب وضع الخطط الدقيقة والمدروسة التي كان لها دور في النجاح. أما العثمانيون فقد كانت تنقصهم المعلومات الضرورية لوضع خطه كاملة، فضلاً عن محدودية إمكانياتهم العسكرية إلى جانب قيام الثورة العربية التي كانت هي الأخرى مخططاً بريطانياً ناجحاً لإعاقة الخطط العثمانية. بعد ذلك تحول موقف العثمانيين من الهجوم إلى الدفاع⁽²²²⁾.

يمكن القول بأن فشل العثمانيين في الاستيلاء على قناة السويس في ظل المشكلات التي تزامنت مع الحملة الثانية تمثل نقطة تحول كبرى في مصير المعارك التي انتهت جميعها لصالح بريطانيا وحلفائها وفي نفس الوقت كانت مقدمة لخروج العثمانيين من كل المنطقة العربية.

رابعاً: الثورة العربية:

تمثل الثورة العربية عشية قيامها نقطة تحول مهمة في الصراع حول البحر الأحمر، وعول البريطانيون كثيراً على دور العرب في هذه الحرب مستغلين طموحهم في الاستقلال عن الدولة العثمانية⁽²²³⁾، لذلك عملت بريطانيا جاهدة على استمالة العرب إلى صفها وتقويض مساعي تركيا لنفس الغرض، ونجحت بريطانيا في التوصل إلى معاهدات مع كثير من الزعماء العرب، كما توصلت إلى اتفاق غير مكتوب مع الشريف حسين الذي وافق على القيام بالثورة مقابل الاعتراف به ملكاً على العرب وتكوين دولة مستقلة متضمنة الولايات العربية التي سيتم تحريرها من العثمانيين، وقامت بريطانيا بتوفير كل ما يحتاجه الشريف حسين من أموال وسلاح ومواد تموينية تم ترحيلها من مصر والسودان عبر البحر الأحمر⁽²²⁴⁾، ومع اكتمال الاستعدادات من الجانبين أخذت بريطانيا تتحين الفرصة المناسبة لتحريك الشريف حسين، وعندما أخفقت بريطانيا في حملة الدردنيل التي تلاها هجوم العثمانيين الأول على القناة، خشيت بريطانيا على مستقبلها في مصر⁽²²⁵⁾، وحتى تخرج من هذا المأزق حركت الشريف حسين للقيام بالثورة قبيل الهجوم العثماني الثاني على القناة، وكانت بريطانيا تأمل أن تؤدي ثورة الحجاز إلى إجبار الدولة العثمانية على حجز جزء من قواتها العسكرية في البلاد العربية بعيداً عن جبهات القتال الرئيسية، إلى جانب عزل القوات التركية في الشام عن القوات الموجودة في اليمن وعسير، فضلاً عن الحيلولة دون تهديد ألمانيا لعدن، يضاف إلى ذلك إفساد دعاية الجهاد التركية بانضمام منطقة الحجاز إلى دول الوفاق⁽²²⁶⁾.

أعلن الشريف حسين الثورة على الدولة العثمانية في 5 يونيو 1916م في معسكر خارج المدينة المنورة، ثم أعلنت في مكة المكرمة في العاشر من يونيو 1916م⁽²²⁷⁾، وعزز حركته بمنشور أذاعه على الشعب العربي اتهم

فيه الاتحاديين بالخروج على الشريعة الإسلامية، أعقب ذلك إعلان الثورة في باقي مدن الحجاز: كالتائف، وجدة، التي كان توجد بالقرب منها قطع من الأسطول البريطاني لمساندة العرب⁽²²⁸⁾.

بعد إعلان الثورة أصبح من السهل على البريطانيين إرسال الأسلحة والمواد التموينية للعرب الذين نجحوا في تحقيق الانتصار على القوات العثمانية بالتائف في 10 أغسطس 1916م، كما قاموا بقطع الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة وأصبح من الصعب على العثمانيين إرسال أي إمدادات إلى جيوشهم المحاصرة في الحجاز⁽²²⁹⁾.

واستطاعت القوات العربية الثائرة في أقل من ثلاثة أشهر الاستيلاء على جميع مدن الحجاز الكبرى باستثناء المدينة المنورة التي حاصرتها قوات الشريف حسين وقطعت إمدادات المياه عن قوات العثمانيين لفترة من الوقت قبل أن تتراجع عن هذا القرار وتعيد فتح المياه مجدداً بحكم الأخوة الدينية وقُدسية المدينة، لكن استمرت قوات الشريف في محاصرة القوات العثمانية بالمدينة المنورة حتى استسلامها في نهاية الحرب العالمية الأولى⁽²³⁰⁾، وبعد هذا النجاح تمت مبايعة الشريف حسين ملكاً للعرب في ديسمبر 1916م، ثم تقدمت قوات الثورة العربية واحتلت ينبع، ثم زحفت شمالاً واحتلت العقبة في 6 مايو 1917م⁽²³¹⁾، قبل أن تتقدم شمالاً لتحارب قوات العثمانيين في منطقة شرق الأردن مقدمة مساعدة قيمة لقوات البريطانيين⁽²³²⁾، التي احتلت القدس في 9 ديسمبر 1917 بقيادة اللورد ألنبي، وكان احتلال الثوار العرب لمنطقة شرق عمان قد حمى ميمنة القوات البريطانية في فلسطين من هجمات العثمانيين كما حمى خطوط مواصلاتها الطويلة، ثم تقدمت القوات العربية إلى سوريا وتمكنت من احتلال مدينة تلو الأخرى إلى أن تم طرد العثمانيين من سوريا بعد أربعة قرون من الحكم⁽²³³⁾.

بنظرة عامة لمجمل الأحوال في الجزيرة العربية مع نهاية الحرب العالمية الأولى نلاحظ بقاء الأحوال في جنوب الجزيرة العربية هادئة بين العثمانيين في لحج والبريطانيين في عدن، بينما بقى الإمام يحيى في وسط اليمن متمسكاً بالحياد وإن كان قريباً من الأتراك حيث كان يقرضهم الأموال ويمدهم ببعض ما يحتاجونه من مواد تموينية، أما الإدريسي في عسير بشمال اليمن ظل يتلقى المعونة والمساعدات العسكرية من البريطانيين الذين كان أسطولهم يحاصر سواحل اليمن ويقدم الدعم العسكري للإدريسي ضد العثمانيين⁽²³⁴⁾.

الخلاصة:

- جاءت أهمية البحر الأحمر نتيجة لمجموعة من العوامل المتداخلة بالإضافة إلى مجموعة من الحقائق القديمة والمتغيرات الحديثة، الأمر الذي جعل من البحر الأحمر بؤرة تنافس بين مختلف القوى من أجل السيطرة والاستحواذ عليه، كما أن البحر الأحمر يمثل مفتاح السيطرة والتحكم في حركة الملاحة البحرية والتجارب العسكرية، ومن خلاله يمكن فرض السيطرة على نقاط الاتصال بين مختلف الدول العربية، والإفريقية، والآسيوية التي تشاطئ البحر الأحمر.
- كانت البرتغال الدولة الأوروبية الأولى في العصر الحديث التي قامت باحتلال قواعد مهمة عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر الأمر الذي استدعى الدولة العثمانية للتحرك من أجل التصدي للخطر البرتغالي ومنعهم من التقدم داخل البحر الأحمر، وقام العثمانيون بالعديد من الخطوات والإجراءات التي مكنتهم من إبعاد الخطر البرتغالي عن المنطقة.
- على الرغم من أن الدولة العثمانية قد بذلت جهداً كبيراً للحفاظ على البحر الأحمر بحيرة عثمانية، إلا أن بريطانيا التي كانت تحتل الهند مثلت تهديداً مباشراً للدولة العثمانية عندما احتلت عدن في عام 1839م واتخذتها محطة في طريق مواصلاتها إلى الهند، كما أنها نجحت في وضع يدها على كثير من المواقع والجزر ذات المواقع الاستراتيجية المهمة، بغرض التحكم والسيطرة على الملاحة في جنوب البحر الأحمر، والمحافظة على طريق مواصلاتها إلى الهند مفتوحاً وآمناً. وانتهجت بريطانيا وسائل مختلفة: سياسية، ودبلوماسية، وغيرها من أجل تحقيق أطماعها في المنطقة.
- سعت فرنسا لتجد لها موطئ قدم في منطقة جنوب البحر الأحمر، وانتهجت ذات الوسائل التي سبق وأن انتهجتها بريطانيا، وعلى الرغم من نجاحها في عقد عدد من الاتفاقيات مع شيوخ ورؤساء القبائل، إلا أن نجاحها كان محدوداً بسبب بريطانيا التي اجتهدت في إجهاض المساعي الفرنسية بحجة أن المنطقة تتبع للدولة العثمانية، غير أن السبب الحقيقي وراء وقوف بريطانيا ضد فكرة السيطرة الفرنسية على المنطقة لأن ذلك يشكل تهديداً خطيراً لوجودها في عدن ومدخل البحر الأحمر.
- حاولت إيطاليا أن تسلك الطريق نفسه الذي سلكته كل من بريطانيا وفرنسا، ونجحت بمساعدة بريطانيا في الاستيلاء على مصوع وعصب.
- تضاعفت أهمية البحر الأحمر كثيراً بعد حفر قناة السويس وافتتاحها للملاحة الأمر الذي جعل من البحر الأحمر شرياناً للملاحة العالمية، لذلك لم يكن من المستغرب أن تلتقي فيه أطماع الدول الأوروبية. ففرنسا دخلت المعترك ولكنها

لم تحقق نجاحات كبيرة. أما إيطاليا فقد كانت حليفاً لبريطانيا التي ساندتها بغرض تحجيم أطماع فرنسا في المنطقة، لذلك حصلت على إترتيا على الساحل الغربي للبحر الأحمر. أما بريطانيا فقد سبقت غيرها من الدول الأوروبية انطلقت من عدن إلى أماكن أخرى لتضع يدها على مواقع مختلفة تتمتع بذات الأهمية كباب المندب وملحقاته ومصر والسودان وقناة السويس ليصبح البحر الأحمر بحيرة بريطانية.

- لجدير بالذكر أن وسائل وأساليب الدول الأوروبية للسيطرة تباينت بين الحروب والغش والخداع للسيطرة على منطقة البحر الأحمر ومدخله مستغلة في كثير من الأحيان جهل وسذاجة الزعماء والشيوخ وافتنارهم للوعي السياسي، مع العلم أن جميع تلك المعاهدات لم تكن شرعية لأن المنطقة التي تم توزيعها بين هذه الدول كانت ملكاً للدولة العثمانية أو مصر.

- مع إعلان الحرب العالمية الأولى أصبح البحر الأحمر والجزيرة العربية ساحة للصراع العثماني البريطاني وحرصت كل دولة على اتخاذ الخطوات الدبلوماسية والحربية لكسب المعركة، وأصبح العرب يلعبون دوراً محورياً في استراتيجية كل الأطراف.

- من أهم الخطوات التي اتخذتها الدولة العثمانية لكسب المعركة: إعلان الجهاد ودعوة المسلمين للاتحاد ضد من أسمتهم بأعداء الدين وأكدت سعي بريطانيا إلى تدمير الدولة الإسلامية وتقسيمها بين حلفائها. كما بدأت الدولة العثمانية تخطط لضرب بريطانيا في أهم نقاط تمركزها على البحر الأحمر وهي مصر وقناة السويس عند المدخل الشمالي، وعدن عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، أيضاً عملت الدولة العثمانية على جذب العرب إلى جانبها لكن كان نجاحها محدوداً.

- أما بريطانيا فقد ارتكزت سياستها على محاولة إجهاد المساعي العثمانية من خلال محاولة كسب الجهود الإسلامية والاتصال بعدد من زعماء العرب وتوقيع اتفاقيات معهم، أيضاً عملت بريطانيا على تأمين وتحسين قناة السويس وعدد من الموانئ المهمة، فضلاً عن تسيير دوريات بحرية بين جدة والسويس وجده وعدن. ومن خلال هذه الإجراءات نجحت بريطانيا إلى حد كبير في إجهاد الاستراتيجية العثمانية لمعركة البحر الأحمر.

- عند اشتعال الحرب العالمية الأولى ركزت بريطانيا على حصار القوات العثمانية في اليمن إلى جانب إمداد الإدريسي بما يحتاجه من مال وعتاد لمحاربة العثمانيين، وبالفعل جرت بعض المعارك المحدودة بينه وبين القوات العثمانية التي ركزت عملياتها جنوباً عندما هاجمت «لحج» واستولت عليها وهددت عدن

بشكل مباشر وتمثل هذه العمليات تطبيق لاستراتيجية المحور لمنع بريطانيا من إرسال أي قوات إلى مصر، لكن لم تتطور العمليات الحربية في جنوب اليمن إلى أكثر من هذا الحد حتى إعلان الهدنة العامة عام 1918 م .

- من أبرز العمليات الحربية التي قامت بها الدولة العثمانية بمعاونة ألمانيا هي الهجوم على قناة السويس في 15 يناير 1910م، وهجوم ثان في 24/ يوليو 1916م وكلاهما لم يكتب له النجاح بسبب الخطط البريطانية المدروسة التي أفشلت المحاولات العثمانية التي كانت تنقصها المعلومات الضرورية لوضع خطه متكاملة إلى جانب محدودية الإمكانيات العسكرية للعثمانيين فضلاً عن اشتعال الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين في الخامس من يوليو 1916م ونجحت الثورة في إخراج العثمانيين من الحجاز والشام، وقدمت خدمة كبيرة للبريطانيين في كل من الجزيرة العربية، والشام، ومنطقة البحر الأحمر وبالتالي أصبحت بريطانيا الرابع الأكبر في منطقة البحر الأحمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

المصادر والمراجع:-

- (1) عبد المتعال حمزة حسن محمد صالح، أمن البحر الأحمر وتأثيره على الأمن القومي العربي، رسالة ماجستير، جامعة الزعيم الأزهرى، 2003م، ص 22.
- (2) إبراهيم محمد حسن، البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى -1914-1918م، ط1، القاهرة، 1998م، ص9.
- (3) ولد نابليون بونابرت في أغسطس 1769م بجزيرة كورسيكا، ألحقه والده بمدرسة سان سير العسكرية حيث أظهر تفوقاً لافتاً، تخرج في سنة 1785م وعيّن برتبة ملازم أول في سلاح المدفعية، وساهم في تعزيز حكومة الإدارة، وفي سنة 1798م غزا مصر بغرض ضرب بريطانيا في الهند، وفي سنة 1799م قام بعزل حكومة الإدارة وأنشأ حكومة مؤلفة من ثلاثة قناصل وتقلد هو منصب القنصل الأول ليصبح امبراطوراً بعد خمس سنوات، حيث أصبحت لفرنسا مكانة مرموقة في أوروبا بعد انتصارها في الحروب النابليونية، شكل الغزو الفرنسي لروسيا سنة 1812م نقطة تحول في خطط بونابرت حيث لحقت أضراراً جسيمة بالجيش الفرنسي، وفي سنة 1813م هزمت القوات الفرنسية في معركة الأمم وأجبر نابليون على التنازل عن العرش، وتم نفيه إلى جزيرة ألبا، لكنه هرب من منفاه وحاول مقاومة الحلفاء واستعادة مجده لكن هزم في معركة «واترلو» خلال شهر يونيو 1815م واستسلم نابليون للبريطانيين الذين نفوه إلى جزيرة القديس هيلانة المستعمرة البريطانية حيث أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته وتوفى في 5 مايو 1821م، مخلفاً وراءه الكثير من الجدل حول السبب الحقيقي لوفاة، انظر الموسوعة الحرة/ 21 فبراير 2014م.
- (4) محمد سعيد باشا 1822-1863م: الابن الرابع لمحمد علي باشا، تلقى تعليمه في باريس بفرنسا لذلك كان ذا نزعة غربية، حكم مصر من 24 يوليو 1854م حتى وفاته في 18 يناير 1863م، شهد عهده إنجاز العديد من المشروعات التي كان أهمها تأسيس البنك المصري، وإعطاء فرديناند دي لسبس الموافقة على حفر قناة السويس، كما قام بتخفيض الضرائب على الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى إتمام خط سكة حديد القاهرة- الإسكندرية، كما اهتم بالملاحة، وقام ببعض الإصلاحات الإدارية، ولكن تراجع التعليم في عهده بشكل متعمد عندما قام بإغلاق المدارس العليا في البلاد، خاضت مصر في عهده حربين، حرب القرم التي انتصرت فيها الدولة العثمانية على الروس عام 1856م، وحرب المكسيك حينما أمد نابليون الثالث بقوة حربية مصرية لمعاونة الجيش الفرنسي. توفى محمد سعيد باشا في 18 يناير 1863م وخلفه على الحكم إسماعيل باشا، انظر الموسوعة الحرة/ 5 فبراير 2014م.
- (5) عبد المتعال حمزة حسن محمد صالح، مرجع سابق، ص22.
- (6) إبراهيم محمد حسن، مرجع سابق، ص9.
- (7) منال حسن مختار، صراع القوى الكبرى في البحر الأحمر -1945-1973م، رسالة دكتوراه، جامعة الزعيم الأزهرى، الخرطوم، 2007م، ص38.
- (8) الخليج العربي هو ذراع مائي لبحر العرب يمتد من خليج عمان جنوباً حتى شط العرب شمالاً بطول 965 كيلومتر، تبلغ مساحته نحو 233,100 كيلومتر، ويتراوح عرضه بين 370-55 كيلومتراً ولا يتجاوز عمقه 90 متراً إلا في بعض الأماكن، يفصل الخليج العربي شبه الجزيرة العربية عن غرب إيران التي تطلق عليه الخليج الفارسي، وتطل على الخليج العربي ثمانى دول هي العراق والكويت

والسعودية وقطر والإمارات وعمان وإيران، كما تحيط مياه الخليج العربي بدولة البحرين، ويتميز الخليج العربي بأهمية اقتصادية كبرى، فضلاً عن أهميته السياسية والاستراتيجية. انظر:

The Encyclopedia American International edition, Volume 21, p751

(9) القرن الإفريقي هو ذلك الرأس النائي من اليابسة الناطح للبحر الأحمر على شكل قرن في منطقة تسمى «جورا دافوري» ومن ثم أطلق مسمى القرن الإفريقي على المنطقة الشمالية التي تشمل الصومال وجيبوتي وإرتريا، ويمثل مدخلاً لوسط وجنوب القارة الإفريقية من ناحية الشرق، ويمثل أهمية استراتيجية في كونه يطل على الجزء الصالح للملاحة في مضيق باب المندب وخليج عدن، كما أنه يمثل ملتقى للحضارتين العربية والإفريقية، أيضاً يشرف على أربعة منافذ بحرية وهي البحر الأحمر، خليج عدن، المحيط الهندي وقناة موزمبيق ونظراً لهذه الأهمية أصبح القرن الإفريقي محط صراع بين القوى الكبرى.

(10) صلاح الدين حافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، الكويت، 1982م، ص 75.

(11) عبد المتعال حمزة حسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 25.

(12) إسماعيل ياغي، تاريخ العالم العربي الحديث، ط1، مكتبة العبيكات، الرياض، 1997م، ص 20-21.

(13) محمد عثمان أبو بكر يونس، الصومال وطناً وشعباً، طباعة ونشر دار النهضة العربية، القاهرة، 1998م، ص 203.

(14) عبد اللطيف بن محمد الحميد، البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى -1914 1918م، ط1، الرياض، 1994م، ص 15.

(15) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيف البستاني، ط8، دار الفارابي للنشر، بيروت، 1985م، ص 33.

(16) جلال يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقيا، دار المعارف، القاهرة، 1967، ص 12.

(17) فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة العربية، القاهرة، 1986 ص 20-21.

(18) سليمان باشا الخادم سياسي وقائد عسكري عثماني، عين واليا مصر في الفترة من 1525-1538م، في عام 1539م أرسل إلى اليمن في حملة عثمانية لفتحها من أجل صدّ الخطر البرتغالي عن المنطقة واستطاع الخادم السيطرة على عدن وجعل منها قاعدة عسكرية، عين سليمان باشا صدراً أعظماً في الفترة من 1541-1544م، توفي عام 1547م، انظر: Andrew James, Military History of Modern Egypt From The Ottoman Conquest to Ramadan War, P 30

(19) تقع عدن على الساحل الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وهي عبارة عن شبه جزيرة صخرية تتصل بالبر ببرزخ رملي مستطيل الشكل يبلغ طوله 7 كيلومترات، وهي منطقة قاحلة وغير صالحة للزراعة، تحتوي عدن على عدة أقسام وقرى أهمها الشيخ عثمان وبئر جابر.

(20) ميناء جدة هو واحد من الموانئ المهمة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، تضاعفت أهميته بعد افتتاح قناة السويس، عول عليه العثمانيون كثيراً في المحافظة على البحر الأحمر والمقدسات الإسلامية، وأصبح له دور كبير في التجارة الخارجية للسعودية.

- (21) إبراهيم محمد حسن، المرجع السابق، ص 38.
- (22) تقع سواكن بين خط عرض 19.5 شمالاً وخط طول 37.5 درجة شرقاً، وهي مدينة سودانية تقع في شمال شرق السودان على الساحل الغربي للبحر الأحمر. وتبعد عن الخرطوم العاصمة حوالي 642 كم غرباً. وعن مدينة بورتسودان بـ 54 كم، وهي تضم منطقة أثرية تاريخية، وكانت ميناء السودان الرئيس قبل إنشاء ميناء بورتسودان.
- مرت سواكن بحقب مختلفة من التقدم والتدهور وتعاقب عليها حكام كثر منذ فجر التاريخ مروراً بالعصور الإسلامية ثم العثمانيين، وأخيراً البريطانيين قبل استقلال السودان. كانت سواكن في الأصل جزيرة ثم توسعت إلى الساحل وما جاورها. وأصبحت مدينة تضم الجزيرة والساحل.
- وقد بنيت المدينة القديمة فوق جزيرة مرجانية وتحولت منازلها اليوم إلى مجرد إطلال.
- <http://or.wikipedia.org/wiki/suakin>
- (23) إسماعيل ياغي، تاريخ العالم العربي الحديث، المرجع السابق، ص 51 - 52.
- (24) عثمان فاروق أباطة، الحكم العثماني في اليمن، المرجع السابق، ص 33.
- (25) السلطان سليم الأول 1470 - 1520 م، هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية وأول من حمل لقب أمير المؤمنين من آل عثمان، حكم الدولة العثمانية من 1512 - 1520 م، وفي عهده تحولت الفتوحات من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي حيث بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساعها، توفي سليم الأول في عام 1520 م، انظر: مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص 88.
- (26) إسماعيل ياغي، تاريخ العالم العربي الحديث، المرجع السابق، ص 43.
- (27) ولد محمد علي باشا في مدينة قونية بمقدونيا شمال اليونان عام 1769 م لأسرة البانية، وهو مؤسس مصر الحديثة وحاكمها ما بين عامي 1805 - 1848 م، استطاع أن يعتلي عرش مصر عام 1805 م بعد أن بايعه أعيان البلاد، ومكنه ذكاؤه واستغلاله للظروف المحيطة من أن يستمر في حكم مصر لفترة طويلة. خاض محمد علي في بداية فترة حكمه حرباً داخلية ضد المماليك والبريطانيين إلى أن خضعت له مصر تماماً، ثم خاض حروباً بالوكالة عن الدولة العثمانية في الجزيرة العربية ضد الوهابيين، وضد الثوار اليونانيين في المورة، كما وسع دولته جنوباً بضمه للسودان، قبل أن يتحول لمهاجمة الدولة العثمانية عندما حارب جيوشها في الشام والأناضول، وكان على وشك إسقاطها لولا تدخل الدول الغربية التي أرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها إلى ملكه. خلال فترة حكم محمد علي استطاع أن ينهض بمصر عسكرياً، وتعليمياً، وصناعياً، وزراعياً، وتجارياً الأمر الذي جعل من مصر دولة ذات شأن في تلك الفترة. انظر: عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم عصر محمد علي باشا، ج3، دار الفكر الحديث، لبنان، ص 229-228، انظر: مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص 46.
- (28) ينتمي الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى أسرة تدعى آل مشرف وهي فرع من آل وهبة أحد بطون قبيلة تميم المشهورة، واشتهرت أسرته بالعلم الديني وكان والده الشيخ عبد الوهاب من العلماء وكان قاضياً للعيينة، حفظ الشيخ محمد القرآن = في مطلع عمره، وقرأ على أبيه كثيراً من الكتب في العلوم الإسلامية، ثم أخذ يطوف في البلاد ليلتقي بالعلماء وليأخذ عنهم، فذهب إلى مكة حاجاً

وطالباً للعلم، كما سار إلى المدينة حيث جلس في حلقة الشيخ عبد الله بن إبراهيم ، كما أخذ العلم عن العلامة محمد المدني ، ثم ذهب إلى البصرة وقرأ على الشيخ محمد المجموعي وامتدت رحلاته العلمية فشملت بغداد وكردستان وهمزان وأصفهان حيث درس فلسفة الإشراق والتصوف ثم رحل إلى قم حيث التقى بعلمائها وعندما كان الشيخ في البصرة أحس أنه أصبح على درجة من العلم يستطيع بها أن يتكلم وأن يعطي بعد أن أخذ كثيراً ، فبدأ يجهر ناقداً الضلال الذي يراه هنا وهناك ، غادر الشيخ البصرة حيث استكمل جولاته ، ثم هبط إلى نجد ونزل في الإحساء على الشيخ عبد الله بن محمد الشافعي، ثم رحل إلى بلدة حريملة حيث بدأ يتدارس مع أبيه علوم الدين ويجهر بضرورة تغير الحال المنحرف في تلك البقاع ، وتوفي والده سنة 1153هـ (1740م) فأصبحت التبعية الفكرية ملقاة على الشيخ محمد، من حريملة اتجه إلى العيينة ومنها إلى الدرعية حيث استقبله رئيسها محمد بن سعود وبدأ تحالف بين آل سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي واصل دعوته إصلاحية حتى وفاته في القعدة 1206هـ (1792م)

(29) رأفت غنيمي الشيخ، مصر والسودان في العلاقات الدولية، مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية، د ت، ص 9.

(30) ميناء القصير :ميناء بحري في محافظة البحر الأحمر بمصر وهو واحد من أكبر موانئ البحر

الأحمر، ويعتبر من الموانئ التاريخية القديمة منذ أيام الفراعنة، ويتمتع بأهمية استراتيجية وحربية.

(31) السبب الرئيس في إبرام هذه المعاهدة هو رغبة البريطانيين في إخراج الفرنسيين من مصر، وتعطيل مشروعات فرنسا في الشرق، وضمنت بريطانيا للدولة العثمانية إرجاع مصر للدولة العثمانية بعد هزيمة وطرد الفرنسيين.

(32) إسماعيل ياغي، تاريخ العالم العربي الحديث، المرجع السابق 237.

(33) جلال يحيى، مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، 1984م، ص 77.

(34) سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد 1791-1856م: ولد في محافظة سمائل حوالي 1791م، تولى مقاليد الحكم عام 1806م، واتسع النفوذ العماني في عهده من بني عباس علي ضفاف الخليج العربي إلى ميناء زنجبار على الساحل الشرقي لأفريقيا، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية وتعايشت الأجناس تعايشاً حسناً، اعتمد السلطان سعيد على تنمية حرية التجارة مع مختلف الشعوب دون تمييز وبني أسطولاً تجارياً ضخماً تسانده قوة بحرية فتيه توطيداً للعلاقات التجارية مع كل من الصين، وشرق آسيا، والهند، وسيلان، وإيران، وغيرها من الدول، كما أنه أبرم اتفاقية مع الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1833م، كما عقد اتفاقيات مع 22 دولة، وكان يعامل الدول بمبدأ المعاملة بالمثل ونأى بنفسه عن التورط في المشاكل الدولية ، أيضاً كانت له علاقات متينة مع شركة الهند الشرقية البريطانية، وعلى كل يعتبر الباحثين فترة حكمه الفترة الذهبية لعمان. توفي سنة 1856م على متن سفينه فيكتوريا أثناء رحلته من عمان إلى زنجبار ودفن في زنجبار. انظر: س . ب مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983م، ص 353-352.

(35) تشمل المشيخات: سلطنة لحج، سلطنة الحوشبي، سلطنة يافع، سلطنة العوزلي، مشيخة الصبيحة، سلطنة الفضل، مشيخة العقربي، ومشيخة العولقي.

- (36) آمال إبراهيم محمد، الصراع الدولي حول البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ط1، لبنان، بيروت، 1993م ص94.
- (37) فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في اليمن، المرجع السابق، ص 87.
- (38) علي الصراف، اليمن الجنوبي الحياة السياسية من الاستعمار إلى الوحدة، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1992م، ص33.
- (39) السلطان سليم الثالث: 1761-1808م، هو أحد خلفاء الدولة العثمانية تولى الحكم في 1789م في وقت كانت تعاني فيه الدولة العثمانية من العديد من المشكلات الداخلية والحروب الخارجية مع النمسا وروسيا، وفي عهده كذلك احتل الفرنسيين مصر عام 1799م، لكن بعد هدوء الحروب انصرف إلى الإصلاحات الداخلية على كافة الأصعدة واهتم بالتعليم ونشر العلم والحداثة، لكنه تعرض إلى تسلط رجال الدين والإنكشارية وانتهى الأمر بعزلة وخلفه علي السلطنة مصطفى الرابع، انظر: سليم الثالث- Marefa.org/index
- (40) الحركة الوهابية: ظهرت هذه الدعوة بالجزيرة العربية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي في مجتمع بسيط غير معقد علي يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أدرك ما كان عليه قومه من الضلال وتفشي البدع وما كانت عليه بلاده من حالات الفوضى والانحلال، لذلك عقد العزم على انتهاج منهج السلف الصالح بالدعوة إلى تطهير الإسلام وإنقاذ المسلمين من الضلال لذلك دعا إلى الرجوع إلى تعاليم الدين الإسلامي الحنيف والعودة إلى نصوص كتاب الله المجيد وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والسير على طريقة السلف الصالح وتوحيد كلمة المسلمين على صعيد واحد، والابتعاد عن تأويلات المتلبسين بلباس أهل الدين وظل يدعو رغم الصعوبات والتحديات التي واجهته حتى وفاته في عام 1792م.
- (41) رأفت غنيمي الشيخ، المرجع السابق، ص 33.
- (42) إبراهيم محمد حسن، المرجع السابق، ص 40.
- (43) عبد العزيز الشناوي وجلال يحيى، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، المكتبة التاريخية، دار المعارف، 1969م، وثيقة رقم 9، مجموعة 3.
- (44) رأفت غنيمي الشيخ، المرجع السابق، ص 20.
- (45) تبلغ مساحة جزيرة بريم 7 كم2، سبق للبريطانيين أن احتلوا جزيرة بريم عام 1799م أثناء الحملة الفرنسية على مصر كخطوة لحصار فرنسا في مصر ومنعها من التقدم إلى الهند لكنهم انسحبوا منها إلى عدن بسبب رداءة مناخها الذي لا يتلاءم مع البريطانيين، كما أن مياهها ضحلة وتنطوي الملاحه فيها على خطورة كبيرة جداً، لاحقاً بني فيها البريطانيون فناً يبلغ ارتفاعه 90 قدماً، وبعد افتتاح قناة السويس بدأت السفن تمر بكثرة في مضيقها ليلاً ونهاراً دون خوف من الشعب المرجانية.
- (46) علي الصراف، مرجع سابق، ص 27.
- (47) Document No. 1, Treaty Great Britain and Shoa , Efat and the Galla, 16th November, text in Sir Edward Hartslet vo1,op cit, p2.
- (48) جلال يحيى، مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية، مرجع سابق، ص 79.

- (49) إسماعيل ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكات، الرياض، 1996م، ص 132.
- (50) هينز: ضابط بالبحرية البريطانية ويمثل العقل المدبر في احتلال عدن؛ حيث أرسلته حكومته إلى عدن عام 1835م لمعرفة مدى صلاحية عدن كقاعدة بحرية بريطانية، وكتب تقرير دعا حكومته من خلاله إلى ضرورة احتلال عدن. أصبح هينز أول مقيم سياسي بريطاني في عدن وطبق سياسة «فرّق تسد» من أجل السيطرة على عدن، أيضاً استخدم اليهود في المنطقة عيوناً له على العرب، كذلك قام هينز بعقد كثير من المعاهدات مع شيوخ وزعماء المنطقة، وفي نفس الوقت قضى على المقاومة المحلية التي ناهضت الاحتلال البريطاني، ويعود إلى هينز الفضل في توطيد دعائم الاحتلال البريطاني لعدن، انظر:
- www.adenal mnarh.com
- (51) علي الصراف، مرجع سابق، ص 27، أيضاً انظر جلال يحيى، مرجع سابق، ص 88.
- (52) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م، ص 340.
- (53) آمال إبراهيم محمد، مرجع سابق، ص 136.
- (54) جلال يحيى، مصر الإفريقية والأطماع الاستعمارية، مرجع سابق، ص 95.
- (55) نفس المرجع، ص 109.
- (56) عصب: مدينة إرترية على الساحل الغربي للبحر الأحمر بالقرب من باب المندب، وتتميز بموقع استراتيجي مهم، كانت جزء من سلطنة أوسا العفرية، وعندما بدأ يتعاظم النفوذ الإيطالي في منطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر، أصبحت عصب مستعمرة إيطالية، و لاحقاً أصبحت الميناء الرئيسي لإثيوبيا إبان احتلالها لإرتريا.
- (57) سابيتو (1811-1895م) أب كاثوليكي ومستشرق إيطالي، انتسب إلى جماعة سان لازار، وزار مناطق البحر الأحمر وإقليم البوغوص، وعاش لدى قبائل الحباب وعرف البلاد جيداً، كما عرف ما يمكن لبلاده أن تستفيد منه، ويعتبر من الإيطاليين الذين ساهموا بقدر كبير في أن تجد إيطاليا لها مستعمرات في شرق أفريقيا.
- (58) محمد عثمان أبوبكر، مرجع سابق، ص 225.
- (59) جلال يحيى، مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية، مرجع سابق، ص 116.
- (60) محمد عثمان أبوبكر، مرجع سابق، ص 227.
- (61) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، مرجع سابق، ص 459.
- (62) نفس المرجع، ص 462.
- (63) آمال إبراهيم محمد، مرجع سابق، ص 157.
- (64) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، مرجع سابق، ص 512.
- (65) السيد حسين جلال، قناة السويس والاستعمار الأوربي 1883 - 1904م، القاهرة، 1995م، ص 355.
- (66) آمال إبراهيم محمد، مرجع سابق، ص 169.

- (67) نفس المرجع، ص171.
- (68) محمد عبد المنعم يونس، الصومال وطناً وشعباً، القاهرة، 1998م ، المرجع السابق، ص50.
- (69) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص518.
- (70) Document No. 5, Treaty Between The Italian Government and the Sultan of Assab Mohamed hanfari Chief of the Danakils, Signed at Kadeli Gubo, 15th march 1883. text in Edward Hertslet, Vol 1, p 5.
- (71) Document NO.6, Treaty Between Show and Italy in 21the may 1883, text in Edward Hertslet Vol 1. P 6- 7.
- (72) Document No.17 , General act of the Conference of Berlin ,26th feb1885 ,text in Edward Hertslet ,Vol 1,pp20_23.
- (73) آمال إبراهيم محمد، مرجع سابق، ص181.
- (74) محمد عبد المنعم يونس، مرجع سابق، ص 50، أيضاً انظر: Edward Hertselt, Vol 1, Op Cit, p8.
- (75) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، مرجع سابق، ص520.
- (76) نفس المرجع، ص 523.
- (77) Document NO. 8,Convention between the Sultan of Aussa “ Danakils” and Italy, 7th July 1887, Text in Edward Hertslet, Vol 1, p8.
- (78) Document No.9,Convention Between the sultan of Danakils and Italy ,10th August 1887, Text in Edward Hertslet,Vol1,p9.
- (79) Edward Hertslet, Vol 11, Op Cit , p12. (79)
- (80) I bid, p13. (80)
- (81) Edward Hertslet, vol 11, Op Cit, p669.
- (82) بيرنق أفلين - لورد كرومر الأول (-1841 1917م) تخرج عام 1855م من مدرسة ووليك الحربية وشغل أول منصب له جزر (أيونيا) بدأ عمله الدبلوماسي في (كورفو) وفي عام 1872 رافق (نورث بروك) إلى الهند كسكرتير خاص له ، وفي عام 1877م عين ممثلاً لبريطانيا في (Cossec de Delta)، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر أوكلت له مهمة الإصلاح الداخلي في سبتمبر 1883م، وأصبح منذ ذلك الحين المسؤول الفعلي عن السياسة المصرية فقام بدور رئيسي في معالجة مشكلة السودان بعد هزيمة هكس في نوفمبر 1883م شغل منصب مندوب بريطانيا في مصر حتى عام 1908م .
- (83) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث 1820-1955م. شركة الأمل للطباعة والنشر، الخرطوم بدون تاريخ، ص 215 .
- (84) Abbas Abraham .M. The Britsh Debate on the Containment of the Sudanese Mahdist Revolution Nov 83. Feb 1885. P 20.
- (85) لبيب رزق، السودان في عهد الحكم الثنائي الأول 1899- 1924 رسالة دكتوراه ، جامعه عين شمس 1967م ، ص26.

- (86) ولسون جارلس (1838 - 1905 م) ضابط بريطاني، التحق بسلاح المهندسين في عام 1855، شارك مع القوات البريطانية التي احتلت مصر عام 1882م، عمل رئيس لقسم المخابرات في الحملة التي حاولت إنقاذ غوردون 1884-1885م ، في عام 1885 ألف كتاباً سرد فيه قصة طابور الصحراء.
- (87) جلال يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقيا، المرجع السابق ، ص 52 .
- (88) نفس المرجع ، ص 314.
- (89) جرانييل إلي بيرنق، نمرة 247 ، 13/10/1884م P . R . O , F O 78 /3551 ,
- (90) In (Mekki Shibeika , British Policy In The Sudan)
- (91) جلال يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقيا، المرجع السابق ، ص 183 .
- (92) Abbas Ibrahim, OP Cit. P 33⁽¹⁾
- (93) عثمان أبو بكر دقنة (1840 - 1926م) أمير أمراء المهديية ينحدر من أصل كردي ، أرسل جده من قبل السلطان سليم في 1518م لاحتلال سواكن حيث تزوج من قبيلة البشاريين وهي إحدى قبائل البجا، ولد عثمان دقنة في روين Rouen . كانت أسرته تعمل بالتجارة عبر البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية. في 1877م تعطلت أعمالها التجارية بسبب الرقابة التي كان يفرضها الأسطول البريطاني، تأثر عثمان دقنة بأحمد عرابي وحاول أن يخلق اضطراباً في سواكن الأمر الذي أدى إلى إبعاده، سافر إلى بربر فعمل وسيط تجاري، بعد قيام الثورة المهديية انضم إلى المهدي وبايعه بالأبيض في مطلع عام 1883م . عينه المهدي أميراً كلفه بإشعال الثورة في شرق السودان، وعند عودته إلى الشرق حاصر حامية سواكن في عام 1883م، أحرز انتصار على كتيبة من الجنود البريطانيين والمصريين في معركة التيب، وضرب الحصار على طوكر، في مطلع 1884م ألحقت قواته هزيمة ساحقة بفالنتاين بيكر في معركة التيب الثانية، لكنه هزم على يد القوات البريطانية بقيادة جراهام في تاماي، في 1885م حارب القوات البريطانية في معركتي الهشيم وتوفرك. استدعاه الخليفة عبد الله إلى أم درمان، في عام 1891م استعاد هولت سميث طوكر وتراجع عثمان دقنة إلى أدارما على نهر عطبرة، شارك في معركتي عطبرة وأم درمان. بعد هزيمة الأنصار في كرري انسحب عثمان دقنة إلى تلال البحر الأحمر، في 1900م اعتقلته القوات البريطانية وتنقل بين عدة سجون كان آخرها سجن وادي حلفا في 1908م، في 1924م سمح له بأداء فريضة الحج، توفي بسجن وادي حلفا 1926م بعد عمر طويل حافل بالأعمال البطولية.
- (94) عبد المحمود أبو شامة، من أبا إلي تسلهاي «حروب حياة الأمام المهدي»، ط 1 . الخرطوم، 1986م، ص 230.
- (95) نفس المرجع ، ص 429.
- (96) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم عصر محمد علي باشا، ج3، لبنان، بدون تاريخ، ص 149.
- (97) جيرالد جراهام ولد في عام 1831م حيث كان والده يعمل في كمبرلاند، زامل غوردون في كلية الحربية وهو صديقاً له ورافقه في رحلته الأخيرة حتى كورسو، وهو يتبع اللواء المهندسين الملكيين البريطاني، حارب في الصين ونال في حرب القرم وسام صليب فيكتوريا، وقد وصفه ولسلي بأنه يملك

- قلب. أسد عمل في القوات البريطانية في القاهرة قبل أن يرسل إلى السودان في عام 1884م .
- (98) مكي شببكة، السودان عبر القرون ، ط 2، نشر وتوزيع دار الثقافة ،بيروت - لبنان 1965م، ص 308.
- (99) محمد على بركات، السياسة البريطانية واسترداد السودان 1889-1899م مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1977 ، ص 20.
- (100) نفس المرجع، ص 147 .
- (101) محمد سعيد القدال، المرجع السابق، ص 216.
- (102) British Policy In Sudan , Op Cit , 273.
- (103) ولسلي إلى وزارة الحربية ، نمرة 44 ، 4/2/1884م P 224 . Part 11 . P R. O 33/43 .
- (104) (In Mekki Shibeika , British Policy In The Sudan)
- وزارة الحربية البريطانية إلى ولسلي ، نمرة 122 ، 6/2/1885م P227 . Part 2 . P R O WO 33143 .
- (In Mekki Shibeika , British Policy In The Sudan)
- (105) وزارة الحربية إلى ولسلي ، نمرة 17 ، 7/2/1885م ، P227 ، Part 2, P.R.O, WO, 33 /43, (In Mekki Shibeika , British Policy In The Sudan)
- (106) بينما كانت حكومة جلادستون تتشاور في أمر هزيمة المهدي، ظهرت في أفق العلاقات بين روسيا وبريطانيا أزمة حادة تهددت بسببها حدود الإمبراطورية البريطانية في الهند وذلك عندما وقع الاصطدام بين الروس والأفغان، وكان سببه أن الروس احتلوا مرو (Mer) بدعوى إنها داخلية في دائرة نفوذهم وفي انتظار حضور لجنة لتخطيط الحدود بين الروس والأفغان حسب اقتراح الحكومة البريطانية، أحلت الروس المراكز الاستراتيجية المهمة ووقع اصطدام بينهم وبين الأفغان في بنجده (Penjdeko) في مارس 1885م وطالب الرأي العام البريطاني بالحرب مع الروس، إلا أنه في آخر الأمر تم تسوية المسألة بواسطة لجنة أفغانية لحدود (1885 - 1886م)، وتم توقيع اتفاق نهائي في سان بطرسبرج بعد ذلك في عام 1887م، إلا أن الموقف كان وقت الأزمة في غاية الحرج، وخشيت الحكومة البريطانية في إبريل 1885م أن ينتهز الروس فرصة مشغولية الإنجليز بالحرب في السودان فيقتحموا حدود الهند الشمالية الغربية من ممر خيبر.
- وكانت هذه المسألة العامل الحاسم في تقرير الحكومة البريطانية وقف العمليات العسكرية في السودان .
- (107) جرانفيل إلي بيرنق ، (سري)، نمرة 77، 13/3/1885م P R O FO 78/3612 .
- (In Mekki Shibeika , British Policy In The Sudan)
- (108) محمد عمر بشير، الحركة الوطنية في السودان 1900-1969م، ترجمة هنري رياض وآخرون، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1980م، ص 27.
- (109) عبد اللطيف محمد الحميد، المرجع السابق، ص 62.
- (110) Sudan Intel reports, No. 223, Feb 1913, NRO. PS.2/24/154/5
- (111) NRO. PS Sudan Intel Report , No. 260 March 1916, NRO. PS 2/24/154/7
- أيضاً أنظر: عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 64.

- (112) Liddle Hart, History of the World War 1914- 1918, Printed in Great Britain by latimer Trend and Company Plymouth, London, nd, P 181.
فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 530.
- (113) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 66.
- (114) Sudan Intel Report, No. 248, March 1915, NRO. PS 2/24/154/8
- (115) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 68.
- (116) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 55.
- (117) مثلت الجزيرة العربية وحدة جغرافية واقتصادية واحدة و تستند على النظام القبلي كأساس للحياة الاجتماعية وبذلك يختلف مجتمعها عن المجتمعات العربية الأخرى في كل من العراق والشام ومصر، حتى أن تشكيلاتها السياسية تقوم إما على المشيخة أو الإمارة التي تقوم على الفكر الديني المذهبي في جذب المريدين.
- (118) السيد حسين جلال، المرجع السابق، ص 246.
- (119) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1970م، ص-ص 7-9.
- (120) Sudan Intel Report, No 235, Feb. 1914, NRO , P S 2/24/154/5-6 Sudan Intel Report, No 235, Feb. 1914, NRO , P S
- (121) P S 2/24/154/7. Ibid, No 241, Aug. 1914, NRO²⁾
- (122) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 543.
- (123) Sudan Intel Report, No 214, May. 1912, NRO ,P S 2/24/154/7.
- (124) 265, Aug. 1916, Sudan Intel Report, No. NRO, P S 2/24/154/7
- (125) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص-ص 12-15.
- (126) حزام: تمتد أراضي حزام من الساحل إلى مرتفعات جنوب الحديدة.
- (127) الإمام يحيى محمد حميد الدين المتوكل 1869-1948م: هو إمام اليمن من 1904 حتى 1948م وهو مؤسس المملكة اليمنية المتوكلية، اعترف به الأتراك إماماً مستقلاً على شمال اليمن في 1911م بعد حروب طويلة ضد العثمانيين، ورث الإمام يحيى الأتراك في اليمن بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، أقام مملكة إقطاعية تفتقد لأبسط البنى التحتية الضرورية، كما عزل اليمن عن العالم الخارجي لفترة طويلة من الزمن، تعرض حكم الإمام يحيى لعدة تحديات أبرزها ثورة الدستور والتي قتل على إثرها في 17 فبراير 1948م عن عمر ناهز الـ 80 عاماً، وخلفه ابنه أحمد بن يحيى. انظر: حميد الدين القاضي عبد الكريم، سيرة الإمام يحيى.
- (128) عبد اللطيف بن محمد عبد الحميد، مرجع سابق، ص 25.
- (129) نفس المرجع، ص 40، أيضاً انظر إبراهيم محمد حسن، مرجع سابق، ص 66.
- (130) أحمد عزت باشا 1864-1937م: قائد عسكري عثماني، كان من أواخر من حمل الصدارة العظمى للدولة العثمانية، تولى قيادة الجيش الثالث في بداية الحرب العالمية الأولى، كما قاد الجيش الثاني في معارك القوقاز عام 1916م، إلى جانب ما تميز به من مهارة عسكرية، تميز كذلك بالحكمة

- السياسية والإدارية الأمر الذي خوله لمعالجة العديد من القضايا السياسية المهمة لإقرار السلام في الأماكن التي خدم فيها. انظر: الموسوعة الحرة/ 1 مارس 2015م.
- (131) دعان: قرية صغيرة تقع على قمة جبل في الشمال الغربي من عمران.
- (132) فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في اليمن، المرجع السابق، ص 285.
- (133) Winston. S. Churchill, The World Crisis 1911-1918, Vol II, Printed in Great Britain By John Gardner, Liverpool, nd, P 435. ⁽¹³⁴⁾
- (134) NRO, P S 2\24\154, Sudan Intel No. 210, Jan 1912, p14 ⁽¹³⁵⁾
- (135) للوقوف على مختلف الآراء على المستويين الداخلي والخارجي حول الاتفاق: انظر فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في اليمن، المرجع السابق، ص 293-299.
- (136) عبد اللطيف بن محمد عبد الحميد، مرجع سابق، ص 41.
- (137) Gravin. R. J. Aden Under British Rule 1839-1967, First Published, C.H, Hurst and Coated, London, 1975, P P 223-226.
- (138) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 55.
- (139) كانت عسير متصرفة تركية تابعة لولاية اليمن، وكان أشرف مكة يدعون ملكية بعض المناطق المتاخمة للحجاز، وكان أمراء نجد كذلك يدعون ملكية بعض الجهات في المنطقة الشرقية. وانتهى أمر عسير إلى ضمها إلى السعودية في عهد عبد العزيز بن سعود.
- (140) ينتمي الأدارسة إلى أحمد بن إدريس المغربي المولود في القيروان، أسس محمد بن علي محمد أحمد الإدريسي أمارة الأدارسة في صديا بعسير. ولد الإدريسي ونشأ في صديا في عام 1909م، وفشلت الدولة العثمانية في التوصل معه إلى صلح، تحالف مع الإيطاليين ضد الدولة العثمانية، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى حارب إلى جانب بريطانيا التي سلمته الحديدة بعد نهاية الحرب، ولكن بعد وفاته اهتزت مكانة الأدارسة ومن تبقى منهم سلمهم الإمام يحيى إلى الملك عبد العزيز بن سعود طبقاً لبند الصلح الذي عقد بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز بن سعود، انظر: الموسوعة الحرة- الأدارسة.
- (141) عبد اللطيف بن محمد الحميد، مرجع سابق، ص 26.
- (142) NRO, P S2/24/154, Sudan Intel Report, No. 212, 11 April 1912, p8. ⁽¹⁴³⁾
- (143) 2/24/154, Sudan Intel Report, No. 212, 11 April 1912, p8. NRO, PS ⁽¹⁴⁴⁾
- (144) NRO, PS 2/24/154, Sudan Intel Report, No. 202, March 1912, p8¹
- (145) NRO, PS 2/24/154, Sudan Intel Report, No. 214, May 1912, p7.
- (146) NRO, PS 2/24/154, Sudan Intel Report, No. 210, Jan 1912, p14. ⁽¹⁴⁷⁾
- (147) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في عدن، المرجع السابق، ص 545.
- (148) Sudan Intel Report, No 256, Aug 1916, NRO, P S 2/24/154/7.
- أيضاً أنظر:
- Telegram From Clayton, to Mukhabarat Khartoum, dated in 10.11. 1914, NRO, Intel 1/1/11/39.
- (149) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 560.

- (150) Sudan Intel Report, No 245 , Dec. 1914, NRO, P S 2/24/154/7-8 .
- (151) Sudan Intel Report, No 245, Dec 1914, NRO, P S 2/24/154/8.
- (152) Letter From Assistant Director of Intelligence to Governor of Port Sudan, 17.11.1914, NRO, Intel 2/28/405/71. ⁽¹⁵³⁾
- (153) Sudan Intel Report, No 250, May 1915, NRO, PS 2/24/154/10
- (154) NRO, Intel 2/28/405/63.
- كذلك أنظر: مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص 11-20.
- (155) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية، المرجع السابق، ص 564.
- (156) Sudan Intel Report, No 262, May 1916, NRO, PS 2/24/154/8-9.
- (157) Sudan Intel Report, No.248, March 1915, NRO, P S 2/24/154/8
- (158) Ibid, No 265, Aug 1916, PS 2/24/154/7. ⁽¹⁵⁹⁾
- (159) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص 18-19.
- (160) Telegram From Governor General, Khartoum to Governors of Provinces, 7 th Nov 1914, NRO, Intel 1/1/11/9.
- (161) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص 66-67.
- (162) Sudan Intel Report, No. 291, April 1916, NRO, P S 2/24/154/7.
- (163) جورج انطونيوس، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، د. ت، ص-ص 229-331.
- (164) Sudan Intel Report, No 245, Dec 1914, NRO, P S 2/24/154/8-9. ⁽¹⁶⁵⁾
- (165) Gratt will. C.R.M, A history of the Great War 1914-1918, Second Edition, Granda publishing limited, London, nd , P 204.
- (166) علي فؤاد: ضابط تركي ورئيس أركان حرب جمال باشا وقائد الفيلق الثامن الذي كان مكلفاً بغزو مصر في الحرب العالمية الأولى في عام 1915م، كان علي فؤاد من عظماء الضباط الأتراك وقد شهد له بالشجاعة والبراعة السياسي الأتلافي الشهير «فون بابن». شارك علي فؤاد في الحملة التركية علي اليمن، ثم عين ملحقاً عسكرياً في باريس قبل أن يصبح رئيساً لأركان حرب جمال باشا، وعندما أصّر جمال باشا علي إعدام أحرار العرب في محاكمات عالية بزل علي فؤاد قصارى جهده لاستعطاف جمال باشا من اجل تخفيف الأحكام ولكنه لم يفلح. وعندما قامت تركيا الحديثة عُين علي فؤاد سفيراً لتركيا في موسكو، أيضا كانت للمذكرات التي كتبها علي فؤاد مرجعاً مهماً لتاريخ سوريا والحرب العالمية الأولى. انظر: عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 114-117.
- (167) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 114.
- (168) Sudan Intel Report, No.249 , April 1915, NRO, P S 2/24/154/8.
- (169) عبد اللطيف بن محمد بن محمد بن الحميد، مرجع سابق، ص 116.

- (170) Sudan Intel Report, No. 250 , NRO, P S 2/24/154/10-11.
- (171) Sudan Intel Report, No. 241, Aug. 1914, NRO, P S 2/24/154/7.
- (172) Sudan Intel Report, No 234, Jun. 1914, NRO, P S 2/24/154/9.
- (173) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص 39-46.
- (174) Sudan Intel Report, No 255, Oct 1915, NRO, P S2/24/154/6.
- (175) Sudan Intel Report, No. 245 , Des 1914, NRO, P S 2/24/154/8.
- (176) محمد فريد بك 1868-1919م أحد كبار زعماء الحركة الوطنية المصرية، ترأس الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل، انفق ثروته في سبيل القضية المصرية وأعلن أن مطالب مصر هي الجلاء والدستور، ورأي بأن أفضل وسيلة لتحقيق هذه الأهداف تعليم الشعب لذلك أنشأ فريد مدارس ليلية في الأحياء الشعبية لتعليم الفقراء مجاناً، أنشأ أول نقابة للعمال سنة 1909م. عرفت مصر علي يده المظاهرات الشعبية المنظمة، سافر فريد إلي أوروبا علي حسابه الخاص لدعوة كبار معارضي الاستعمار لتوصيل صوت القضية المصرية للمحافل الدولية. ورغم تعرضه للمحاكمات إلا انه واصل كفاحه ضد الاستعمار حتى وفاته عام 1919م، انظر: جلال يحي ومحمد نصر مهنا، مصر الحديثة، ص 63
- (177) litter From Assistant Director of Intelligence Khartoum to Governor of Red Sea Province, 14 th November 1914, NRO, Intel , 1 / 1 / 11 / 83.
- (178) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص- ص 119-121.
- (179) Declaration of the Sudan Governor, to the Ullama, Khartoum, 10 th November 1914, NRO, Intel1/1/11/71.
- (180) Extract from Sudan times of 24.9.1914, NRO Intel 2/28/405/63
- (181) سعى الألمان لسحق الدين الإسلامي في أفريقيه الشرقية، كتيب أصدره قلم المخابرات من هيئة أركان الحرب لقوات ملك جلالة بريطانيا العظمى في القطر المصري يوليو 1916. انظر: NRO, Intel 1/1/11
- (182) مكي شبكية، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، المصدر السابق، ص- ص 7-9.
- (183) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 126.
- (184) نفس المرجع، ص 127.
- (185) Sudan Intel Report, No 260, march 1916, NRO , P S 2/24/154/7
- (186) , No 251, June 1915, NRO, P S 2/24/154/8. Sudan Intel Report
- (187) Sudan Intel Report, No210, Feb 1915, NRO, P S 2/24/154/11.
- (188) Sudan Intel Report, No261, April 1916, NRO , P S 2/24/154/7
- (189) Sudan Intel Report, No 285, June 1916, NRO, P S 2/24/154/6.
- (190) Proclamation of The War Signed by Reginald Wingate Governor General of the Sudan, Khartoum 7 th November 1914, NRO Intel 1 / 1 / 11 / 1, P P 1-7-8.

أيضا انظر:

Proclamation By The General Commanding In Chief His Britannic Majesties Force in Egypt, NRO, Intel2/48/406.

From The Secretary Sudan Defense Central Committed to the Governor Red Sea Province, Port Sudan 2nd, October 1914 , NRO. PS 2 2/14/91, PP 1-3 .

From Special Defense to the British Infantry Detachment At كذلك انظر: .Port Sudan, NRO, P S 2/14/91

From Secretary Sudan Central Bureau to Al Lewa Wilson Pa- أيضا انظر: -sha Officer Commanding Red Sea District, NRO, P S 1/14/1-2

(191) جون ماكسويل 1859-1929م: ولد في مدينة ليفربول ببريطانيا في 11 يونيو 1859م، درس الأكاديمية الملكية العسكرية، بعد تخرجه حارب في كل من السودان ضد الدولة المهدية، وفي جنوب إفريقيا ضد النوير سنة 1900م، كما انه حارب في الحرب العالمية الأولى حيث خدم في الجبهة الغربية قبل أن يتم اختياره قائداً لقوات الحلفاء في مصر ونجح في حماية القناة من الهجوم العثماني، ساهم ماكسويل في القضاء علي التمرد بايرلندا سنة 1922م. حصل ماكسويل علي عدد كبير من الأوسمة والنياشين كما انه بلغ أعلي المراتب العسكرية في بلاده. توفي ببريطانيا عن عمر ناهز ال 69 عاماً. انظر Harvie Christopher, A floating Common wealth, Politics : Culture and Technology On Britain's Atlantic Coast 1880- 1930, Oxford University Press, P 343

(192) عبد اللطيف ابن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 132.

Letter From R.H Peirse Vice- Admiral Commander In – Chief President- Pre-serpine at Port Said,

(193) -4 th January 1914, N.R.O.S, Intel 2/48/406.

(194) -Letter From Governor of Red Sea Province to The Assistant Director of Intelligence, 4 th

(195) November 1914, Khartoum, NRO, Intel 1/1/11/93. (196)

-Proclamation, Signed by Reginald Wingate General Governor of the Sudan, Khartoum, 7

(196) th November 1914, NRO, Intel 1/1/11, P 1-2.

.Sudan Intel Report, No 247, Feb 1915, NRO, PS 2/24/154/7-8 أيضا انظر:

(197) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 584.

(198) Sudan Intel Report, No 251, Jun 1915, NRO, P S 2/24/154/8.

(199) جون بولدرى، العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن أبان الحكم التركي 1914-1919م، ترجمة سيد مصطفى سالم، صنعاء، 1981م، ص 34.

- (200) فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في اليمن، المرجع السابق، ص 382.
- (201) تقع الشيخ سعيد غرب عدن بنحو سبعة كيلو متر، كما أنها تطل مباشرةً علي مضيق باب المندب الذي يتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر.
- (202) للوقوف على تفاصيل هجوم الأتراك على لحج أنظر فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص-ص 593-597.
- (203) إبراهيم محمد حسن، المرجع السابق، ص 170.
- (204) فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في اليمن، المرجع السابق، ص-ص 408-406.
- Hurewitz. J. C , The Middle East and North Africa In World Politics, Vol 1 , 2 nd Editions,
- (205) London, 1975, P 14-15
- (206) لوتسكي، المرجع السابق، ص 446.
- (207) NRO, Intel 1/1/11/7.
- (208) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 158.
- (209) Sudan Intel Report, No 245, Dec 1914, NRO, P S 2/24/154/8.
- (210) حامد عبد اللطيف نقد السيد، دور السودان في الحرب العالمية الأولى -1914 1918م، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان، 1998م، ص 48.
- (211) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 164.
- (212) NRO, Intel 1/1/11/8. ⁽²¹³⁾
- (213) Sudan Intel Report, No 245, Dec 1914, NRO , P S 2/24/154/8.
- (214) Winston. S. Churchill, The World Crisis 1911-1918, Op Cit, P 451.
- (215) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 167.
- (216) إبراهيم محمد حسن، المرجع السابق، ص 160.
- (217) جمال باشا، مذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري، مكتبة الهلال، القاهرة، 1923م، ص-ص 287-290.
- (218) أرشبالد موراي -1860 1945م: ولد بهام شير ببريطانيا في 23 ابريل 1860م، درس في الكلية العسكرية الملكية وتخرج ضابطاً في 13 أغسطس 1879م، وفي عام 1898م اشترك في حرب النوير قبل أن يلتحق بالمخابرات البريطانية في ناتال، تنقل بين عدد من وحدات الجيش البريطاني داخل وخارج بريطانيا، ونال عدد من الترقيات والنياشين، وعند إعلان الحرب العالمية الأولى حارب موراي في الجبهة الفرنسية حيث ظهرت مواهبه العسكرية القيادية إلى جانب قوة التحمل والجلد، وفي أول يناير 1916م عين موراي قائداً عاماً لقوات الحلفاء في مصر حيث شرع في وضع الدفاعات داخل سيناء بدلاً عن البقاء بالقناة الأمر الذي أدى إلى إخفاق الهجوم العثماني الثاني علي قناة السويس. في عام 1917م قاد موراي معركة غزة التي انتصر فيها علي القوات العثمانية ودخل المدينة، تقاعد عن الخدمة العسكرية في 15 نوفمبر 1922م بعد أن تحصل علي أعلى المراتب العسكرية والنياشين والأوسمة في بلاده. توفي موراي في 12 يناير 1945م. انظر: Sir A b c d e f g h i j k ,

- .Archibald Murray, Oxford Dictionary of National Biography, 2004
- (219) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 191.
- (220) إبراهيم محمد حسن، المرجع السابق، ص 162.
- (221) جمال باشا، المصدر السابق، ص-ص 289-290.
- (222) Liddle Hart, Op Cit, P- P 279-280.
- (223) NRO, Intel 1/1/11/8.
- (224) حامد عبد اللطيف نقد الله، المرجع السابق، ص، 45.
- (225) عبد اللطيف بن محمد الحميد، المرجع السابق، ص 191.
- (226) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 646.
- (227) Liddle Hart, Op Cit, P 279. ⁽²²⁸⁾
- (228) Sudan Intel Report, No 266, Sep. 1916, NRO , P S 2/24/154/6.
- (229) Sudan Intel Report, No 263, June 1916, NRO, P S 2/24/154/11.
- الثورة العربية الكبرى تاريخ جامع للقضية العربية في ربع قرن، المجلد الأول، القاهرة، د. ت - ص-ص 254-259.
- (230) جورج انطونيوس، يقظة العرب، المصدر السابق، ص 324.
- (231) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 647.
- (232) جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص- ص 341-346.
- (233) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، المرجع السابق، ص 651.